سلسة ابحاث كتابية [١٤]

مذكرات مريم

تأليف: جاكلين سافيريا هوري

تعريب: المطران جرجس القس موسى

دار بيبليا للنشر
الموصل ٢٠٠٩

صورة الغلاف

العذراء على الكرسي للفنان الايطالي الشهير رافاييللو
متحف فلورنسا / رواق بالاتين

مذكرات مريم

فتاة الناصرة

تأليف: جاكلين سافيريا هورني

تعريب: المطران جرجس القس موسى

منشورات مركز الدراسات الكتابية
الموصل - العراق
٢٠٠٩

صدر الكتاب بالفرنسية بعنوان:

Jacqueline Saveria Hure
MEMOIRES DE MARIE
Fille d' Israel
La Table Ronde, Paris ١٩٨٦

كلمة الناشر

... وكان لابد لسلسلة "أبحاث كتابية" أن تخصّ مريم أم يسوع بكتاب يبرز مكانتها في حياة الكنيسة الناشئة، هي التي كانت أولى المؤمنات، وأصبحت من ثَمّ أمّ المؤمنين جميعًا.

وكتاب "مذكرات مريم، فتاة الناصرة"، بقلم جاكلين سافيريا هوري، كان قد لفت انتباه المطران جرجس الذي عمد إلى ترجمته وانتهى منها في أواخر ٢٠٠٧، وها هو يبصر النور مع مطلع عام ٢٠٠٩، متخذا الرقم ١٤ في السلسلة.

ولعلّ أروع ما سحر المعرب – وسيسحرنا نحن أيضاً– هي الكوّة التي منها أطلّت الكاتبة "الملهمة" لترى وتسمع فتاة الناصرة تتحدث عن ذكرياتها الملتصقة بحياة يسوع في كل جوانبها، وبأحداث الكنيسة الأولى في كل أبعادها... لا سيما حين أرهفت الأذن والقلب لتصغي إلى ما كانت مريم "تتأمل به في قلبها" وتدلي به إلى المقرّبين من أمثال لوقا! ذلك هو "بعض ما كانت ستكتبه" مريم لو أتيح لها أن تسجّل "مذكراتها" اليومية، بما فيها من مشاهدات وأفراح ومعانيات بسبب ابنها، نبي الناصرة! وهكذا عرفت جاكلين هوري – وهي الأديبة والقصصية– أن تكون الناطقة باسم أمّ الناصري، فتبتكر مضامين حوارات استقتها من البيئة الفلسطينية في سياقاتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية...

وإذا كتب يوحنا الإنجيلي أن يسوع صنع آيات أخرى كثيرة لم تُكتب... وإذا ردّد التقليد بأن ما كتبه لوقا عن طفولة يسوع، كانت قد أسرّت به اليوم مريم... وإذا سعت الأناجيل المنحولة إلى ملء الفراغ الذي تركه الإنجيليون، بتفاصيل لامست الخيال واللامعقول... إلا أن هذا الكتاب الذي نضعه بين أيديكم، قراءنا الكرام، ليس إنجيلاً منحولاً، ولا يدّعي انه كتاب وثائقي معتمد، وإنما تكمن فرادته في أسلوبه الروائي المطبوع بخيال واسع اتّسم بالرقة والنكهة، إذ جعلت الكاتبة البارعة، على لسان مريم، "مذكّرات" تستلهم قصص الإنجيل ورواياته بتوسعات تلامس الواقع!

إنها بالتالي "مذكّرات" تعكس بشرى يسوع بقلم مريم! بشرى كشفت عن دواخل شخوص كانت لهم صلة بيسوع، ورسمت ملامحهم ومواقفهم من وجهة نظر فتاة الناصرة، أم يسوع الناصري!

مع تحيات دار بيبليا للنشر

تقديم المعرب

سأبقى أوفي ديوني الواحد تلو الآخر. وتعريب هذه *المذكرات"* دين قديم للأم عليّ.

فلقد سحرتني آفاق هذا الكتاب والزاوية الخاصة التي وقفت فيها المؤلفة تراقب وتستمع إلى مريم بنت الناصرة وأم يسوع، هذه الزاوية وتلك الآفاق أثارتا إحساسي وفضولي منذ ظهور الكتاب سنة ١٩٨٦، يوم كنا نتابع نبض النشر المسيحي العالمي، خطوة خطوة، من خلال "الخدمة الصحفية" في مجلة "الفكر المسيحي". ولقد استحوذ الكتاب، كسابقيه، على "أوقاتي الضائعة" بين نشاط وآخر، ضمن الأبرشية، وفي حلّي وترحالي، في انتظارات المطارات، ومن طائرة إلى أخرى، واستغرقت رحلتي معه تسعة أشهر حتى انتهت في ٢ أيلول ٢٠٠٧.

في إحدى قرى بلجيكا، حيث كنت أقيم قداس الأحد أثناء فترة دراستي في أواخر السبعينات، دعتني سيدة إلى تناول الفطور في بيتها لمناقشة فكرة ألقيتها في الموعظة وقد تشككت منها، وهي أننا من كثرة ما ننظر إلى يسوع بصفته الإلهية الممجدة، نسينا أنه

إنسان كامل أيضا - ما خلا الخطيئة-، قد ذاق التعب والجوع وأحبّ الأطفال والطبيعة ووديان بلاده وجبالها، وتذوّق الصداقة وآلمته الخيانة، وحمل الصليب الخشبي بثقل ذلّه وتألم بجسده ونفسه "حتى الموت". في حينها شكرت السيدة وقلت لها مازحا: يا ليتني أخطأت كل مرة كي أحظى بدعوتك! ولكنها أتاحت لي الفرصة لأقول لها أيضا: بفهمنا إنسانية يسوع كم يزيد فهمنا لحبه العظيم لنا، وكم يتعمق إحساسنا بثمن هذا الحب: ما من حب أعظم من هذا، أن يبذل الإنسان نفسه من أجل الذين يحبهم.. هكذا أحب الله العالم حتى جاد بابنه الوحيد من أجل حياته..! وكم يكتسب كثافة وقوفه إلى جانب الفقراء والصغار ومُعْدَمي المجتمع!

هكذا، مَنْ منّا لم يفكر بمريم إلا وهي سلطانة الملائكة، وسيدة الرسل، وملكة الشهداء، وأم الكنيسة.. أو لم يرها سوى في ثوب سيدة لورد، وسيدة الكرمل، وعذراء فاطمة، ونوتردام... ونسي أنها كانت قبل هذا كله فتاة من الناصرة، امرأة من لحم ودم ومن شعب معيّن وبلد وتراث إنساني وديني في الزمان والمكان.. وأنها أم يسوع ابنها، قبل أن تكون أم المسيح ابن الله.. ونظرت إلى عيونه وضمّته إلى صدرها كأم.. وتألمت للمعاكسات التي نالها من أهل بيته وقادته إلى الموت. وبذلك كله نشعر بها أقرب إلينا بمعاناياتها وإنسانيتها.. ونقترب نحن منها في أمومتها ونتدافع للاحتماء بحنانها كأطفالها. تماما كما شبهها أحد القديسين: مريم، *أم لها أطفال كثيرون، كل واحد يجرّ ذيل ثوبها إليه!*

في هذا الكتاب، لا تفكر أنك ستقرأ مذكرات "حقيقية"، "وثائقية" كتبتها مريم أم يسوع بقلمها وهي جالسة في صومعتها الهادئة في أفسس، تستذكر في غروب حياتها ما جرى لها وما شاهدته وسمعته، بل قل.. أو بالأحرى هذا ما حاولت قوله المؤلفة بين السطور: لو كتبت مريم مذكراتها عما جرى لها وما شاهدته وسمعته، وعادت وقرأته بأعين فتاة يهودية تقية، وإحساس امرأة مرهفة، وعاطفة أم حنون لوحيد لم تفهم بواطن رسالته دوما.. فهذا بعض مما كانت ستكتبه..! أليس في هذا الافتراض شيء مما عناه الإنجيلي لوقا عندما كتب بعد حادثة فقدان الفتى يسوع في الهيكل: *"فقالت له أمه: "يا بني، لم صنعت بنا ذلك؟ فأنا وأبوك نبحث عنك متلهفين"*. وعلى جوابه الغريب: *"لم تبحثان عني. ألم تعلما أنه يجب أن أكون عند أبي؟"، فلم يفهما ما قال لهما"!* ويستخلص لوقا بعبارة تستحق التوقف، إذ ترد لديه مرتين، الأولى بعد زيارة الرعاة، والثانية هنا بعد حادثة الهيكل: *"وكانت أمه تحفظ تلك الأمور كلها وتتأملها في قلبها"* (لو ٢: ١٩، ٥١).

الكتاب الذي بين يديك ليس نصا إنجيليا، وان كانت أحداثه وأقواله مشبعة بأجواء الإنجيل ومستقاة منه؛ ولا هو سفر من أسفار التوراة، وان كانت التوراة تلفّه بروحها واستذكاراتها من الألف إلى الياء؛ ولا هو مخطوطة عتيقة اكتشفت حديثا *لمذكرات* مزعومة كتبتها مريم بنت يوياقيم وأم يسوع الناصري بخط يدها. كلا، بل انه عمل أدبي على شكل رواية طويلة *ومذكرات* من نسج

خيال الكاتبة الفرنسية جاكلين سافيريا هوري، تعيد فيها تركيب أحداث حياة مريم وابنها يسوع وتلامذته الأوائل، بأسلوب قصصي بارع ورقيق، وفي قراءة مجددة على ضوء الوقائع اللاحقة، وتضع هذه *"المذكرات"* المفترضة على لسان مريم، وكأن مريم نفسها تكتبها للاستذكار والتأمل واستخراج العبر والمعاني بما لم يتّضح لها في حينه. تقول مريم للوقا في الفصل الثاني والثلاثين: *"ما كشفت لك يا لوقا في ذلك الزمان، لم أكن قادرة أن أسرّه لغيرك.. وأمام غيرك من الكبار كان الصمت ملجأي".*

الصمت ! والتأمل!.. أجل، إنها سمة من سمات شخصية مريم العذراء كما تقدمها لنا الأناجيل، وكما تعكسها "رواية" جاكلين هوري. ففي إطار من الهدوء النفسي والسلام الباطني، تنكشف الطبيعة الخارقة لأفراحها وآلامها ودهشتها أمام الأحداث، مما لا ينفي أن هذه الدهشة وذينك الفرح والألم لم يمزقوا أحيانا هذه المرأة المباركة في النساء بين توراة إيمانها الراسخ وعمق قدسية الشريعة لديها، وبين مصداقية ابنها وبشرى حبها المطلق الذي كانت الجلجلة ذروته، لا نهايته.

حبكة الرواية خيالية، وتسلسل الأحداث افتراضي، والحوادث جولة باطنية تميط اللثام عن العالم الداخلي للشخوص.. انطلاقا من استقراءات ذكية للمواقف والأدوار المسندة إليهم في أسفار العهد الجديد، أو في سياق النص الروائي. فيعطي النص جسدا واقعيا وكثافة مادية لشخصيات جاء ذكرها عابرا، أحيانا، في

الأناجيل وأعمال الرسل.. وإذا بهم هنا شخوص من لحم ودم، لهم وجوه وقلوب مثلنا، زاخرون بالحيوية، فيهم الطيبة وفيهم الخشونة، فيهم الغيرة وفيهم الطموحات العربيدة.. ولكن الكل مستوحى من واقع الحياة في المجتمع الفلسطيني في النصف الأول من القرن الأول الميلادي، حتى جاء الكتاب مرآة أمينة للواقع المعاش، على الأصعدة الاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية.

لذا بوسعنا أن نقول بأن *"مذكرات مريم فتاة الناصرة"* ما هي إلا جولة متشعبة المرامي في ذاكرة الشعب اليهودي في زمن السيد المسيح، وإعادة لقصة يسوع في بيئتها الطبيعية ووتيرتها التاريخية، منذ ما قبل مولده وحتى مولد الكنيسة الناشئة، وذلك في عيني وقلب أم تراقب ولا تفهم دائما؛ تريد الراحة والأمان لابنها، ككل أم، وتقلق لصداماته مع السلطة؛ تريد له الحياة لا الموت.. ولكنها لا تقف بوجهه.. بل تبدو تلميذته في أحيان كثيرة. أو يكون سهلا على الوالدة أن تكون أم نبي؟!.. وها هنا أعظم من نبي!

لاشكّ أن حوارات جاكلين ساڤيريا هوري تنزع الهالة حتى من رؤوس التلاميذ كما نراهم في الأيقونات لنتابعهم في جهودهم التبشيرية، وكيف بنوا الكنيسة في خطواتها الأولى، في السهر والمشقات والصلاة، ولكن في اختلاف وجهات النظر أيضا، ككل البشر، حيث احتفظ كل واحد بشخصيته وطباعه، وان انصاعوا لعمل الروح كي يصقل ويشذّب. ولكنهم بفعل هذا الروح الذي رافقهم، لم يدعوا الاختلافات تتحوّل إلى خلافات. ففي خضم

الصراع الحضاري والثقافي بين تياري الانفتاح الذي مثّله بـــولس، والتقليد الذي مثّله يعقوب، يقف بطرس موقف الاعتدال، هو الذي، مدفوعا من الروح، قبل أول أممي في حضن الكنيسة الناشئة ودخل بيته، ها هو يعلن باسم الجماعة كلها: "لقد حسن لدى الروح القدس ولدينا أن ..." (أعمال ١٥:٢٨).

هكذا ، إذن، يعيدك هذا الكتاب، قارئي العزيز، إلى طرقات الجليل ووهاد اليهودية وضفاف الأردن، وإلى أورشليم وقانا وبيت عنيا وبيت لحم والناصرة وحتى مصر وأفسس، وأنت ماســك بيــد مريم كطفل صغير.. تنظر إلى عينيها وتسجل فـــي قلبــك كلماتهــا وصوتها وابتسامتها.. وحتى دموعها، وبهذا الضوء الجديد تعيــد قراءة إنجيل يسوع المسيح لتتشبع منه في أعماقك غذاء.. وفرحا.. وبشرى حياة.

في هذه الترجمة أهملت الفصل الأول الذي هو بمثابة مدخل على أجواء القصة، وبدأت حالا بالفصل الثاني الذي أصبح الفصـــل الأول، ويستهل بهذه الحكمة المتداولة، والتي تضعها المؤلفة على لسان حنة، أم مريم: "ما رأيناه وسمعناه، لن نســكت عنـــه أمـــام أحفادنا". وكأني بها صدى لعبارة يوحنا التلميذ الحبيب الـــذي أوى مريم أم يسوع عنده في بيته بعد غياب المعلم: "ما سمعناه، ورأيناه بأعيننا، وتأملناه، ولمسته أيدينا... نبشركم به.. لتكون لكم الحياة" (١ يو١: ١-٢).

كما وضعت بين [...] بعض الفقرات التي لم أر ضرورة نقلها تحاشيا للترهل بتفاصيل فائضة. وأفردت عنوانا "لمجمع أورشليم"، بقسمة الفصل الثاني والثلاثين إلى فصلين، علما أن عناوين الفصول كلها من عندي، وقد استلهمتها من وحي عبارات وردت في أول فقرات الفصول. وسميت الفصل الختامي "خاتمة"، حيث تبرز شخصية أكيلا وبريسكلا كعاملي تبشير من صفوف العلمانيين. وفعلت ذلك بقصد. وتنفرد الفقرات الأخيرة بمثل فتاة يونانية متحررة اعتنقت المسيحية، وتمثل نموذجا لعنفوان الشبيبة التي تحركها المثل العليا والعطاء والطيبة فقط، ولا قبل لها بتعقيدات التقاليد وخلفيات الطقوس والأنساب.

كتاب جديد.. أهديه إلى طلابنا الحاليين والقدامى في الدورات الكتابية واللاهوتية وإلى مراكز التربية الدينية والمعاهد الكهنوتية، وإلى كل متتبعي الدراسات الكتابية..

وأخيرا.. إلى كل الأعزاء الذين عاضدوني في التنضيد والتنقيح والإخراج شكري وامتناني. كما أشكر مركز الدراسات الكتابية في الموصل لإدراج "*مذكرات مريم*" في منشوراته.

٢٠٠٨/٣/١ المطران جرجس القس موسى

القسم الأول

الفصل الأول

ما سمعناه...

"ما سمعناه ورأيناه، لن نسكت عنه أمام أحفادنا". قاعدة من قواعد يعقوب، وشريعة من شرائع إسرائيل حرصت والدتي على تطبيقها حرفياً. فلقد كانت ذاكرتها صهريجاً محكماً لا يتسرب منه الماء. وكانت تملك موهبة رائعة لسرد الوقائع بتفاصيلها وبطول أناة، سواء كانت الوقائع مما عاشته هي نفسها أو تناقلته الأجيال ضمن الأسرة. وكانت تهدي لي هذه القصص بسخاء وحيوية بحيث صرت أشعر وكأنني عايشت حصار أورشليم على يد هيرودس، أو رأيت الطاعون بأم عيني يحصد الناس في المنطقة، أو الماء يباع بالدراهم، أو المؤمنين يستسلمون للموت على أن يأكلوا جرذاً، إبان المجاعة.

– لقد كان الأمر إذن أكثر فضاعة مما في زمن الضربات في مصر!

– كانت المصائب كلها تقع في آن واحد. فلقد شاء الرب أن تكون تلك السنة سنة سبتية، فتشققت الأراضي المتروكة من دون حراثة تحت لهيب الشمس، وجفّت الينابيع.

– لماذا لم تلتجئوا إلى هوني الساحر، مزّل المطر؟

– كان هوني قد توفي منذ زمن طويل. لربما هيأ ابنه لهذه المهمة. لست أدري. على كل حال، كان الجفاف قد أصاب كل شيء: قطعان الغنم والبقر، وحتى البشر. وكانت الحمى تطارد الناس كالأعمى الذي يضرب كل شيء أمامه، وكان التجار يرفعون الأسعار: دينار لقارورة حليب صغيرة، و ١٦ درهماً لكيلة دقيق. ليسقط شعر رأسي إذا ما كنت أكذب!

كان لساني يلتصق بحنكي هلعاً وأنا أستمع إلى والدتي. ثم استطردت قائلة:

- وكما لو كانت هذه المآسي غير كافية هجم علينا البدو بأسلحتهم ظانين أننا قد بلغنا رمقنا الأخير!...

كانت ذكريات أمي تتكدس في ذاكرتي بقدر ما كنت أفتعل نسيانها كي تضطر على سردها من جديد. لقد كنا امرأتين فقط في البيت، ولكننا كنا منشغلتين دائماً وعلى أهبة الاستعداد. إن الأعمال المترلية، لاسيما الخفيفة منها، تدع الروح حرا للتأمل. هذه هي إحدى ميزات جنسنا النسوي، وكنت أستثمرها بلا حدود. لاشك أنني كنت أفضل هذه القصة على غيرها، فكنت أتلذّذ، مثلاً، بأخبار الهزات الأرضية، على عكس سائر الناس، وذلك بسبب نهاياتها السعيدة.

- لقد سردتُ عليك هذه القصة سبعين مرة...

- كنت إذن في ذلك اليوم في عين كارم...

لقد أحببت عذوبة عين كارم دوماً، هذه القرية المستلقية آمنةً في واديها الطويل في ظل أشجار اليوكاليبتس واللوز، مانحة لزائريها في شهر أيلول نسيماً عذباً رقيقاً دون حاجة إلى الابتعاد كثيراً عن العاصمة. كما أحببت عين كارم لأنها قرية إليشباع وزكريا نسيبيّ. وكانت حكايات والدتي تكتسب نكهة خاصة إذا ما تزامنت مع زيارة أقربائنا.

- وكنا في عين كارم، يوم تزوج زكريا إليشباع وظهر لأول مرة بعد الزواج، وكان والدك معنا بالطبع. وقد دُعي أعضاء آخرون من العشيرة إلى الاحتفال، ومنهم قليوفا ومريم، وكانا مخطوبين. واختار الرجال محطة استراحة في موضع ظليل، كثيف العشب، عليل نسيمه من دون رطوبة، وكانت عترة ترتع في أحد أطرافه. وحطت النساء حِمل الحمار مما يحمله من طعام الطريق وبسطن السلال أرضاً، وبينما انشغل زكريا في تعليق الزقاق في أغصان شجرة الزيتون حدث فجأة...

كلمة "فجأة" هي التي كنت أنتظرها في قصص والدتي لتضاعف من دهشتي، أو فرحي، أو خوفي.

- وحدث فجأة أن فقدت توازني وارتطمت بصخرة، فطار الإناء من يدي، وجفلت العترة فقطعت حبلها، وانتفض الحمار وهرب، وسقطت إليشباع على ركبتيها، وكأن الأرض قد اهتزت تحت أقدامنا.

- والسماء كيف كانت؟ هل لاحظتم علامة ما؟

فقالت والدتي مستغربة من سؤالي:

- السماء؟

وبعد برهة تفكير قالت ببطء لئلا تخطئ في إجابتها:

- لم ألاحظ أي شيء.

واستطردتْ كمن يريد إيضاحاً:

- كيف لي أن أعرف؟ فالغبار كان يخرق عينيّ، وعندما فتحتهما رأيت والدك ساقطاً أرضاً.

وأعدت ترتيب بقية القصة: حيث جرح والدي من جراء سقطته، وحملوه إلى العين التي نضبت مياهها. وكان رجل من المارة يصرخ:

- الهيكل.. الهيكل! هكذا قال الرب: "سأجعل من مدن يهوذا خراباً".

لقد تسبب الزلزال هذه المرة بخراب كبير، ولكن الأزلي بقي حريصاً على مسكنه. أما الموتى.. هل كان ثمة موتى؟ أجل. في قصص أمي كان ثمة موتى دائماً. كم؟ لقد كانت تؤثر الصمت كل مرة يدور الحديث عن نهاية حياة بشر أو عن نهاية العالم.

- الموتى؟ الله وحده يعلم عددهم.

- هل كان ثمة أبرار بينهم؟

فحدجتني أمي بنظرة مؤنبة:

- لا يحب الله المناقشة يا ابنتي.

ومع ذلك كنت أفكر بأي فضل عظيم خلص الرب عائلتنا من هذه الكوارث التي لا تحصى؟ لاشك أن القاضي يثيب أو يعاقب على هواه. أفلا ينبغي إذن أن نشكر الرب شكراً خاصاً متميزاً إضافة إلى هذه التبريكات الطقسية المألوفة وحدها؟ مثلاً: بتقدمة خاصة أكثر سخاء؟ وكانت والدتي، في عزّة نفسها، تتردد في تأييد فكرتي. إنها أبت أن تكون مدينة لأي أحد، حتى لو كان هذا الأحد هو العلي القدير. ولكن المرء لا يتعامل مع الرب كما يتعامل مع خليقة يردُّ دَينَها بهدية ما.

- الأفضل أن تتركي الأمر له يا مريم. لربما هو الذي سيملي عليك ما تفعلين. قد يوحي إليك هو نفسه بما ينتظره منك.

وفي عيد "البوريم" الذي نحيي فيه ذكرى الملكة أستير زوجة أحشويرش الذي أنقذ اليهود من القتل، ألبستني أمي ثياباً مستعارة، كما كانت العادة في هذا الموسم، وذكرتني بأن الرب يستخدم النساء أحياناً لتحقيق مراده. وخزنت تلك الكلمة في عمق قلبي الفتي وأنا في تلك السن. وكنت أحلم، وأنا جالسة في العربة المزينة بورد الحقل، بأن

الأزلي سيتنازل ويستخدمني يوماً، وبأن خضوعي لمشيئته سيكون عربون شكر للأفضال التي غمرنا بها تعالى.

لدى الحديث عن ذكريات الطفولة، لا يسعني أن أفصل بين جارتيّ وزميليتيّ راعوث وراحيل. فلقد كانتا تعرضانني لتجربة شبيهة بتجربة حواء في جنة عدن عندما كانتا تدعواني لتذوق أول الجنى من تينة الدار، وكانت التجربة أقوى مني. وكنت إذ أعود إلى الدار، وخدودي وأصابعي ملتمعة بحُبيبات التين التي أغوتني، تبادرني والدتي بدهشة مصطنعة:

- لعلك ذهبت مرة أخرى عند راعوث وراحيل!

لم تكن نبرة والدتي نبرة التوبيخ، بل الأسف. مع أننا كنا شريكتين في هذا الميل شراكة النعجة والعنزة في قضم العشب نفسه. غير أن نقطة واحدة كانت تفصل عائلتينا، وهي أن أهلنا وأهلهما لم يكن بينهم سوى سلام عابر، و لم يكونوا يتزاورون في الأعياد، بحيث كنت أشعر بعدم ارتياحهم لزياراتي، مما ضاعف، في الواقع، انجذابي إليهم. وكنت ألتقي بأحدهم كل يوم تقريباً عند ملتقى الواديين وأنا في طريقي إلى جلب الماء. و كنت أبرر موقفي لدى عودتي بسرد بعض دردشاتنا، وكانوا في البيت يتظاهرون بتأييدي. وكنا، إذا ما تباعدت لقاءاتنا، قد أقمنا مجموعة من الإشارات السرية للتفاهم من فوق السطوح. وكان التواطؤ الخفي بينا قد رسّخ علاقاتنا، وكنت استذوق خمرة التستر وعسل تبادل الأسرار في هذه الواحة الطفولية.

وكان الشبه بين صديقتيّ كبيراً لكونهما توأمان، ولقد بدتا كحصاتين شقيقتين صقلتهما مياه الأردن، مع اختلاف طباعيهما اختلافاً كلياً. فكانت راعوث ذات طبع متحمس ودائمة الاستعداد للعب، بينما كانت راحيل جدية تفرض نفسها. كانت راعوث صاحبة قرار، وراحيل فطنة وبطيئة التفكير. وكانتا كلتاهما متحفزتين لالتقاط الإشاعات التي تتجمع في ساحات الناصرة. فالطفولة، من طبعها، تبحث عن العواصف التي تبعث الرعب في أوصال ألعابها. كان عمري تسعة أعوام، يوم أجبرتني أمي أن أعقص شعري على رأسي بداعي الحشمة والنظافة، ولقد ساورني القلق منذ ذلك الصباح وحتى غياب الشمس. وفي طريقي إلى العين بخطى ثقيلة، وجرتي تميل على كتفي، كنت أتمنى وقوع حدث فجائي.. أن أتعثر، مثلاً، في مشيتي، أو أن تمسّني يد ملاك، لأتخلص من شريط شعري. لقد كنت أفضل هيئة شعري السابقة، وتمنيت لو أضعت الشريط، ولكن والدتي قد شدّته بقوة. وما إن رأتني راعوث حتى سحبتني خارج

مجموعة حاملات الجرار، لتقصّ عليّ حلم والدتها. فلقد حلمت والدتها بي ورأتني لابسة تاجاً ذهبياً على رأسي ومحتضنة طفلاً صغيراً بين ذراعيّ، وكان الناس يبدون إعجابهم لدى مروري. وعلّقت راعوث قائلة بأن الموضع كان يبدو وكأنه باحة الهيكل في وقت التبريكات.

– ما معنى هذا الحلم؟

– معناه انك ستصبحين أماً لصبي، وسيكون ملكاً. وكانت راعوث تراقب حركة وجهي مع علمها أنه لا ينبغي تصديق الأحلام، إلا إذا جاءت من عند الله. ولكن كيف لنا أن نميّز؟

فأكدت راعوث بقولها:

– أمي تقول الصدق دائماً. ففي العام الماضي رأت في الحلم أن قطيعنا سيصاب بالمرض، وفعلاً فقدنا نصف نعاجنا.

وعدت إلى البيت وقد أزيح الشريط عن رأسي وثقل بتاج! وتملكني الصمت والارتباك حتى منتصف الليل، بحيث أخذت والدتي، بين الحين والآخر، تزيح الستارة التي تفصل سريري عن سريرها لتهمس في أذني:

– مريم، ألا تنامين؟

وما غلبني التعب والنعاس إلا مع الفجر، وقت تنطلق الطيور من أعشاشها، ولكن حالتي النفسية لم تكن أفضل عندما استيقظت. أن أتخيّل ولدي وريثاً لعرش هيرودس!.. أهي مهزلة أم مأساة! فمن أبنائه الذين قتلهم الواحد تلو الآخر لم يبق سوى هيرودس الآخر وأرخلاوس وفيليبس وليسانياس: إن مجرد ذكر أسمائهم يبعث الخجل في نفسي. ولما بلغ المساء أرسلتني أمي لإلقاء اللقط للدجاج. ودفعتني قوة لم استطع مقاومتها للقاء راعوث مرة أخرى، فقصّت عليّ حلم والدتها مجدداً داعمة إياه بتأكيدات شقيقتها:

– أتعلمين أننا في آخر الأزمنة؟ فلقد عاد والدي تواً من أورشليم وقد أكد له كل من التقاه من تجار باطانيا وقوافل النيل أن موسى آخر سيظهر قريباً، أو داود جديداً سيملك على إسرائيل.

– أنا لا أظن ذلك. فلقد شرحت لي أمي ان من سيظهر في يوم الدين هو ابن إنسان نازل من الغيوم، كما جاء في كتاب دانيال.

- إن ابن الإنسان سيكون مولود امرأة، ولماذا لا يولد منك أنت؟ فلقد أعلن ميخا النبي أنه سيولد في بيت لحم مدينة داود، وبيت لحم ليست ببعيدة، ولا أسهل من أن تذهبي إليها وتنجبي فيها.

- ولكن تلك خدعة!

توقف الحديث عند هذا الحد، مع بقائنا في حالة من الغصّة والقلق. وكنا لانزال عند النبع عندما عاودنا الحديث عن الموضوع نفسه، فبادرت أنا بالهجوم:

- يا راحيل، لماذا لا يجيء ممسوح الرب منك؟ فراحيل زوجة يعقوب أنجبت يوسف الذي صار أباً لشعب إسرائيل. وأنت يا راعوث: أتعرفين من هي راعوث بحسب الكتاب؟

- امرأة غريبة؟

- أجل، ومع أنها موآبية تزوجها سيدها بوعز، و أنجب ابنها يسى داود.

لم أنس جواب الأختين التوأمين بعد كل هذه السنين:

- هذا غير ممكن، فأسرتنا أسرة اعتيادية، وقد مكثت في الجليل و لم ترافقكم في الجلاء. لا تتصنعي موقف الدهشة يا مريم، فإن والديك ذاتيهما يراقباننا من عل. ثم إن والدنا، نحن، لا يرتاد المجمع، فمن غير المعقول أن يأتي المسيح من أسرتنا.

فهمت معانياتهما، وحاولت التخفيف عنهما، فقلت:

- لماذا؟ أنتم أيضاً تحفظون السبت، وتدفعون العشر للكهنة، بل تتبرعون بالدراهم لخدمة الهيكل أكثر منا.

- مرة أخرى موضوع المسيح؟ ألا مناص من هذا الموضوع؟ إن كل صبية من صبايا الناصرة تود لو أنجبت المسيح!

كان هذا الصوت الأبح صوت إلياهود شقيق الصبيتين التوأمين. وكان إلياهود يكبرهما بسنتين، وكان خفيف الحركة، سريع الغضب، يظهر فجأة عندما لا تنتظره، ويلتقط آخر الحديث ليعلق عليه بمخالب السخرية.

ومع ذلك لا تستسلموا إلى الأوهام: فالمسيح، وأقصد المسيح الحقيقي، لن يظهر من دون إخطار مسبق، من دون شخص آخر سيسبقه. أتعلمون من هو هذا السابق؟ إن أسم هذا الشخص السابق هو هيليا.

- بالتأكيد، لم نكن ننتظر سواك!

– هيليا نفسه، هذا النبي الذي عاش في إسرائيل في عهد الملك آحاب، وكان له سلطان على النار والهواء، وقد أقام ابن الأرملة، وكثر الخبز لإشباع الجموع، هو الذي سيترل من السماء ليجمع عشائر إسرائيل. بعد ذاك فقط سيظهر المسيح.

لم يزد إلياهود شيئاً على معلوماتي. فلقد كنت أرى صورة رجل الله هيليا بلحيته الكثيفة كل مرة نظرت إلى قمة جبل حرمون المكللة بالثلج.

– الحق معك يا إلياهود. إن الذي يحمل اسماً شبيهاً باسمك سيترل من السماء كما هو مكتوب في الكتاب.

لقد كنت أحب إلياهود كما أحب شقيقتيه. وكنت أترقب بأسف يوم بلوغه ودخوله مجتمع الرجال وانكفائه عنا، وأظنه هو نفسه كان آسفاً لذلك. في انتظار ذلك اليوم، استمر إلياهود يستعرض تفوقه علينا في السن وفي الذكورة، ويرتاح إلى إرعابنا بمقالبه. في الحقيقة لم يكن الأمر صعباً عليه، لأن الخوف كان حالة دائمة عندنا. فلقد كان والدي يستيقظ كل ليلة ليقوم بجولته التفقدية حول المترل: ما هذا الصوت؟ هل هم لصوص؟ هل هي مفرزة من شرطة هيرودس؟ أم متمردون مطارَدون؟ أم شياطين يبحثون عن إيذاء البشر؟ لقد كنت أرتعب دوماً من المفاجآت، ومن الغرابة، ومن رسل الشؤم، ومن مجانين الله الذين يتروون في قعر كهوفهم وينبئون بويلات جديدة. وكان إلياهود يسعى إلى مضاعفة عناصر الرعب عندي. وكان الشياطين الذين يدعي القدرة على فكّ رموز حكاياهم يسكنون في مخازن الهواء، ويزعم أنهم قادمون من بين النهرين البعيدة، من أرض دجلة والفرات، وأنهم يعرفون إبراهيم وقد قتلوا عدداً كبيراً من أغنامه.

– إنهم أقوياء أشدّاء، وإن أقلّ من الله، ويظهرون للبشر في هيئات جميلة جداً أو بشعة، وهم يختبئون في البيوت، لذا يمنع فتح صناديق الحلي أو خزانات الخبز، من دون إذن.

أتتذكر يا إلياهود كيف غيّرت صوتك في يوم من الأيام وأخذت ترتجف، وتقول لي هامساً في أذنيّ:

– احذريهم. وإذا ما ظهروا لك يوماً فاتلي فاتحة التوراة "إشمع" ليهربوا. حدّقي في وجوههم، وإن لم يكن الأمر سهلاً، لأنهم في معظم الأحيان مقنّعون.

– مقنّعون؟

– تفرسي في أعينهم، فالبؤبؤ يفضحهم عندما ينوون لك الشر.

– وإذا كان الوقت ليلاً؟... أتعرف أسماء هذه الأرواح الشريرة؟

– لهم عدة أسماء: عزازائيل، بليعال، سيموزا، بعلزبوب... ويُقال أنهم تزوجوا في زمن غابر مع بنات البشر وأنجبوا جبابرة، ولكن الله عاقبهم وجعل منهم شياطين. لقد ذكر ذلك أخنوخ.

– من هو أخنوخ؟ إن كتب الأنبياء لا تذكره... أما إذا هاجمني شياطينك فسأحتمي في الهيكل، ولن يجدوني. لقد عيل صبري من القلق والعصبية. أجبني..

– يا لك من بلهاء يا مريم! ليس لك حصة في الهيكل سوى في رواق النساء. وهنا لن تكوني في مأمن.

– إذن، سأحتمي في المجمع.

– وهنا أيضاً لن تكوني في مأمن. فالمجمع ليس سوى صالة صلاة شبيهة بما تملكه بيوت كثيرة.

أجل، لقد كنت أجهل كل هذه الأشياء. وعندما قصّ إلياهود هذه الحكاية على حارس المجمع، بادر الحارس والدي بقوله:

يا يوياقيم، ألا تعلّم شيئاً لأبنتك؟ هل تعرف شيئاً عن هيكل أورشليم؟ هل اصطحبتها إلى هناك؟

أجاب والدي بحركة عفوية تعني: إنها تعرف. فأجابه الحارس بحركة مشابهة تعني: لا يهم، إنها فتاة!

هكذا كانت طفولتي كغيرها مزيجاً من المخاوف والآمال، من المعلومات والجهل، من السذاجة والحَدَس، وفوق كل شيء من التوقع. لقد كان هذا التوقع، وهو أحد عناصر طفولتي الشخصية، يتوحد مع توقع العالم اليهودي عموماً في انتظار تحقيق الوعد. وكنت مثل سائر الشعب حواليّ أترقب علامات هذا التحقيق. وكان ترقبي المحموم يبلغ ذروته مساء عيد "النومانيا"، أي تجديد القمر في التقليد اليوناني. وبسبب اكتضاض الجموع في مثل هذه المناسبات كان أهلنا يمنعونا من الخروج إلى الشارع في مثل هذه الأيام. وكنا أنا وصديقاتي، نسبق المنادي الذي يعلن صعود القمر وبدء المهرجان، ونأخذ موقعنا على أسطُح منازلنا لنتفرج على عازفي المزمار وضاربي الدفوف. لقد كانت هذه الاحتفالات التي تتكرر ثلاث عشرة مرة في السنة تخلق فيّ تذوق السهرات وحب الصمت معاً. وما إن يُقبل الصيف حتى أهرع إلى مراقبة السماء إلى أن تمتلئ من النجوم. ويمتد بصري إلى سهل يزرعيل المنبسط في الأفق ببياضه وكأنه نفس الخاطئ قد تطهرت من أدرانها واغتسلت. لم يكن جماله يعنيني بقدر ما كانت تهمني

خصوبته.. فكنت أبسط يدي للأخذ أو العطاء.. ألا باركوا الرب يا أيها القمر ويا أيتها النجوم بلمعانك: وما سوى ذلك فهو باطل وهباء. وكنت ألملم وشاحي بحياء على أكتافي، ولا أجرُؤ أن ألقي بنفسي في حضن الخالق المنفتح لي أنا مريم!

وكنت اشعر بجسمي يتغير ويتجدد بوتيرة الخطوط التي أخطها على الجدار الطيني، في زاوية الباب، موسماً بعد موسم، إشارة إلى نموي سناً وطولاً. لقد قاربت الثانية عشرة من عمري، وكنت أحسّ بالانتعاش والقلق معاً، وأتوقع أن يقولوا عني قريباً: لقد أصبحت امرأة. وبدأت رفيقاتي يحلمن قلقات بالزوج الآتي، وبثوب العرس الذي يملأ خيالهن. وكان والديّ يندهشان من اختلافي عنهن، وتفضيلي تركيز أفكاري على مواعيد الصلاة التي تدعوني، ثلاث مرات منذ الفجر إلى المغيب، لتمجيد القدوس، فقدمت له قلبي بكامله، وأنا لا أعلم أنه سيقبله يوماً.

وكان هذا الانطواء على نفسي يظهر من خلال الساعات الطويلة التي أقضيها في البيت، أكثر من السابق، وأنا أغزل الصوف جالسة بجانب والدتي. وصرت استذوق المكوث في الدار، أنا التي كنت أحب التجوّل في الشوارع، والترول إلى السوق، والذهاب إلى العين، حتى إذا لم نكن بحاجة إلى ماء، منتهزة كل الفرص للخروج، أما الآن فصرت استثقل الخروج إلا لأسباب قاهرة. إني أتذكّر كيف خرجنا، ذات صباح، وريح الجنوب تلفح وجوهنا، وقد احتجبت الشمس من عاصفة الرمال، وكان عليّ الذهاب عند الخزاف لشراء جرة عوض التي انكسرت، فزلقت رجل أمي بالزيت المهراق، فَرُضَّ كعبُها. وخرجت آسفة لتركها على الأريكة تئن، لا من الألم، بل من الانزعاج. فهي التي لم تكن تهاب وقوع الكارثة الكونية الأخيرة، تشكّت من حدث عابر تسبب في خسارة قليل من الزيت، وفي تأخير موعد إعداد القناديل، إذ كان يوم وقوع ذلك الحدث عشية السبت.

واجتزت السوق في ساعة الظهر حيث يسترخي التجار للراحة، وقد غطوا جرار الزيت بأغصان رطبة وبأكياس خفيفة. كان كل شيء ساكناً ما عدا الساقي الذي يتهدج بظرفيه المعلقين في حزامه، وكان الطلب عليه كبيراً في تلك الأيام، وفي ذلك المناخ الجاف. وتحاشيت لقاء المتسوّل الذي مدّ لي يده في زاوية الزقاق، لأني لا أملك ما أعطيه. وانتبهت إلى أجراس البرص الذين استغلوا ساعة القيلولة لدى الأصحّاء كي ينتشروا هناك بحرية. ومما ضاعف انزعاجي رؤية حمار صغير قد حاصره الذباب، وتساءلت: هل ترى ارتكبت خطيئة بتعاطفي مع ألم الحيوان؟ أليست الحيوانات بريئة؟

ألا فَلْيُسرِعْ بمجيئه هذا الزمان الذي فيه يرتع الذئب والحمل معاً: وتخيلت جنة عدن كما وصفتها التوراة. وكان الرب يلهمني الحنين إلى الزمن الذي سبق السقطة الأولى، وأحلم بإعادة تكوين الكون جديداً، حيث لا مكان بعد لمفردات الألم والموت.

وغلبتني أفكاري، فاجتزت بيت إيساخار، ثم عدت أدراجي ودخلت دكانه الذي كنت أحب ترتيبه الذي لا يتغير: الجرار، والقوارير، والأباريق، والكيزان.. كلها منسقة على الرفوف بحسب أحجامها واستعمالاتها.. مما كان يبعث فيّ الثقة بصاحبها. لقد كان إيساخار خزافاً مثل أبيه، ومثل أجداده. وكان هذا التسلسل يريحني أيضاً. لقد مارس إيساخار هذه المهنة بمهارة وحب، وكان موضع احترام لدى جميع أبناء القرية، لأن أشعيا قال: "نحن الطينة، وأنت جبلتنا يا رب، وكلنا صنع يديك". لقد كانت حركة العامل تسحرني، فأناملة التي تتحكم بالطينة لتصوغ منها هيئة معينة، شيئاً فشيئاً، كانت تذكرني بفعل الأزلي. ألم يكن ثمة شراكة شبيهة خفية، منذ البدايات، بين الخالق ومادته؟

فبادرني إيساخار مداعباً: هل جئت لتتفرجي على عملي؟

فأجبته بالتحيات المعهودة وقصصت عليه ما حدث في البيت، وسألته إذا ما كان بوسعه أن يزودني بجرة عوض المكسورة؟ فنهض وتناول من الرف جرّة رآها أكثر استدارة من غيرها وفحصها وناولني إياها، ثم نظر إلى قامتي من رأسي إلى رجليّ قائلا:

- يبدو لي أنك كبرت أكثر!

- نعم، بفضل جرارك التي أحملها على رأسي!

أجل، كنت أهتم بأن أسير بقامة مستقيمة. فلقد أعتاد أبي أن يقول: إن الوقوف بقامة مستقيمة هو نوع من أنواع تمجيد الله الذي خلقنا خلاف الحيوانات التي تجترّ العشب والحيّات التي تنسلّ زاحفة.

فابتسم إيساخار ابتسامة عريضة.

لقد كان ذهابي إلى دكانه لوحدي من الأمور المسموحة لي، إذ كان يعرف أهلي منذ فترة طويلة، وكان والدي يكن له صداقة واثقة.

- ألا تجلسين؟

تهيأ لي أن له شيئاً يقوله لي.

- كلا. لا مجال لي، فبعد قليل يحين السبت.

وكان عليه هو أيضاً أن يغلق الدكان، فغطى الإناء الذي يشتغله بقطعة قماش مبلّلة.

– يا مريم. لتكن أذناكِ مفتوحتين دوماً لسماع الحقيقة.

عدت إلى البيت، وقضيت السهرة وأنا حالمة. أكان ذلك بسبب تذكري الحمار المحاصَر من الذباب؟ أم لرؤية إيساخار يدير ويدير الطينة إلى أن يمنحها شكل الحياة؟ ما أحلى القصة التي رواها أشعيا، انها قصة حقيقية، وإلا لما نقلها الكبار إلى أولادهم: "في ذلك الزمان سيسكن الذئب والحمل معاً، سينام الفهد بقرب الجدي، وسيقتات العجل والشبل سوية، وسيسوقهما طفلٌ صغير، وسترتع البقرة والدب في حقلٍ واحد، والأسد والثور يأكلان العشب معاً، وسيلعب الرضيع في جحر الأفعى". كان القارئ يتلو الفصل كله في المجمع: "لن يكون من بعد شرّ ولا خراب في الجبل المقدس، لأن الأرض كلها ستمتلئ من معرفة الرب كما يمتلئ البحر من المياه". متى يا ترى يحصل ذلك؟

– إن الله أعطى لشعبه أحداثاً كثيرة، ولن يكف عن العطاء الآن. هذا ما كان يؤكده أبي.

لقد اقترب اليوم الذي يصبح فيه إلياهود "بَرْ ميتسوا"، أي بالغاً وقد اجتاز هذه المرحلة الحاسمة التي تدخله في عالم الكبار، فتضع حداً لألعابنا المشتركة. وهنا أحسست بوعي أعمق بأنني أنا أيضاً كَبُرتُ. ولازلت أذكر الفتى مغادراً المجمع بعد أن سُمِح له أن يقرأ نصوصا من "فراشـــــــا" و "حافارا". لقد لمحته من السطح وأنا أراقبه محاطاً بذويه وقد تزينوا بحلة الأعياد، أما هو فقد توشح بوشاح الصلاة الذي كان أكبر من قامته، ووضع "التيفيليم" على جبينه وفي معصميه، فبدا لي أكثر طفولة وأكبر من سنه في آن معاً. وأعطوه لقب "برعونش"، أي ابن العقاب. ومذاك أصبح مسؤولاً عن أعماله، وحُسب كاهن العلي، كسائر ذرية إسرائيل. وسألته في آخر مرة التقيته على طريق العين مع شقيقتيه أيَّ فصل من الكتاب قرأ، ذلك لأن مثل هذه القراءات قد تخفي مستقبل قارئها، فأجابني بعزم:

– اختارني الأزلي منذ المهد، ودعاني باسمي منذ بطن أمي. لقد جعل لساني شبيهاً بحد السيف، وقال لي: أنت عبدي، وبك أتوشح بالمجد.

لقد عرفت في هذا النص كلمات الرب لأشعيا عندما أنبأ بمجيء المشيح الذي طالما تحدثنا عنه. ولكن إلياهود لم يضف شيئاً على هذه الأقوال، بل كان مهتماً بوقائع احتفال اليوم أكثر مما بالمستقبل الذي ينتظره.

– والآن يا إلياهود ماذا ستفعل؟

- سأذهب إلى أورشليم لأدرس.
- في أية مدرسة ستتعلم، أفي مدرسة هيلليل أم في مدرسة شمعي؟
- في مدرسة هيلليل.
- ألا تتعلم مهنة؟ النجارة مثلاً، إنها مهنة محترمة.

فحدجني بنظرة فاحصة وكأنه يبغي سبر أفكاري. قد أكون أنا التي ظننت ذلك، في الواقع.

- لن أراكَ من بعدُ يا مريم.
- أعلم ذلك. في كل الأحوال لن تراني بعدُ سوى في مناسبة الأعياد، وسنكون كل واحد مع أقرانه..

وانصرف إلياهود. وهكذا غادرنا كلانا عالم الطفولة، كل واحد في طريق مختلف. أما أنا فلن يرسلني أهلي إلى المدرسة، لا في أورشليم، ولا في الناصرة. لأن تربية الفتيات تتم في حضن المنزل الأبوي. لقد تعلّمت من مثال والديّ أكثر مما تعلّمت من المعلمين، وعرفت كيف يصعد تيار الحب من القلب إلى الشفاه نحو هذا الذي لا يخفى عليه شيء، لأن ثنايا أسرارنا ذاتها مفتوحة أمام ناظريه.

الفصل الثاني

أرض صراع

سرعان ما يكتشف الفتى اليهودي أن الأرض التي يطأها هي أرض صراع. فالأرض التي وعدت بها التوراة، واستولى عليها يشوع بن نون، وأخصبها رماد الضحايا، وأثرتها دماء الذبائح، كانت منذ القدم موضوع أطماع ومشاحنات. افتحوا التاريخ منذ الخروج، وفي سفر صموئيل، والملوك.. ماذا يقولون؟ المصريون، الآشوريون، الفرس، ورثة الإسكندر، السلوقيون، اللاجيون، وحتى الرومان الذين جاؤوا محررين وهم اليوم موضوع كراهية.. كلهم داسوا مراعينا، وخربوا حقولنا، ونهبوا مدننا، ونجسوا آبارنا. يا أورشليم، يا بنت داود، لم يبق شيء من أسوارك القديمة، ووادي قدرون قد امتلأ من الضحايا.

– ماذا صنع الأزلي من موضع مجده، هذا الهيكل الذهبي الذي شيده سليمان؟ هل يحلو له أن يعيد بناءه آدومي ويكمله؟! لماذا يا ترى هذه الانتهاكات، والتحديات، والتهجير، لماذا؟

– لأن الرب أقام عهداً مع شعبنا وعلينا دفع الثمن.

واستطرد والدي قائلاً: لقد اختارنا القدوس.. إذن فرزنا عن العامة، واستجاب أجدادنا لندائه، وها هو اليوم يُمَحِّصنا بالنار. إنه يريدنا كاملين كسيف سليمان الملك... انه يجرب إيماننا ويمتحن قوانا، ونحن نمثل لا عقلانيته وسر وجوده!

إنه يحلو لي أن استذكر شخصية والدي وأتصور نظرته الاستسلامية ولحيته البيضاء كوردة اللوز. فلقد كانت والدتي تجيب من يسألها عن زوجها، بآيات من مزامير داود:

– طوبى للرجل الذي لا يصطف إلى جانب المنافقين، ويتلو الشريعة ليل نهار.

لقد كان والدي حقاً من المؤمنين الصادقين، قوياً وراسخاً. وكانت مخافة الله متأصلة في قلبه، وتثمر ثماراً طيبة، وكان يتمتع بذاكرة يقتات من خزينها، وكان حزمه يعتمد على العلي وحده. لذا لم يكن المتعاونون مع المحتل، والوجهاء الخوافون والتجار الطماعون ينظرون إليه بعين دافئة. أما الكتبة، وإن لم يؤيد جميع قناعاتهم، فكانوا يكنّون له الاحترام ويتقربون إليه. وكان يشيد بعلمهم وحكمتهم، ويمتدح عدم سقوطهم في التطرف العقائدي الضيق الذي يتبجّح به الاكليروس الصدّوقي الأعلى. كما انه لم يقع في تجربة الهرطقات والبدع الناجمة عن القلق والضياع في تلك الأيام. وكان يشمئز من هيرودس أسوة بجميع الصالحين، ولكنه، في استقامة رؤياه، كان يعترف بايجابيات الحكم.

– لا تتباكوا، فكلمة هيرودس مسموعة عند الرومان، وبفضله لم تعد الفيالق المعسكرة في سوريا تتحرش بأماكننا المقدسة. لقد جمّل الهيكل. انظروا البوابة الجديدة، والأروقة الظليلة، وقناة المياه.. لقد دفع أجوراً عالية لعمالنا في هذه الأعمال.

فاعترض ابن عمنا صموئيل قائلاً:

– إنه لم يقم بهذه الأعمال من أجل اغناء الشعب، بل من أجل ترويضنا لقبول طغيانه. لا حدود لطموحه، فلقد أقسم أن يضاهي سليمان، ولكنه لن يترك للتاريخ سوى اسم قذر.

– نحمد الله على أنه حافظ على وظيفة عظيم الكهنة.

– ولكنه احتفظ بحق تسميته. فهو يكرّم أو يُذِلّ، يتصرف بأولادنا وبأموالنا بحسب مزاجه. ترى ماذا حصلنا من مكارمه تجاه الزعماء الأجانب؟ إنه يشتري مجده بدنانيرنا.

من حسن الحظ أن حلقة الأصدقاء كانت تنحسر حول والدي، فلا تنتشر مثل هذه الأقوال. فلقد كانت الشرطة منتشرة في كل مكان، والوشايات مروعة. وفيما كنت أرفع الصحون من المائدة، فتحت أذنيّ لأسمع صموئيل يسترسل في تعداد مساوئ هيرودس في المدن الوثنية.

– قاعات للرياضة في دمشق وطرابلس وبطوليماس؛ سور حول مدينة بيبلوس؛ وساحات عامة في بيروت وصور؛ مسارح في صيدا ودمشق؛ حمامات وينابيع للسبح في عسقلان.

وكان رأي والدي أن قد طفح الكيل، بل فاق حد التصور عندما بالغ هيرودس في رفع شأن سوخار مدينة السامرة بتبديل اسمها إلى سبسطية مداهنةً لأغسطس الإمبراطور. ولم تكن تختم السهرة من دون ذكر شيء من ملاحم بطلينا المفضلين يهوذا وسمعان المكابيين اللذين مرَّ عليهما ثمانية ظهور، وكيف طردا المحتل اليوناني قسراً. وفيما كانوا يشيدون بغيرتهما وتضحياتهما كان كل واحد منا يقارن الزمان الغابر بالوضع الراهن. وكنتَ تخال والدي في غمرة حماسه وكأنه قد عاصر تلك الأحداث شخصياً. إني أغمض عينيّ اليوم لأستذكر تقاسيم وجهه آنذاك، فلقد كانت تتهاوى من شفاهه كلمات سفر المكابيين الذي يعرفه غيباً بأكمله، ويلتذ بترديد هذه الأقوال الحماسية: .. أورشليم المحررة.. إعادة بناء الهيكل!

– لقد وضعوا خبز التقدمة والشمعدان والبخور على المائدة بجانب المذبح المتجدد، وابتدأ احتفال التدشين حال الانتهاء من بسط الستائر.. وقربت الضحايا يوم السادس والعشرين من شهر كيسلو باكراً... واستمرت الأفراح والتبريكات لمدة أسبوع كامل...

وأضاف والدي وهو ينظر إليّ:

– هذا هو الحدث الذي نحتفل به كل سنة في عيد هانوكا. أتعرفين ذلك يا مريم؟

وكيف لا أعرف؟ وهانوكا هو عيده الخاص! عيد والدي، هذا اليهودي الذي غذته التقوى، والذي بدا حماسه في الاحتفال بمثابة تعويض عن تقدمه في السن وعن فقره.

آه! كم كنت أشعر بعجز هؤلاء الرجال وفقرهم وهم غائصون في الماضي لاكتشاف الرجاء فيه! فقراء عاجزون، لا في الإيمان – فالإيمان كان يغمرهم – بل في النور الذي يفتقدونه لتمييز الطريق الذي اختاره الله فلا يتعثروا وسط الليل المحيط بهم. لقد ذبلت عيونهم بحثاً عن آثار هذا النور، وبلغ بهم الأمر إلى الانصياع لإرادة هيرودس الدموية؛ ومع شجبهم أعمال العنف التي انساق إليها المتمردون، كانوا في سرهم يتمنون لها أن تنجح وتنقذهم. لقد أعطوا أذناً صاغية، في آنٍ معاً، إلى الفريسيين (ما نفع أن تشهر السلاح ضد روما سيدة العالم؟)، وإلى الشباب المتحمس (لا شيء مستحيل عند الله). أنا نفسي وددت لو رددت هذا القول: لا شيء مستحيل عند الله. ولكني لم أنبس ببنت شفة احتراماً لأبي ولمعاناته وقلقه. وكنت أباغت إشارة شرود داخلية في نظراته، أحياناً، تعكس شيئاً من الخيبة بعدم إنجابه ولداً ذكراً يخفّف من هجوميته.

وتوجه إليّ يوماً بنبرة حنان دافق وقال:

- إننا بحاجة إلى رجل عادل وشجاع، يسكن فيه روح العلي، ويقودنا بأمان وحزم. لقد أنبأ جميع أنبيائنا بمجيء هذا الرجل: من عاموص إلى ميخا، إلى أشعيا العظيم، إلى إرميا، إلى حزقيال... فإذا كنا أمناءَ للوعد، سيأتينا محرر إسرائيل. سيقيم الرب برعماً من ذرية داود ويخضع الوثنيين تحت نيره وينقي أورشليم، بحيث يهرع الناس من أقاصي الأرض للمجيء والتمتع بمجده. اسمعي ما يقول أشعيا: "سيكون مُبرَّراً من الخطيئة ليحكم الشعوب، لأن العلي سيعطيه القوة بنفحته المقدسة...". أنا لن أراه، أما أنت يا مريم.. لربما...

شددتُ على يد أبي حين وضعها على ركبتي، فلقد أثر فيّ جداً القول الذي أطلعني عليه. أفليس غريباً أن يتكلم والد مع ابنته بهذه الحميمية، ويُطلعها على ما يشكل الشعلة التي تضطرم في داخله. ولكن أين أجد الصواب، أفي كلامه هو، أم في كلام والدتي؟ فلقد كانت أمي تبشر بابن إنسان، أمير للسلام، رجاء للذين يتألمون في قلوبهم، مَنْ بصولجانه سينشر ملك العدالة على الأرض. أما أبي فكان ينتظر بطلاً سيجمع عشائر إسرائيل المشتتة بعد دحره الأمميين، مسيحاً منتصراً ومحرِّراً. "بقضيب كلمته سيضرب المنافقين وبنفحة شفتيه سيميتهم". ترى ما هو مفتاح هذا السر الذي يُغلقُ مخطط الله على شعبه، والمستعصي عليّ فهمه كلما اقتربت منه؟ لاشك أن محننا ناجمة عن اختيارنا، وإنها ستقودنا إلى هدف ما، ولا بد أن يخلصنا الرب من جديد، هو الذي أخرجنا من مصر. أترى من الضروري، إذن، أن نستبق وحي الله، كما يقول الحسيدم الغيارى، أم نناشد الكتابات، كما يدعو المعلمون، لنجد فيها جوابه؟ وماذا يسعني فعله، أنا المرأة والأَمَة، سوى أن أتلاشى في الصلاة والخضوع مسبقاً لمشيئته تعالى؟

وفي عشية أحد السبوت الشتوية الحميمية، - وكان لذلك السبت خصوصية متميزة- توقفت قليلاً عند العين مع راعوث وراحيل اللتين لم ألتقي بهما منذ عدة أيام؛ فلقد رغبت البقاء صديقة قريبة منهما، بالرغم من تقدم أعمارنا، فجدّدنا عهد الأمانة لبعضنا، هذه الأمانة التي تشكل أعظم قيمة في مرحلة الصبوّة. وما إن بلغتُ عتبة دارنا حتى انتشلت القماشة التي أرتديها على رأسي بمثابة خمار، وقد ارتديتها منذ بضعة أيام فقط دون أن أتعوّد عليها بعد، ولمحت مريم ابنة عمنا في الفناء مع زوجها قليوفا، وواحداً من أصحاب والديّ اسمه زَبْدَيْ، يسكن في كفرناحوم. لقد جاءنا من دون سابق إخطار، كما علمت، ولكنه كان واثقاً من أننا سنستضيفه للطعام وللمبيت. لقد قضى

الليلة الفائتة في خان عام في بلدة نائين بعد أن تجول في القرى المجاورة لتسويق كمية من السمك المجفف الذي كان يبيعه. فانضممت إلى والدتي وإلى مريم لاستقباله بالحفاوة اللازمة. وأخذت ضمة من القماش الناعم من الصندوق الذي نحتفظ فيه بمحارم الغسول. وملأت الأحواض الخاصة ليغسل وجهه ويغطس رجليه، وأضرمت بعض أغصان الكرمة لترطيب السمك في الماء الدافئ. وكان والدي يحتفظ دوماً تحت الصخرة بشيء من الحّبّ المحمّص، والتمر، والتين، واللوز الحلو، والجوز، والعسل وكل ما يبيّض الوجه أمام الضيوف، في مناسبات مثل هذا اليوم.

إن ضيفاً مفاجئاً، أو مسافراً، سواء كان من ذوي القربى أو من الأصدقاء يحمل دوماً في عبّه جماً من الأخبار. وفيما كنت مهتمة في إعداد ما يلزم، فتحت أذني لأسمع زَبْدَيْ يخبر بالألغاز نبأ موت فيروراس شقيق هيرودس، هذا الحدث الذي أقلق الجميع، وإن بدا لي شخصياً أمرا غير ذي بال. إن التفاوت في مقاييس التقديرات بيني وبين الأشخاص الكبار كان بمثابة نداء لي إلى التواضع، إذ كنت صغيرة بعد لاكتشاف معاني الأشياء. فلقد كان زَبْدَيْ أكثر أبناء عمومتنا معرفة بالأحداث العامة لاتصالها مباشرة بتجارته. فكان يتابع حركة البواخر، وذهاب وإياب كبار المجتمع بواسطة أصدقائه حراس سواحل المدينة الجديدة، قيصرية، ويراقب ثراء المسافرين، وحجم الحمولة، وزنة البضائع. وكان الصيادون في عرض البحر أو في البحيرة قد رأوا من مصلحتهم أن يتفقوا على تزويد موائد الأغنياء ورجال البلاط، كلٌ بدوره، كي يؤمّن لهم هؤلاء حمايتهم من نزق الرياح. وكان هيرودس الشيخ المستبد، هيرودس المزاجي، يستهويه السمك جداً، بحيث كانت سلسلة من السعاة تزوده كل يوم بالسمك الطازج والأفضل نوعيةً في أورشليم. غير أن طبيبه الخاص كان قد أعلم أن معدة الملك ترفض الطعام منذ مدة وأن قواه أخذت تضعف تدريجياً. ولقد جرّب التحمّم في المياه المعدنية في كاليروهي في الجهة الأخرى من الأردن، ولكن دون جدوى.

إن الأطفال تستهويهم القصص، لاسيما إذا حملت أحداثاً واقعية، لذا كنت أول الجالسين عند أقدام القصاصين عندما ينقلون أخبارهم وتعليقاتهم إلى بيتنا: لقد كنت أرتشف الكلمات ارتشافاً.

– لقد اكتشف هيرودس، كما قال زَبْدَيْ، ان أخاه فيروراس لم يمت موتاً طبيعياً، بل توفي بسمّ باعته امرأة آدومية، ولقد اعترفت المرأة بذلك بعد إخضاعها للتعذيب. وقيل أن المؤامرة جاءت بوحي من ابنة أنتيباتير. لعمري، من يدري؟ فلقد

حاول الابن أن يتخلص، هو نفسه، من أبيه بالأسلوب ذاته. لذا، من الممكن أن ينتقم هيرودس انتقاماً مروعاً...

وقال قليوفا متنهداً:

– يا لتعس مصير هذا الطاغية! ثم استطرد قائلاً: إنه يرى السيوف مشرعة ضده في كل مكان. وعندما يشعر بتهديد من أبنائه، يقتلهم الواحد تلو الآخر: إنه يبتر العضو المصاب، حسب ظنه، ولكن الشر ينبت من جديد في مكان آخر، وهكذا سيقضي على الأسرة كلها. فلقد خسر كل مرافقيه، ولم يعد يركن سوى إلى العزلة والإرهاب والموت. هكذا يموت الذين يتحدّون القدير.

ولاحظت ان أبي بقي صامتاً وكأن اهتمامه ليس هنا، هو الذي كان على أهبة الاستعداد دائماً للتعليق على الأوضاع التي تهم شعبنا. وتهيأ لي انه ينظر إليّ بتركيز أكبر وحنان أعمق مما فعل يوم أسرى إليّ بآماله. وفيما تهيأت للإعراب عن دهشتي من صمت أمي التام، دفع الباب يوسف النجار وتبعه شقيقه مردخاي ووالداه العجوزان. لم أعط أية أهمية لهذه الزيارة، لأن هؤلاء الناس قلما كانوا يأتون عندنا، بل كنا نحن الذين نذهب إليهم إذا ما أردنا رؤيتهم. أما يوسف، فلقد قام ببعض التصليحات في بيتنا العتيق لدى الضرورة، وكان يزودنا بالأسطل والأواني الخشبية وأيادي المكانس وحافظات الأوساخ، وعمل لنا مكيالاً جديداً عوض العتيق الذي أكله الدود. وكان الشاب معروفاً بطيبته وصبره ودماثته وشجاعته وكفاءته في مهنته. فاستقبله والدي فاتحاً ذراعيه ليضمّه، وانحنت والدتي أمامه، كما نهض الآخرون أمامه وكأنهم يستقبلون شخصاً من الوجهاء.

وأعلن والدي بصوت جهوري قائلاً:

– مريم، سيحتفل يوسف معنا بمراسيم السبت، وهو الذي سيقرأ "الباراشا" غداً.

وفهمت حالاً إنهم يكرمون الفتى المرشح للزواج بإعطائه قراءة التوراة في المجمع في السبت التالي. فلقد قُبِلَ يوسف إذن في الأسرة وسيصبح عريسي. فتقدمت منه وقبّلت يده، ثم قبّلت يد والدي الذي اختاره لي.

وتعالت الأصوات بابتهاج لمبادرتي هذه، فعلمت ان هذا اللقاء الذي حسبتُه صدفة لأول وهلة، كان معداً بعناية لإعلان قرار خطوبتي، كما كانت خطوبتي نفسها مشروعاً مدروساً مسبقاً. فانطلقت الألسنة من صمتها لتتحدث عن الخطوات والمباحثات التي سبقت لقاء اليوم، وتثني على فضائل أجدادنا من الطرفين، الذين نحن

أحفادهم وورثتهم بنعمة الله، وبذلك أتاحوا الانسجام التام لإتحادنا. كما تناول الحديث التواريخ المقترحة للاحتفال بالحدث، والثوب الذي سألبسه، وكان بالطبع ثوب جداتي السابقات في المناسبة ذاتها. وتقدم قليوفا متعهداً بخمر الوليمة، وغمرني يوسف بنظرة رضى أجبت عليها بابتسامة مماثلة، ودهشت لتسارع الأحداث... وهكذا بدأ تفاهم صامت بيننا!

وارتفع صوت المنادي من أعلى سطح في البلدة بندائين عامين: الأول باتجاه الفلاحين كي يتركوا أدوات عملهم ويغادروا الحقول، والثاني باتجاه أصحاب المتاجر كي يغطوا بضائعهم ويغلقوا دكاكينهم. وارتدى ضيوفنا وشاحات الصلاة قبل التوجه إلى المجمع لصلاة المساء، وبحركة خفيفة تحقق والدي من وجود الشارات على وشاحه ثم غادروا المنزل. وعندما دعي يوسف إلى اجتياز عتبة الدار أولاً، تخيّل لي أنه أطول من الآخرين وأن قامته أكثر استقامة.

- ساعدني في تعبئة القناديل زيتاً.

لقد كانت مريم تذكرنا دوماً بقواعد احترام المقدسات، حيث سيطلق المنادي ثالث نداء له بعد دقائق معلناً ظهور أول النجمات الثلاث التي تشير إلى بزوغ السبت. وكان علينا الإسراع في إنارة القناديل قبل اللحظة الحاسمة.

وأخذني إحساس بأن الأرق سيغلبني بعد خلود الجميع إلى النوم، وسيأخذني التفكير بعيداً في مجاهل وجودي الجديد. إني لم أعد جالسة على قارعة العمر، بل قد رُميتُ خارج عتبة الدار، بعيداً عن بيتي وأهلي وطفولتي. لقد غيّرني قرار خطوبتي وجعل مني كائناً جديداً عليّ أن أتأقلم معه؛ وصار لي سيد جديد غير والدي، هذا الشيخ الوقور، أما السيد الجديد فهو يوسف الذي سيتوجب عليّ إطاعته، ومنه سأتعلم عادات أخرى، وأسماء أخرى، هي أسماء أسرة جديدة، وستدخل في حياتي أسرار عائلة أخرى، وواجبات عائلة جديدة. أترى تكون الحياة، حياتي، طريقاً يرسمه الآخرون لي؟ هل هذا قرار من الله؟ وصعدت إلى السطح الذي طالما كان لي معبداً لصلاتي. رأيت شوارع الناصرة غارقة في هدوء المساء، وكان والدي وضيوفه على وشك العودة إلى المنزل عائدين من المجمع. وكان سلام الله يملك على المدينة كما كان يملك على قلبي. "وبارك الخالق اليوم السابع وقدسّه، لأنه في هذا اليوم استراح من كل العمل الذي أنجزه".

وما إن التأم الجميع، حتى دعا والدي ضيوفه إلى الجلوس حول المائدة وقال:

- ما أجمل أن نشكر الأزلي ونعلن صلاحه وحنانه. لأنك تغمرنا بالابتهاج أيها الأزلي، أنت وحدك تستحق المجد إلى الأبد.

وبعد أن بارك الخمر في كأسه، بارك رغيفي الخبز أيضاً، رمزاً إلى وجبتَي المنّ النازل من السماء، ثم كسر ووزع على المشتركين.

– إن هذا اليوم الذي يتصدر سائر الاحتفالات يذكرنا يا رب بأنك اخترتنا وقدستنا وسط جميع الشعوب.

لقد اعتدت سماع هذه الصلوات كل يوم سبت منذ بلوغي سن التمييز، ولكني تذوقتها ذلك المساء بشكل غريب. وتخيلت أن الله، بعد أن أنجز طفولتي، استراح بيننا قبل أن يعود إلى العمل ليصوغ لي مصيراً خاصاً. وما كفَّ والدي عن تكرار ارتياحه:

– أجل، ان القدير صنع لنا عظائم، يا لعمق سرورنا!

وغمرت دموع الحب عينيّ بينما كنت أنظر إليه وقد ارتخت كتفاه قليلاً تحت وشاح الصلاة، مشيرة إلى أتعابه وتقدمه في السن. فتمتمت في قلبي: "يا رب إني أضرع إلى رحمتك بدوري. كافئ تقوى أبي، كاهنك الأمين، بحياة طويلة يرى فيها أولاد أحفاده. وإذا ما حضر الوقت لراحته الأخيرة، هبه أن يحتفل بسبت لا نهاية له بالسلام وبحسب وصيتك".

– أراك كئيبة يا مريم!

لقد كان زَبْدَيْ على صواب، فالحزن لا يليق في مثل هذا اليوم. فابتسمت وسكبت له خمراً. وكان زَبْدَيْ كسائر أبناء عمومتنا في كفرناحوم، رجلاً في عزّ قوته، يعرف أسرار البحر وكيف يفرض سيطرته عليها. فلقد كانت كفّاه قد اخشوشنتا بحبال الشراع، وكنت أختبر ذلك عندما تداعبان رقبتي وأنا طفلة صغيرة.

– سنرافقك في المرة القادمة مع كل أعضاء الأسرة لنساعدك في سحب الشبكة، وسنشوي السمك معاً على حافة الشاطئ كالسابق.

وباغتتُ نفسي متجاهلةً يوسف. ولكن ما العمل، فلقد كنت ما زلت أتخيل السعادة في تناول طعام على العشب، واكتشاف أشعة الشمس في أوراق الزهور، وعناية والدتي بتنشيف نقطة دم في ركبتي بعد كبوةٍ، والشعور برغبة النوم ظهراً في قعر صخرة.

فقال يوسف:

– نعم يا مريم، لا يهمك.. سنذهب سوية كعائلة إلى البحر... كالسابق.

نحن شعب يحب الموسيقى: فداود كان يرقص ويغني أمام تابوت العهد، وفي الهيكل مجموعة من العازفين وجوق من اللاويين، ونحتفل بأعيادنا على إيقاع الطبول، وأنغام الناي والماصول، وعلى أصوات الأبواق، وأنغام المزمار. وانبرى زَبْدَيْ بقامته

الفارعة وصدح صوته الذي يعتّز به بترنيمة، ووقف يوسف إلى جانبه. لم يكن المناخ يسمح بالصعود إلى السطح، ولكني تخلصت من زحمة البيت وهرعت إلى السطح لأمتع نظري، ولو لبرهة، بمشهد المدينة. وعندما عدت كان زَبْدَيْ يرتل مزمور صباح السبت مستبقاً موعده، لأنه كان يعرف إني أحب هذا المزمور. فغمز لي بعينه إشارة إلى مسايرته ذوقي.

- تقصّ السموات مجد الرب، ويعلن الجَلَدُ عمل يديه...

لقد كان حنان أهلي، وقد انضمّ إليهم يوسف، ومعرفة الشريعة التي وضعتني وسط أمة مباركة، يزيدان قناعتي رسوخاً بصدق ما أكده أشعيا إذ قال: "كل من يحفظ سبوتي، سآتي به إلى جبلي المقدس واملأه فرحاً". لا أرضَ غير الأرض التي ولدتُ فيها، لا نبعَ غير النبع الذي أملأ جرتي منه يطفئ عطشي. ترى، هل لي من قدوة أخرى في حياتي الزوجية غير أمي؟

وارتفع صوت والدي نحو العلى:

- اسمع يا إسرائيل، إن الرب إلهنا هو وحده الرب، ليُحتَفَل بمُلكه المجيد إلى الأبد. أحبب الرب إلهك من كل قلبك وكل نفسك وكل قوتك: لتكن محفورة في قلبك هذه الكلمات التي أعطيك. علمها لأبنائك، وتأمل فيها وأنت جالس في بيتك، أو سائر على الطريق، رددها في رقادك ولدى نهوضك. علّقها كالعلامة على ذراعك، وكوشم بين عينيك. أكتبها على أعمدة بيتك وعلى صواري أبوابك...

إني لا أعرف وصية أروع من هذه الوصية.

وفي الصباح التالي ذهبت إلى صلاة المجمع مع أهلي وخطيبي، وكنت حريصة على سماع يوسف ودعمه بصلاتي.

لقد تعلمت أخيراً أن المجمع ليس الهيكل، فلطالما هزئوا من عدم تمييزي بين الاثنين. ففيما يتميز الهيكل بالعظمة، يتميز المجمع بالبساطة. هكذا لا مجال للمقارنة البتة بين بلاط الله وقاعة الصلاة، بين عظيم الكهنة والمنادي الوضيع. فلقد كان مجمع الناصرة شبيهاً بملحق لدارنا، لا أوسع ولا أكثر جلالاً منها. أما القنديل الذي يشتعل بحرارة وتقوى أمام السفر المقدس، فكان شبيهاً بالسراج الذي يلقي ظل أبي المتموج على الحائط الأبيض، والكوّة التي تحت السقف تشبه صندوق الحنطة الطيني الذي في دارنا؛ وكانت شقوق القاعة الكبرى تتلوى أمام عيني وكأنها حية سفر التكوين تغوي فضولي بخبثها. يا لخطأي لهذا التشبيه، أليس أن الشريعة تحرم كل تمثيل للخليقة! فليس ثمة شقوقاً

في حائط الهيكل، بل كلها مكسوّة بالمرمر والذهب. ليس ثمة حيّات ولا حملاناً منحوتة على رتاجات الأعمدة، بل عناقيد من العنب وأوراق شجرة الشوك! إن مجد الرب يزهو في أورشليم، أما في الناصرة فرفقة الرب هي التي تظهر. وشاءت الصدفة أن يكون القارئ المحتفل في ذلك الصباح هو عريسي المقبل.

وتأخر الاحتفال يومذاك، كالعادة. إذ كان ينبغي انتظار الأطفال الرضّع أن يتوقفوا عن البكاء، والنساء أن يأخذن أماكنهنّ ويسكتن، والرجال أن يختموا مناقشاتهم: فبيت الصلاة هو بيت الأحاديث أيضاً. لقد كانت أخبار البلاط التي جاء بها زَبْدَيْ تتناقلها كل الشفاه، وكانت تقلقني. ترى ماذا من زواجي بيوسف إذا ما تطور الخلاف بين والده والأمير إلى حرب ودمار؟ فالشعب هو الذي يدفع الثمن دوماً عوض الكبار، والبرئ عن المذنب...

ولما عاد الصمت بين الجمع، استدار المحتفل نحو القبة وأخرج مصاحف الشريعة واستعرضها أمام المؤمنين. وكنت أتابع الأحداث بعيني، فرأيت والدي يقرّب وشاح الصلاة الذي كان يجلل رأسه من الوشاح القرمزي الذي يجلل التوراة ويقبله، وهكذا فعل سائر المؤمنين. أما يوسف فصعد إلى المنصة، وارتعش قلبي. وفتح عريسي المقبل أسفار الأنبياء، وعلا صوته، وتأرجح رأسه وكتفاه بحركة تقوية، ذات اليمين وذات الشمال، وهو يقرأ فقرات جاءت تلائم زمن خطوبتنا تماماً:

- ستمر المآسي السابقة وتنسى، ولا أعود أراها: ها أنا خالق سموات جديدة وأرضاً جديدة. لن تُذكَر الأحداث الغابرة من بعد، ولن تعود إلى الأذهان. سأجعل من أورشليم فخراً، ومن شعبها ابتهاجاً.

يا لها من كلمات عذبة لأيام خطوبتي! إن الكتاب المقدس يضم كل الحروف، وهو حاصلُ كلِّ الأرقام. ولكن حساباتنا فارغة لا معنى لها، فالله وحده يقيم الحساب ويكتب المصائر.

الفصل الثالث

خطوبتي

أخذت الاستعدادات لحفلة خطوبتي شوطاً كبيراً، وانتقلنا من الرتابة اليومية إلى الحركة المحمومة التي تختلط فيها القرارات الكبرى مع دقائق الاختيارات. وكنت أتنقل بين تجربة ثوب العرس الذي أخرج من صندوق العائلة وحلت طوياته السابقة إلى كيفية عقص شعري؛ ومن توزيع المهام وتوفير لوازم الوليمة إلى الاستماع إلى توجيهات أبي في كيفية التصرف مع عريسي المقبل؛ ومن تعليمات أمي في كيفية تنظيم أسرتي إلى مشاريع يوسف القادمة. وبما أن التقاليد تفرض مضي سنة قبل عقد زواجنا، فقد فكر يوسف في الانخراط في سلك النجارين العاملين في هيكل أورشليم. ففي الهيكل كانت الأجرة عالية، وكانوا يسلمونها للعامل في آخر كل يوم، مما جعل يوسف يفكر بتعويض سخي لوالديّ برفع قيمة المهر، وبمواجهة مصروفات منزلنا، في آن واحد. أجل، سنكون منفصلين الواحد عن الآخر، ولكنه سيعود إلى الناصرة كلما سنحت له الفرصة، ويبعث بأخباره إلينا. وأنا نفسي سأرافق والدي إذا ما صعد للحج إلى أورشليم.

لم أنقطع قط عن رؤية راعوث وراحيل في تلك الأيام، فلقد كانتا أول من تلقّى خبر خطوبتي، وسرعان ما حملتا إليّ تهنئاتهن الرقيقة واستعدادهما التام لمساعدتي، مما جعلني أنظر بارتياح إلى ترسيخ أواصر الصداقة بيننا وليس العكس. وأخبرتني راعوث ان أختها راحيل قد طلب يدها تاجر ثري من تجار بابل، وقد سبق أن أهدى لذويها سواراً ثميناً:

- قريباً سأبقى وحدي.
- سيأتي دورك أنت أيضاً..
- أنا...؟!

لقد أثرت كآبتها فيّ كثيراً. لقد كانت الكآبة حصتها أكثر من غيرها، بل أكثر مني. فعندما كنا صغاراً، كان يحدث لها أن تتركنا فجأة وقد سئمت من مقالبنا ومن ركضنا هنا وهناك.

- راعوث، هل ستأتين؟

فأجاب شقيقها إلياهود عوضها:

- دعيها وشأنها. إنها تتأمل.

عندما كنت أذكرها بقولي لوالدتي يوماً بأني سأتزوج رجلاً فقيراً، كانت تجيبني:

- أما أنا فسأتزوج كاهناً، هذا الذي يقوم بخدمة الهيكل.

راعوث يا للمسكينة! هي التي لم تكن من نسب نبيل يتيح لها مثل هذه الزيجة، ولا حتى بالدخول في أسرة مثل أسرتنا!

- أتعلمين بماذا أفكر؟ إني أفكر بحلم والدتك.. كي تعلم ان أبني لن يكون ملكاً، لأني سأتزوج نجاراً، وسنسكن في الناصرة. في هذه القرية سيولد أطفالنا.

امتعضتْ راعوث لكلامي كما لو خيّبتُ آمالها، مع اني قصدت طمأنتها مشيرة إلى أن المستقبل يستهزئ بتخيلاتنا. فراعوث ترى نفسها ملزمة برفع شأني ومصيري وموقعي الاجتماعي. أما أنا فهمّي أن أولي الاهتمام بها، لأنها صديقتي. لذا قررت أن أشركها، هي وأختها راحيل وسع استطاعتي باهتماماتي ومشاريعي. وأطلعت يوسف طبعاً على هذه الأمور لئلا يتفاجأ بعلاقتي الخاصة بالأختين. أنصت إليّ يوسف وأخذ يدي قائلاً:

- مريم، أنا أفهم موقفك وأؤيدك.

فارتعش قلبي نحوه، وشعرت أن يوسف الذي اختاره أبي عريساً لي، هو، والحمد لله، صديق لي أيضاً.

وكنت أقترب من اليوم العظيم، أنا وأمي، بكثير من القلق، بالرغم من الأيادي السخية العديدة التي كانت تساعدنا. فلقد كنت شديدة التفكير بكل شيء! وكانت والدتي، في حرصها الكبير أن أكون ربة بيت ناجحة، تدربني على أعمال البيت والمطبخ.

وكنت قد راقبت عملها طويلاً في مهام البيت وأتقنت عملية العجن وتثبيت الخبز في التنور، وأرادت أن تسلّم لي أسرار طبخاتها، ومنها على سبيل المثال إعداد فطائر العسل، والتمييز بين طعم العسل البري وعسل التربية البيتية. وعلمتني الغزل، والتعامل مع الإبرة، وحتى التطريز، ظانة انني، بالزواج من يوسف، سأتعامل مع يُسر السيدات الأورشليميات. إني ممتنّة منها حقاً لما أعطتني من قواعد النظافة الجسدية ونظافة الثياب، وحتى في استعمال الأدوية اللازمة في حالات التعرض للبرد وسوء الهضم والعناية بالرضيع، وهنا أيضاً لم أخلُ من خبرة سابقة في هذا المضمار. ففي غياب الدُمى القماشية التي يقتنيها الوثنيون، كنت أمثل دور الأم مع أطفال الجيران الحقيقيين، فكنت أنظف أفواههم من الزبد الطفولي، وأغسل قفاهم، وأضعهم في أقماطهم، وأهزهم بمشيتي عندما يُحزَمُ أحدهم على ظهري.

لقد جربت عدة طرق لعقص شعري ليستقر في الوضع الذي اعتدته، وإن لم يَرُق ذلك للجميع. وكانت أمي مترددة في تأييد العقصة الأفضل. أما أنا فكان يكفيني الوضع الذي يفضله يوسف، فيكفّ الجدال بيني وبينها: ذلك أن يوسف كان يريدني في الوضع الذي التقاني فيه لأول مرة. وما إن يُغلق الجدال بيننا حتى يثار من جديد حول كلاّب حماري، وحول تفاصيل زناري. وهكذا كنت أنتقل متأرجحة من يد إلى يد، ومن رأي إلى رأي، وكأني غرض خاضع لامتحان الخبراء. لقد كانت هذه الحيرة تؤخر وقت إنجاز استعداداتي، ولكن أول المدعوين بدأوا بالوفود.

لقد دعا والدي خلقاً كثيراً، رغبةً منه في أن يضفي بهجة أكبر من المعتاد على شرف ابنته الوحيدة. وإذا ما وافق على صرف مثل هذه النفقات، فلأنه كان مقتنعاً من عبثية ادّخار أمواله لزمن رديء كالذي كان يتوقعه. لقد كان يخفي علّي ذلك، ولكنني طالما سمعته يردد هذه الوصية التي هي من وحيه: من الحكمة أن تروي ظمأك من ماء الجدول طالما يجري، كي تتحمل العطش إذا ما جفّ! كانت أمي تضحك من هذه الحكمة وتسرّ في أذنيّ:

– أبوك على خطأ. بقدر ما شرب المرءُ البارحة، يزداد عطشاً غداً!

دعا والدي، إذن، أبناء قرابتنا من عين كارم وكفرناحوم، وكذلك أقرباء أبعدين وعدداً كبيراً من أهالي الناصرة، إضافة إلى أسر صديقة أو قريبة ليوسف، كما دعا مغنين وعازفين لإضفاء مزيد من البهجة على الوليمة.. خلق كثير حقاً، أكثر من طاقة دارنا على الاستيعاب. ولقد نزل قسم منهم في فنادق البلدة، وفضّل آخرون النزول

في خانات بلدات سيفوريس ونائين وقانا القريبة. فلقد لبّى الجميع الدعوة، ولاسيما زكريا زوج إليشباع. ومع تلبية الدعوة تلقينا هدايا كثيرة منها سمك وخمر وأقمشة وتوابل وحتى خروف من أهل راعوث. أما وفرة الهدايا فتعود إلى أن المساهمة في مناسبة الخطوبة تعتبر بركة من السماء. ولكن ثمة سبباً آخر وهو وقوع المناسبة في يوم اكتمال البدر، مما يؤولونه مؤشراً إلى سعادة يريد الجميع الاشتراك فيها.

في النتيجة، لقد أنستني هذه الهموم ما هو أساسي. فلقد ركزت اهتمامي بالحفلة أكثر مما بالتعهد الذي تكرسه هذه الحفلة، وكأنه أمر لا يعنيني، بحيث لم ألاحظ حالة والدي النفسية، هو الذي لم يكن أمر الحفلة يعنيه بقدر ما يعنيه مصير ابنته، وما سيكون من استمرارية نسله بواسطتها. وكدليل لأهمية المناسبة، استرعى انتباهي جلوس زكريا إلى جانب والدي ورفعه كأس النبيذ عالياً باتجاه يوسف وأمامي:

- ليسعد الزوجان المتحدان بأطهر العواطف كما أسعد أدم وحواء في جنة عدن. ليتمجد الأزلي إلهنا الذي خلق الخطيب والخطيبة، والحب والعاطفة، والنعيم واللذائذ والصداقة والسلام.

بذلك عكست صلوات الذين كفلوا رضاي طبيعة هذه الأدعية. ففيها اكتشفت اني أصبحت امرأة، وعما قريب زوجة موعودة ليوسف. وبعد أن شرب المحتفل من الكأس، شربنا كلانا، هو الأول وأنا بعده، ومن ثم قدم لي حلية فضية اقتطعها من شريط زواج أحد أجداده رمزاً لوحدة أسرتينا، وقال لي:

- بهذا العهد أصبحتِ لي للأبد بحسب شريعة موسى.

وهكذا وجدتُني مرتبطة جسداً ونفساً بجسد رجل ونفسه أمام السماء. فلنصعد إذن أبخرة الخمر، وأنغام الناي والقيثارة إلى رؤوس المدعوين، إذ صاروا شهوداً لفرحتنا، ولاكتمال الوصية الإلهية أمام أبصارهم. وتوجهتْ إليّ أم يوسف بابتسامة عريضة استقبلتُها بامتنان، وأجبتُها بأحسن منها. أما أبي وأمي فلم يكونا غريبين عن نشوة المناسبة، وما لاحظت في أعينهما سوى انعكاسة خفيفة لهذا القلق الذي لم يغادر قط شعب الموعد.

- ألستِ متعبة؟

خاطبني خطيبي مذ ذاك بنبرة الزوج الذي يكلّم زوجته، وملأ قلبي بالسعادة. وطلبت إليه أن يرشدني ويقول لي ماذا ينتظر مني طيلة الزمن الذي نعيشه منفصلين بسبب عمله في أورشليم. وأطلعته على أحد أسرار طفولتي: أن أكون إحدى الفتيات

الاثنتين والثمانين اللواتي يعملن في الهيكل في حياكة ستر المقدس، ثم كيف تخليت عن هذا الحلم بسبب ذويّ.

أشاد يوسف بتعلقي البنوي بذويّ، ولعله رأى أن هذا التعلّق سيؤول إليه قريباً، وأطلق ضحكة خفيفة وهو يسرد لي قصة أيوب المسكين الذي أبتلي بزوجة مشاكسة، إضافة إلى ما ابتلاه الرب به. ثم عاد إلى وقاره وأشار إليّ بأن أستفيد من هذه الأشهر الباقية لتقوية معلوماتي وقواي، لأن الأيام المقبلة ستتطلب منا إيماناً وصحة تقويان على الصعاب.

لم يكن مثل هذا الكلام غريباً على لسان المخطوبين في تلك الأيام الصعبة، ولكن وروده على لسان يوسف تجاهي بهذه الصراحة كبّر صورة يوسف في عينيّ. وتجرأت وسألته عن رأيه في تخوفات الكثيرين، ومنهم والدي، مما تحمله المرحلة القادمة.

– يوسف، اعذرني إذا ما سألتك رأيك في ذلك. أرجوك ان تحجم عن الإجابة إذا لم ترد الإجابة، ولكن أتظن حقاً اننا في آخر الأزمنة؟

– على كل حال هذه الأزمنة قريبة. ولكني أتخوّف من أن ترافقها ويلات كبرى. هيرودس مدنف، ولكنه لازال قادراً أن يقتل. الحرب الأهلية تتأهب، والشباب يكدسون الأسلحة التي سرقوها، والجميع يتكلمون عن الانتفاضة، وسيكون الجليل مدخل العمليات. يختلف وضعنا هنا عن سائر اليهود، فالجبال التي تعزلنا، تجعلنا نستذوق طعم الاستقلال، وشعابها العصية التي تساعد على نصب الكمائن، جعلتنا نعتّد بأنفسنا.

كانت تلك ثاني مرة يكرمني فيها رجل برأيه: خطيبي بعد والدي. وإذا اختلفت نبرة صوتيهما، فكلاهما تكلما بنظرة بعيدة. إني لم أشأ مقاطعة يوسف، بل تمنيتُ لو أدرك ما في قلبي، وكم كنت أشعر بالامتنان والاحترام له حين أسمعه. لقد كنت معتزة بالثقة التي يوليني إياها.

– يا مريم، سنكون اثنين، أنت وأنا؛ أما عن الاتحاد، فنحن متحدان منذ الآن. هل تشعرين بأن ذلك يقويك أكثر؟ أحب أن تشعري بذات الحرية التي أشعر بها أنا بالرغم مما قد يصيبنا. لنكن مستقيمين أمام البشر، ومُنْحَنِي القامات أمام الله!

– والمسيح، يا يوسف، هل تنتظره مثلي؟ قريباً ستتم ألفا عام منذ أن فَصَلَنا القدوس عن الشعوب الأخرى لنشهد لكلمته، وألفا عام منذ أن جربنا بالحديد والنار. هل سيرسل العليّ إلينا هذا النسل الداوودي، هذا البرعم الصدّيق الذي سيملك كملك؟

لقد وضعتُ كل حماسي في هذا السؤال حتى شعرت ان وجهي قد امتقع احمراراً. فاقترب يوسف مني وسمعته يتلو لي الشعر التالي:

– خداك كفلقتي رمانة وراء نقابك، شعرك كقطيع ماعز، وشفتاك كخطٍّ عقيق.

– يا يوسف، إن هذه الأقوال قيلت في عرس الأزلي مع شعبه، ولا ينبغي أن توجَّه إليّ.

وارتفع القمر بدراً في كبد السماء شيئاً فشيئاً حتى بدا يعتّم عليها. وظهرت أوائل المؤشرات المنتظرة كعلامة للسعادة التي توقعها المدعوون، فوجهوا الدعوة إلينا لننضمّ إليهم. واستقبلتني خالتي إليشباع في أسفل الدرج، وأمطروا علي الأدعية بخصوبة الإنجاب، وظننت أن هذا الدعاء قد يؤلمها، هي العاقر! كلا، بل احتوتني بين ذراعيها وقالت:

– ليعطك الرب أولاداً. كثيرين. ليعطِك الرب ولداً واحداً على الأقل، يا مريم، وليكن مباركاً من قبل الرب؛ ولداً يكون داود صغيراً آخر.

الفصل الرابع

شهر الفصح

ما إن انتهى الأسبوع حتى بدأ شهر الفصح. فشرعنا أنا ووالدتي بتنظيف المترل بدءاً من السقف وحتى زوايا الفناء. وكنت أشتغل بفرح وهمة، ملاحظة حتى شقوق البلاط حيث تكون كسر الخبز المخمّر الصغيرة قد احتمت و لم تطلها المكنسة الوالدية. فلقد كان يتحتم علينا محو كل أثر لطعام مخمر محذور تناولهُ في تلك الحقبة من السنة. فنحن شعب شديد التمسك بالطاعة حتى الوسواس، ودقيق في تطبيق مهامّنا. لقد كان الجميع في الناصرة مهتمين في ترتيب الأواني وتصنيفها، والهدف من هذه الضجة كلها فرز الأواني المستخدمة لتناول الطعام في الأيام الاعتيادية، وتلك الخاصة حصراً بالأسبوع المقدس. وكان عمل القدوس في كماله نموذجاً لما يلزم أن نعمل نحن أيضا: أليس هو الذي فصل الأجناس عن بعضها ووضع كل واحد في مكانه، وميّز النور عن النهار دون اختلاط؟

من أجل ذلك نعد عيد الفصح في أدق التفاصيل، بحسب تقليد تخطى العصور، ولا يقبل أي شك البتة. وكان أبي يراقب عملنا. ذلك ان أعمالنا البيتية تلك لم تكن من اختصاصه، علاوة على شعوره بالوهن، وهو لا يجسر البوح به، مع شكّه بعلمنا بما يجول في خاطره. ولقد اضطر إلى مصارحتنا بضعفه لدى مناقشتنا موضوع الحج الطقسي إلى أورشليم: هل نقوم به أم لا، سيما وأن يوسف موجود في المدينة. وكنا أنا وأمي أول من استبعدنا المشروع، ولكن ليس بغير أسف، وتذرعنا بفقدان الأمان على الطرق،

والتكاليف الباهضة، وتعبنا في الأيام الأخيرة من جراء الأعمال البيتيـــة والاحتفـــالات. وأضفت قائلة أن المشاركة بالقلب والروح في الذبائح ليست نقصاً من قبلنا، لاسيما إذا عزمنا على الأجتماع سوية في العام القادم في أورشليم.

لم يكن أحد واهماً! فلقد أحسست من طول جلوسي عند سرير والدي وقلـــة نهوضه منه، يوماً بعد يوم، بتقدم المرض في جسمه. وعزونا ذلك التعب في أول الأمر إلى تراكم العمل عليه، ولكن سرعان ما اكتشفنا الحقيقة التي لا لبس فيهـــا. وكنـــا، أنـــا ووالدتي، نفتعل الجهل بالأمر. لقد كنا امرأتين وحيدتين حيال المشاكل اليومية، ولو كان يوسف حاضراً هنا لساعدنا إلى حدٍ ما في إيجاد الحلول، ولكان سنداً لنا في محنتنا، ومع ذلك لم أرغب في إخباره.

وهكذا تعلمت أن وجبة الخبز تباع بفلس، وان بامكاننا حيازة كيلـــة عســـل بكيس من التين، وبأن قطع النقد ليست كلها ذات قيمة واحدة. وكانت غلطتي أني لم أتعلم كيف أُحسنُ قيادة البيت حتى اليوم. وهكذا شعرت، قبل الأوان، وبعد أن خنقني الألم، أنْ قد قرب وقت زوال عفويتي اللامسؤولة، ونسيان أسرتي الطبيعية، ونهاية الزمن بالنسبة إلى هذه العائلة المنكوبة.

لقد علم والدي بكل تأكيد أن صوت العصفور لن يغرد من بعد: وكان في ألمه يتكلم عن زواجي، وإنجابي، وتأمين مستقبلي، هذا المستقبل الذي ينسلّ من بين يديـــه ويستقر في يديّ أنا. وكان كلامه صافياً، وكذلك نبرة صوته، وكان يحـــاول إخفـــاء سلامه الداخلي تحت قناع ضعفه. وكان يفقد السيطرة على قراره شيئاً فشيئاً، ويسقط أحياناً في الكآبة مثل ابن سيراخ.

– جيل يمضي وجيل يأتي والأرض هي الأرض. تسطع الشمس وتهرول نحـــو عرينها وتغرب. تجري السيول كلها نحو البحر ولا يمتلئ.

وكان يضيف:

– أيها الرب، لست سوى ضيف عندك.

طالما لُمت نفسي أني لم ألتمس شفاء والدي من القدوس، تمجد اسمه، بما فيـــه الكفاية، فلقد كنت أعتبر مشاركته آلامه موقفاً أكثر بنوّة من التماس التخفيف عنـــها. إن الرب يعرف ما هو عدل وما هو صالح، لأن ما ينال لحمنا أو قلبنا آت من عنده، ولا أحد يقف أمام مشيئته. وأشارت إليّ راعوث أن استشير أحد هؤلاء المعالجين الطبيعـــيين

الذين يعيشون حياة الشظف ويعرفون أسرار الأعشاب، وذلك للتخفيف من الألم الذي يهجم على والدي بغتةً.

- لقد أوى أحدهم إلى جبل الكرمل في مغارة إيليا. وعندما تمرضت راحيل أردنا دعوته، ولكننا ظننا انه لن يأتي عندنا، أما عندكم فلا أخاله يرفض ذلك.

- أبي سيرفض ذلك. فلقد قال لي يوماً: "من القدير يأتي الشفاء". وأردف أيضاً: "لا ترذلني يا رب في شيخوختي، فلقد كنت دوماً معك. لقد أمسكتني بيدي اليمنى، وقدتّني في سبلك، وستدخلني، من ثم، في مجدك".

لقد كانت زيارة إيساخار متعة حقيقية أزالت عنا كربتنا كما تزيل الريح الشرقية أمواج البحر المالح. لقد تحاشى الحديث عن الأدوية والألم والشفاء، وفضّل أن يمتعنا بسرد الأحداث العامة التي انقطعت عنا زمناً. وكان يأتينا مردخاي وقليوفا، كلٌ بدوره، وهما لا يجسران على الإفصاح للمريض عن طبيعة مرضه. أما والدي، فكان يهزّ رأسه وهو يستمع إلى قصص صديقه فيستعيد الحياة. وجاء الحديث بينهما عن شؤون الملكوت.

قال إيساخار:

- هيرودس ساكت يمضغ ثأره ضد أنتيباتر الذي جعله ولي عهده، ولكنه يأبى العودة من روما. نحن في فرصة استراحة، ولكن كم ستدوم؟

- أجل، كم ستدوم؟

- إذا لم تتسبب المبارزة بين الملك وابنه في حرب ضد اليهود، فالانتفاضة على روما هي التي ستوقض هذه الحرب. لقد وصلت التعزيزات إلى معسكر سيفوريس، والعصابات المسلحة لازالت سيدة الموقف في الجيل.

- وابنك البكر؟

- التحق بهم.

- ها!

- والصغير أيضاً...

لم يقطب أبي جبينه، بل طرد الذبابة التي اقتحمت خده.

- حسناً فَعَلا!

هذا كان قراره الصادر!

احتفلنا بعيد الفصح في جو من التقوى والقلق معاً، نحن وأعضاء عشيرتنا الذين مثلنا لم يستطيعوا الصعود إلى أورشليم، هم أيضاً. أما زكريا، فنزل إلى الجليل، بعد تحرره من التزاماته الكهنوتية، وكانت زيارته القصيرة لوالدي منعشة كما كانت زيارة إيساخار من قبل. لقد كان زكريا، وهو من أبناء عمومتنا، ينتمي إلى إحدى الفرق الكهنوتية الأربع والعشرين التي تؤمّن خدمة الهيكل طوال السنة، وكان موضوع احترام خاص في البلد، وله علاقات واسعة مع أناس مطلّعين على أشياء كثيرة. غير أن فطنته كانت تحول دون نزوله إلى المعمعة، وكانت آراؤه تتأرجح بين اليمين واليسار، بحيث لا تدري إلى أين يميل.

فبادر والدي قائلاً:

- عظيم الكهنة شمعون بن بيثوس يبعث إليك بتحياته.

- هذا شرف لي.

- لقد شهد الهيكل ازدحاماً كبيراً في مناسبة الفصح أكثر من العام الماضي، مما استوجب مضاعفة عدد شرطة الهيكل بسبب الحجاج الأجانب. أما الأسعار، فلقد شهدت ارتفاعاً لا يُصدَّق: تصور.. يمامة بدينار ذهب!

وكيف يستطيع الفقراء تقديم ذبائح؟

- لقد استوردوا ألف رأس من الماشية في محاولة لخفض الأسعار، ولكن دون جدوى. لقد اكتظ الرواق بالتجار والصيارفة.

فعلّق والدي:

- لا يصّح أن تتزلق رجل الأرملة بخمر التقدمة!

- ومع ذلك إن مؤسساتنا قوية، والهيكل ينتصب وسط الكون، وقد وسّع المهندسون مساحة باحته. وإليك هذا الخبر السار: لقد أصلحوا شقوق بركة بيث حسدا الصغرى. واستطرد قائلاً: ماذا أقول؟ أجل ان الأمة تتمتع بخيرات أرضها وتجارتها، مهما كانت السنون، عجافاً أم مخضوضرة، والمال متوفر دوماً في أورشليم. لاشك اننا نحن الكهنة العاديين لا نحصل على العشر بصورة منتظمة، ولكن صدّقني يا يوياقيم بأن تجاوز المحنة والبؤس اللذين عرفناهما في شبابنا ممكن لو أصلح الناس أنفسهم. وأنا لا أشك في ان ابنتك مريم ستستطيع العيش هنيئة في بلد هنيء. على كل حال، أسأل القدوس، تبارك اسمه، أن يسمع دعائي.

وناداني أبي:

- مريم.. هل سمعتِ؟

كانت نبرة صوته كصوت من سمع خبراً ساراً. أجل، سمعتُ، وتعجبتُ من ثقته المفاجئة، هو الذي أيّد الشباب المتمردين في الأسبوع الماضي مع إيساخار. أجل، اننا كنا نجتهد أن تبدو الحياة حواليه في البيت المفتوح بعيدة عن كل المخاطر، والزمن غير خاضع للتقلبات. فكانت والدتي مهتمة بالشؤون البيتية، وكان بنو وبنات عمومتنا يهرعون إلى مساعدتنا. وكنت أنا أخصص كل أوقاتي للعناية بالمريض، ولا يهمني النهوض منذ الفجر أو قلة النوم. وكنت أصعد إلى السطح كل صباح لأحيي الشمس الشارقة: ترى كم مرة سأستطيع القيام بذلك حتى الشروق الأخير؟ إننا قشة في الهواء!

وجاء اليوم الذي بلغ الضعف مبلغاً من والدي حتى رفع صوته طالباً مني أن أصلي عني وعنه. كان ذلك الصباح داكناً، وكنت أرتجف بوشاحي، فالبرد القارس جاءنا قبل أوانه.

- يا رب أشفنا، فنُشفى... هبنا دواء فاعلاً لأوجاعنا. إنك تحطم قيود العبيد، وتحفظ مواعيدك لمن يضطجعون في التراب.

ووضعت خدي على خد والدي لتختلط أنفاسنا في اقتبال البركة.

- لا تخف يا أبي، أنا معك. منك وُلدت، ويقولون بأنني أشبهك. ستبقى حياً من خلالي، وسأحملك طويلاً، طويلاً..

وضاعفت قوتي فيه لأستطيل حياته الأرضية، فلقد أردت أن أردّ إليه هذا الجسد الذي منحه لي. كان دمه دمي، وفيّ جعل سكناه. رحلت في عمق عينيه، وقرأت فيها أفكاره.. لقد كثّفت ساعة الحقيقة في آن واحد تحرره هو، وتحرر إسرائيل معاً.. وفي عمق هذه الآفاق المنظورة تجلّى العالم المستنير بغتة بنور جديد. لقد ركز أبصاره طيلة حياته في تحقيق الموعد بمخلص. وتذكرت الفرح الذي كان يغمره لدى قراءته كتاب المقابيين الأول، فرددت عليه وصية متاتياس الأخيرة ببطء، وبهدوء وثقة، كمن يهدهد طفلاً على ركبتيه، وقرأت:

- واقتربتْ أيام متاتياس من نهايتها، وقال لأولاده: ها قد أتى ملك الوقاحة والإهانة، ها قد حلّ زمن الانقلابات وانفجار الغضب. فعليكم، يا أبنائي، أن تتقدموا بالغيرة على الشريعة وتعطوا حياتكم من أجل عهد آبائكم. تذكروا ما حققوا من أعمال في أيامهم، وستحصلون على المجد الأبدي. ألم يكن إبراهيم أميناً في الشدة، فحسب له ذلك براً؟ لقد حافظ يوسف على الشريعة في محنته، فصار سيد مصر؛ فينحاس، في غيرته

المتقدة، حصل على عهد الكهنوت الأبدي؛ يشوع صار قاضي إسرائيل لأنه أتم وَفَادَته؛ كالب حصل على أرض ميراثاً له، لأنه شهد شهادة حق أمام المجلس؛ حظي داود بعرش ملكي مدى الأجيال جزاء تقواه؛ رفع إيليا إلى السماء لأنه اتقد غيرة للشريعة؛ حننيا وعزريا وميشائيل نجوا من اللهيب لأنهم وضعوا ثقتهم بالله؛ ونجا دانيال من فم الأسود من أجل استقامته. افهموا، يا أولادي، بأن من يرجون الله لا يعتريهم الخوف من جيل إلى جيل. لا تخافوا تهديد الخاطئ، فمجده آيل إلى العفونة والدود، وإذا ارتفع اليوم، فغداً لا تجده، وسيعود إلى التراب، وتتلاشى مشاريعه. يا أولادي كونوا رجالاً، وتمسكوا بالشريعة تمسكاً شديداً، فهي التي تغمركم مجداً. وبارك متاتياس أبناءه وانضمّ إلى آبائه، ودفن في "مودين" وعمل كل إسرائيل مناحة كبيرة عليه. وأخذ يهوذا ابنه محله، وبسط اسم شعبه مجيداً، وأحال نصر ملوك كثيرين علقماً وطارت شهرته إلى أقاصي الأرض وَجَمَع الذين في الضياع.

وهدأت حركة أبي، ولاحظت عظام وجهه من تحت شفافية جلده، كما لو أن الجلد يعكس علامة الساعة المرعبة وتاريخها مسطرين على أديمه. ورأيته، بلحيته المبتلّة بآثار الحمى، يشبه نوحا وإبراهيم وسائر هؤلاء الذين كرمّهم في حياته وهو إليهم مسافر! وتجرأت وداعبت وجهه، ووضعت يدي على جبينه، ورحلت بأصابعي على تجعداته المنسابة. وإذا بصوته يستيقظ هادئاً:

- مريم، ابنتي.

وشعرت وكأنه يريد شيئا. واستدار على السرير دون مساعدة مني، وأشار إليّ لأنحني نحوه:

- اسمعيني يا ابنتي وافرحي: لقد رأيت ابنك في نومي، وكان بهياً وقوياً كالرجاء.

ثم استطرد:

- يا للغرابة! لم أعد أشعر بالألم.

وأجال طرفه كمن يبحث عن شاهد آخر لمفاجأته.

- هل والدتك هنا؟ أنا لا أراها. لتوصد الباب، فإن الريح الجنوبية ستهب هذا المساء وغداً.

وانشرحت أساريره قليلاً، فقال:

- بعد لحظات لن أكون.. ومع ذلك ترين ما هي همومي!

ومال النهار إلى الزوال. وكم تقت أن يأتي صموئيل الفريسي الذي يحبه أبي قبل سقوط الليل. لقد وعدني بالمجيء، وصدقته لأنه كان إنساناً يحترم كلمته. لقد كان عضواً في مجمع سيفوريس الصغير، وكان يتبع تفسيراً للكتاب يختلف عن الخط الرسمي، ولكن والدي تبناه. وكان هذا الفريسي يزعم أن رئيس الكهنة والصدوقيين الآخرين يهينون الأزلي عندما ينكرون القيامة، فالخالق لم يستدع الإنسان من العدم ليعيده إلى العدم من جديد. فكيف تراه يستعيد ما وهبه؟ هذا كان تعليم صموئيل وإيمانه.

وسمعته يقرع الباب فهرعت لأفتح له. وأخبرته عن صحة أبي، وغلبتني دموعي، فاحتميت بين ذراعيه.

– تعزي يا مريم، فإن الرب عادل. فهو يميّز الصالحين عن الطالحين، ولا يمزج والدك مع الكافرين. انه لا يدلي بالمصير نفسه للجميع. فهو لم يهمل أن يكافئ إخوة يهوذا وشمعون الذين سقطوا من أجل مجده، ولا يتوانى مجازاة من خدموه. إنه وضع فينا عطشاً إلى البقاء، بحيث لا تكفي حياة بشرية واحدة لإروائها. تحلّي بالثقة وتذكري ما قاله دانيال: سيستيقظ الذين أضّجعوا في التراب، البعض للحياة الأبدية، والبعض الآخر للخزي الأبدي. وسيسطع الحكماء كالجَلَد.

كان رجائي في محله: سيستيقظ أبي يوم الدينونة، وسيكون هذا اليوم قريباً. ليتبارك القدوس.

– ان الحقيقة العليا تستنير من كشف إلى كشف. أما أنت يا مريم، فستشهدين أموراً عظيمة. كوني مبتهجة وابقي طاهرة.

تمنيت لو توسع المعلم في شرحه، وقوّى الصدّيق قناعاتي، ولكنه ابتعد عني باتجاه الركن الذي كان والدي مستلقياً فيه. فبقيت وحدي في الطرف الآخر وسط الظلام، وعيناي متجهتان نحو الوجه الشاحب. وشرع صموئيل يرتل صلاة المدنفين بصوته الأبح، وهو منحن.

ودخلت والدتي إلى الغرفة، فأعطيت لها مكاني على المقعد الخشبي، وركعت حاضنة ركبتيها. وكنا نعلم أنا ووالدتي بأن مزمور صموئيل وقلب أبي سيتوقفان سوية.

– تقدمي يا حنة ويا مريم. يوياقيم يغادرنا ونَفَسُه يتلاشى.

ومدت والدتي، وهي راكعة، ذراعها تحت عنق زوجها، ورأيت الدم ينسحب من شفتيه، والبؤبؤين ينطفئان، وتحققت من لحظة النهاية تماماً لدى تشنج المنحرين. وفقدت تصور هيئة هذا الرأس الذي سقط بثقله على الوسادة: لقد غادرنا والدي، وترك

جثته. ماذا ترى يبقى من الإنسان إذا غادرته نسمة الحياة؟ كانت تلك أول مرة أرى فيها الموت، وتركتني المفاجأة حيرى. فلطالما رافقته واشتركت في نزاعه حتى انساب ما تبقى من حياته في حياتي، وما كان موته، بالنسبة لي، إلا ظاهرياً. وإذا ما أغمضت عينيّ عن الجسد، فلكي أنال الروح، ولن يمنعني إياها أحد.

انسحبت أمي عن السرير، وجاءت لتجلس على المقعد إلى جانبي، وضمتني إليها: فلقد أصبحنا كلانا أرملتين. وتكفل صموئيل بالشؤون الطقسية، واستدعى لمساعدته امرأة من سيفوريس كانت قد رافقته ومكثت تنتظره على الباب الخارجي. فغسل جسد والدي، ودهنه بالطيوب، ولفّه بالكفن، وشدّ يديه ورجليه باللفائف، وغطى وجهه بالمنديل، ثم أصدر أوامره باستدعاء النادبات والعازفين وثبّت أجورهم. واستغرق تتميم هذه الالتزامات وقتاً غير قليل. ولما أنهى عمله تقدم منا، فأخذت والدتي ترتجف وأطلقت صراخاً هائلاً كصراخ بهيمة مجروحة ملأت أصداؤه أرجاء الغرفة بكل آلام إسرائيل؛ صراخاً كالعويل طويلاً، متعباً بعث فيّ القشعريرة. وأشعلت قنديلاً يبعث فينا الثقة بلمعانه، بالرغم من أن عتمة الليل لم تقع بعدُ تماماً.

– افتحي النوافذ ودعي الهواء يدخل، فإني أشعر بالدوار.

أطعت الأمر وإن كان مخالفاً للعادات. واختنق صوت والدتي بعبرة من البكاء، وانهارت، فصرت أفرك خدّيها. واستسلمنا كلانا للبكاء دون تحفظ.

وفي الغد، عند بزوغ الشمس، انتظم جمع كبير وحمل الميت إلى مسكن آبائه ليدفن في الأرض التي طالما أحبها. وشق بنو عمومتنا ثيابهم، ولم يحلقوا ذقونهم، أما النساء فوضعن الخمار والمسوح، وأغتسل الذين لمسوا جسد الميت، كما فعلنا نحن. واشترت مريم، في حرصها الشديد، إسفنجة مطهِّرة مع رماد بقرة حمراء أحرقت في الهيكل، ومزجته بالماء، ثم وزعته على من يشاء، بحسب تقليد عريق، وساعدتني في إعداد الطعام الذي كان من الواجبات الملقاة على عاتقي. وهرعت جارات أُخر لمساعدتنا، ولكنهن لجهلهن أساليبنا في الطبخ أثقلن علينا العمل من حيث لا يدرين: فلقد تغيّرت أماكن الأشياء وأواني المطبخ أثناء مرض والدي، ونفذ الطحين والعسل، واحتل النمل المعجن. فاحمرت وجنتاي خجلاً من هذه الفوضى ومن عوزنا الفاضح.

وانتظرت يوسف إذ وصله الخبر متأخراً مما، لم يتح له حضور مراسيم التشييع. أما ذووه فقد حرصوا جميعاً على الاشتراك في التشييع. غير أن غيابه آلمني، وإن كان

معذوراً، وقد تقدمتُ من والدته وأطلعتُها على أسفي. قبل أسابيع لم تكن هذه المرأة تعنيني شيئاً، وهاهي تدخل فجأة في حميمية أسرتنا، بل أنا نفسي دخلت في حميميتها. ونظرنا كلانا في أعين بعضنا مع شيء من التردد. وشعرت بأنها تراقبني من طرف خفي لتكتشفني أكثر، حيث سنشترك معاً منذ الآن فصاعداً في الأفراح والأحزان. وقدمت لها بخجل فطائر التين والعنب التي أعددتها، فذاقت منها وامتدحت جودتها بحركة من ذقنها، فعبرت لها عن امتناني بحركة لياقة رقيقة. يا لقيمة هذه الإيماءات الصغيرة!

ودام المأتم ثلاثين يوماً بحسب العادة المتبعة. ولقد حافظ أصحابنا وجيراننا على الصمت والهدوء حولنا. أما أنا ووالدتي، فلم تغب عنا ذكرى المعلم الذي ملك علينا والذي سكت عن الحديث معنا إلا في عالم ذكرياتنا، وأصبح يوسف مرشدنا، من الآن فصاعداً... وكم كنت بحاجة إليه آنذاك!

فلقد دفعني نزاع والدي، والعناية التي أحطُّه بها، ومتطلبات المنزل... دفعتني إلى خارج ذاتي. ومثّلتُ، طيلة هذه الفترة، دور الفتاة التي تتعلق بها حياة أخرى، وأداة ضرورية للعناية بهذه الحياة. والآن، بعد أن لفّ الصمت الغرفة التي سهرت فيها ساعات وساعات، رأيتني وحيدة إلى جانب أم ضائعة، وبعيدةً عن خطيب بالكاد أعرفه. بمن تراني أستنجد في هذه العزلة؟: "تحت خيمتك أريد أن أحتمي يا أيها الرب إلهي".

في الشهر الأول من فترة الحزن قدمت فراشي من فراش والدتي، فلقد كنت كعصفور يتهيأ للطيران مذعوراً من الفراغ، وملتصقاً بالعش الذي سيغادره، بعد أن كان ظل الوالد الحامي يجلله. واستلمت والدتي مقاليد قيادة المنزل من جديد، وهي تدفعني دفعاً إلى مشاركتها المهام لتنتشلني من الكآبة والقلق اللذين جمّداني. ومن دون سابق إنذار أبعدتْ فراشينا عن بعضهما، مما آلمني. فتسمرتُ في زاويتي و لم أبدِ حراكاً.

وهنا جاء الحدث غير المتوقع الذي استولى على حياتي ووضعها على ركبتي الرب: سمعت اسمي في عمق الليل، وفكرت ان أمي تدعوني، فاقتربت منها دون ضجة، فهالني منظرها: فم مفتوح وشعر مبعثر على الوسادة. فقلت في نفسي لابد أنها نائمة. فعدت إلى مكاني ظانة أنها لربما نادتني في حلمها.

– لست أنا التي حلمتُ، بل بالأحرى أنت حلمتِ.

هذا ما أجابتني به في الغد.

وفي الليلة التالية كان الصوت أقوى. فهرعت إلى أمي قائلة لها مرة أخرى:

– ها أنذا يا أمي!

واستيقظت والدتي مسرعة وألقت عليّ نظرة غريبة لازلتُ أذكرها. وفي ذعري لم أنطق بشيء.

وانتشلني الصوت ذاته من سباتي بعد قليل:

- لقد نلتِ حظوة عند الرب، ستشاهدين عظائم!

وفهمت انَ النداء لم يكن صادراً من والدتي. وتساءلت من أين، يا ترى، جاءت هذه العبارات التي تعدني بمستقبل طالما ثرثرنا فيه مع راعوث وراحيل، وحتى مع شقيقيهما إلياهود؟!

وتذكرت فجأة ما تحكيه التوراة عن صموئيل الذي كان يخدم المذبح، بعد أن كرسته والدته حنة للرب. فلقد كان كل ليلة يسمع اسمه، ويظن أن عالي الكاهن يدعوه. وكان عالي يجيب كل مرة:

- لا يا صموئيل، أنا لم أدعك.

وفهم عالي في النهاية ان الرب يدعو الطفل.

- ما الكلام الذي وجهَهُ إليكَ؟ لا تخفِ عليّ شيئاً.

ونقل صموئيل الكلمات التي سمعها دون إخفاء شيء. فأعلن له عالي:

- إنه الرب، فليفعل ما يطيب له.

لقد حدث ذلك في زمن بعيد، في عهد القضاة، في شيلو، وها إن الأمر نفسه يحدث لي اليوم. فلقد غمرني القدوس، تبارك اسمه، وهزني هزاً، وسالت الدموع غزيرة على خدّي. وفيما استولى عليّ الفرح والرعدة خاطبت نفسي قائلة: "استقري يا نفسي قرب العلي، فهو الصخرة والحصن". يا ما أكثر الهتافات الجميلة في كتاب المزامير، وقد تلوت ما استطعت منها غيباً خلال تلك الليالي التي غمرني فيها هذا الحضور. ورددت لنفسي تنبؤات والدي وهو على فراش الموت، وكأني أسمع صداها على أنغام الملائكة: "ستحبلين بولد وتدعين اسمه يشوع". يشوع! يا له من اسم حاسم! ويخال لي انني استذكرت حلم راعوث وأمها، إذ قالتا: لابد أن يولد يوماً هذا المشيح؛ أن يولد من امرأة شابة، طاهرة بما يوليها أن تستحق حمله، وسيكون هو المسيح، والمبارك، والذي يخلّص. وأخذتني القشعريرة أمام هذا المرسل الذي سيملك مدى الدهور على بيت يعقوب، ولن يكون لملكه انقضاء. ولكن خوفي من المبالغة في التوقف عند فكرة مجده، والبهجة العارمة في تخيّل الإنعام الحاصل لي في أن أكون أمه.. أبقيتا عيناي مفتوحتين.

... وفكرت ان الشيطان يطيب له أن يوقع البشر في حبائله، وكانت أمي قد حذرتني مراراً!

- احذري منه أكثر من حذرك من الجارة.

ضحكت وقتها من ذكر جارتنا التي كانت مهذارة أكثر منها خبثاً، وكنت سريعة التصديق، لأن لسعات إلياهود لم تكن ببعيدة، وكنت على استعداد للسقوط في فخاخه. غير اني كنت واثقة كل الثقة في العناية الإلهية، ككل يهودي تغذّى من التوراة، هذه العناية التي هي الاسم الآخر للعهد المكتوبة أحرفه في السماء.

إني أسرح بذاكرتي بعيداً لأستعيد صورة تلك الفتاة المخطوبة لرجل اسمه يوسف وهي في فجر مراهقتها، ومنهمكة في إعداد زواجها. صوت يباغتها وهي تتقلب في فراشها، قلقة لما ينتظرها، ولما تعرفه أو تجهله من أمور مستقبلها... فقررت أن تفاتح أمها مهما كلف الأمر. وما إن أسرَّت بأمرها، حتى حدجتها أمها بنظرة مرتابة. فاحتمت بمغامرة الفتى صموئيل الذي سمع صوتاً، هو الآخر، وكانت أمه حنة تحمل الاسم ذاته.

- يا مريم من تحسبين نفسك؟ ألعلك أول القضاة! أوَ يكلمك الرب كما كلّم صموئيل؟ أم يكلمك كما كلّم موسى في الغمام والرعود؟

كما كلّم موسى!.. لقد امتقع وجهي خجلاً لهذا التشبيه، فعضضت لساني وخنقتني عبراتي. ها قد وقع ما كنت أخشاه، وأمي تستهزئ بي! أجل، لا شيء يبرر أن يميزني الرب ويزورني. يا لها من فطنة، ونباهة، وقساوة والدية معاً!

ولكن لا مبرّر أيضاً ألا يكلمني الرب، لاسيما بفم مرسل من قبله. فالملائكة موجودون، ويتدخلون لقيادة المختارين، أو على الأقل لإنارة سبل رجل أو امرأة. فلقد تعامل معهم يعقوب وطوبيا ودانيال وغيرهم كثيرون، وحمارة بلعام نفسها شاهدت أحدهم يسدّ الطريق أمامها. كيف لا أومن بذلك، والكتاب لا ينقض! الجميع يؤمنون بالملائكة، ماخلا الصدوقيين، مع أنهم يلامسون رئيس الكهنة بأجنحتهم في صدر المقدس.

وانتظرتُ أن تهدأ أمي، وهدئتْ فعلاً بعد أن اكتشفت قساوة كلامها معي، وعندما لاحظت دموعي، قالت:

- اسمعي يا مريم، إذا عاد إليك الملاك في المرة القادمة، فقولي له، مهما كان كلامه إليك:

- أنا أمةٌ للرب، ليكن بحسب قوله.

بعدها غيرتْ الموضوع وأعطتني عشر وصايا عن شؤون زواجي وحمالتي، وعن متاهات الميزانية والمطبخ.

لم تكن والدتي مخطئة في هذا، فلقد كنا نعاني كثيراً من مشاكل المصروفات، وكانت مواردنا تعيننا بالكاد على العيش. ولكن تنبيه والدتي دفعني إلى الانغلاق على نفسي، وأخفيت سري في عمق فمي.

ولكن هذا السر ثَقُلَ عليّ حمله وحدي. فإذا رفضت أمي قبول أسراري، فمن ترى سيقبلها؟ يوسف؟ لن أتجاسر البتة على البوح بذلك لخطيبي. ومع ذلك... أأبوح به لصديقاتي؟ راعوث كما أعرفها، لو بُحتُ لها بسري، لتعرضتُ لمزيد من أسئلتها الفضولية، ولطالبتني بالتفاصيل.. ولو اهتممت بتوقعات والدتها، لتعرضنا للخلط بين ما هو طاهر وما هو نجس، بين ما هو من الشيطان الخبيث وما هو آتٍ من السماء، في الوقت الذي ينبغي أن يحافظ السر على نقائه. فالصمت، إذن، يبقى الموقف الأفضل.

وصمتُ فعلاً. وكان ذلك بمثابة هروبي إلى الصحراء. والآن، بعد كل هذه السنين، أعود إلى نفسي لأقيّم ذلك الصمت، وأقدّر ثمنه بالنسبة إلى والدتي. قد تكون القطيعة بين الأجيال هي القاعدة ضمن الأسرة. ألم أكن أنا نفسي ضحية هذه القطيعة، وكذلك ابني، الذي لربما لم أفهمه تماماً. أما الأسئلة التي ألقيها على نفسي اليوم، فلا نفع منها.

على كل حال، هناك سؤال واحد قوّض مضجعي لفترة طويلة، ولقد لمست نفسي لأني لم أفكر في الاستفسار عن عمق ما أعلن لي. متى؟ لقد فحصت نفسي في الداخل والخارج، ورأيتني مضطرة إلى الحصول على إشارة جديدة. ولكني لن أستسلم إلى استنباط جدل باطني لا أشعر بضرورته: فلقد ولّد حديثي مع والدتي شكّاً في داخلي لم أتخلص منه سريعاً إلا بالصلاة. لقد كان فكري موحداً، وحياتي بسيطة، وما إن أنتهي من الحصول على بركة حتى أنال أخرى من هذه البركات التي تطرز مراحل حياتي، وكأنها آتية خصيصاً لملاقاتي. غير أني لن أنسى القلق الشديد الذي استحوذ عليّ ذات مساء من أيام عيد القمر الجديد، إذ كنت متكئة لوحدي على سياج السطح. فقد كانت أغاني الشارع وأصوات الصنوج تزعجني وأنا استذوق في تأملي فرح العيش في الناصرة، وحركة الجماهير المحمومة، وتباين مصيري عن مصائر الآخرين تماماً...

وجاءت عودة يوسف لتعيد إلى البيت وتيرته واهتماماته المتعلقة بالأحداث الجارية. كما حمل معه أريج عالم آخر إلينا، عالم أورشليم. خطيبي! كان يحلو لي أن أدعوه بهذا الاسم، وكنت أعتز به إذ سمعت بأنه قد كُلِّف بتعليم مهنة النحارة للكهنة المختصين بترميمات المقدس. وقد حصل على هذه المهمة بفضل صفاء جذوره العائلية وتوصيات زكريا، كما وفّر له السكن أقرباء بعيدون كانوا يزودون الهيكل بخشب المحرقات، ويملكون بيتاً واسعاً في العاصمة. أما أجرته فكانت تنقد له كل مساء قبل أن يغلق اللاويون بوابة المدخل.

ولدى سماعي تفاصيل حياة يوسف التي ستصبح قريباً مفردات حياتينا كلينا، كنت أشعر بأن والدي لا يزال يحميني من خلاله. فلقد اختار لي رجلاً يلفني بمتانة ذراعه، ويحيطني بحنان قلبه، ونور روحه، وصلابة إيمانه الشبيه بصلابة الصخر. وكانت عاطفته تبعث فيّ الشجاعة، فأستغل وجوده في الناصرة لأكرس كل وقتي للعناية به، وكنت أنساق إلى تجربة الاختلاء به لوحدنا، خلافاً للأعراف.

- يوسف، هل تؤمن بالأحلام؟

لقد باغته سؤالي على ما بدا لي، فقال:

- ألا تؤمنين بالرؤى، وبأحلام فرعون، ودانيال وبالأحلام التي يسجلها الكتاب؟

ثم استطرد يقول:

- محذور علينا الانسياق وراء الأرواح يا مريم، ولكن الله قادر، في بعض الحالات، أن يستخدم سبات الإنسان ليوحي إليه بسر ما. ولكن كثيراً من اليقظة لازم للتمييز بين الصحيح والخطأ الذي قد يجرنا إلى حبائله.

وجلس على المصطبة التي أصلحها عشية زواجنا في الفناء، وانشغلت أنا بوضع الخبز في التنور. أما والدتي فخرجت لجلب دواء لمريض، ولم أتوقع أن تتغيب طويلاً لعلمها بأننا وحيدان في البيت.

- يا يوسف، لو طلب إليك الرب شيئاً صعباً، صعباً جداً، هل ستطيع؟

- ما هذا السؤال يا مريم! طبعاً. ولكن كيف سيتوجه إليّ؟

لاحظت البسمة في عينيه، فرقّ قلبي نحوه:

- بالحلم طبعاً..!

ومدّ يده ليساعدني في وضع القفة أرضاً، وبقينا لحظة نمسك بها كلانا.

– اسمح لي بسؤال آخر: هل تظن أن المشيح، المخلص سيولد من نسل داود؟ لماذا، يا ترى، لا يولد من أسرة مثل أسرتنا؟

يا لها جرأة من قبلي! وفي أي طريق وعر وضعت نفسي! فحاولت العودة إلى أعقابي بسرعة نادمة على ما قلت، غير ان يوسف أخذ يضحك، ولكن من دون استهزاء:

– إذا ولدتِ المشيح، فسيأتينا النبأ بذلك كلينا. ثم أضاف بصوت خشن ووجه مقطب هذه المرة:

– كل شيء ممكن عند العلي.

الفصل الخامس

عيد المظال

ما إن انقضت أيام الحزن، حتى دعانا يوسف إلى اللحاق به في عيد المظال، وقد أتخذ القرار في مجلس العائلة. وتقرر أن نسافر إلى أورشليم برفقة مريم وقليوفا ومردخاي وأبناء عمومتنا من قانا وكفرناحوم، وأن نأخذ معنا العُشر الثاني لصرفه ميدانيا هنـــاك، كما تأمر الشريعة.

ان هذه الاحتفالات التي ترتاح إليها النفس اليهودية تبعث الحرارة في تاريخنـــا وتخلق التواصل مع ماضينا. فحيثما اشتركت فيها، أفي أورشليم، أم في عين كارم، أم في الناصرة، أم في مصر، فقد طرّزت مراحل حياتي بخطى متساوية، وعاصرت تاريخ أمتنا. وإذا ما تعاقبت بوتائر الدورات القمرية، فلأنها مرتبطة بها، شاهدة على أن الزمن هو بيد الأزلي الذي أوصى بالأعياد والمواسم معاً... ولقد أخذتني النشوة بشكل جديـــد هـــذه المرة، لأني سألتقي خطيبي في المدينة المقدسة بالذات.

ودخلت الشكوك فجأة في قلب والدتي، إذ لم تكن واثقة من أن اللياقة تسمح لها بحضور الأفراح، حتى لو كانت دينية، وذلك بسبب ترملها. فاقترحت عليها أن نقدّم موعد ذهابنا علناً، كي نكون في أورشليم منذ افتتاح أسبوع التوبة الذي يســـبق يـــوم الغفران.

– أظن ان والدك سيوافقنا.

يا أورشليم، يا مدينة داود وعاصمة اليهودية، يا مكاناً مقدساً لدى جميع المؤمنين، ويا قاعدة الهيكل، ان نفسي، وأنا طفلة، قد ربطتك دوماً مع روائع الطبيعة التي سبقت ظهور الإنسان. لقد تخيلت موقعك في التكوين بين أعمال الخالق. ومع ذلك فأنا لا أذكر متى كان أول احتكاكي بالهيكل، إذ كنت صغيرة جداً. لقد كنت في عمر تخنق فيه المتاعب الصغيرة، والرغبات العابرة، والروادع، والإثارات الناجمة عن التوقعات اللامألوفة، والإعياء... قابلية الاندهاش. فلقد قالوا لي:

- انظري!

ولكني لم أر شيئاً، وإنما شعرت بخشونة الأرصفة تحت رجليّ، وبمعدتي تثور من خليط الدخان والشحوم والبخور، وبتشنج أصابع يدي المضمومة في يد أمي إلى حد البكاء، خوف أن أنفك عنها وابتعد. ترى كيف يمكنني التخلص منها والجداء ترعبني وهي تلحس خدودي، وصوت الماعز والخرفان يمزق آذاني بثغائها؟ وكانت شلّتنا، إذا ما ابتعدت عن المتسولين، تعثر مرتبكة بحلقة العميان، وإذا حاولنا تحاشي تجار العملة نرتطم بأصحاب الجمال.

- أين هم اللاويون، لفرض النظام؟

وأخذ القلق يدب في قلب والدتي:

- هل نحن حقاً في الطريق الصحيح؟

وعلا صوت البوق معلناً بدء الاحتفال، فتسمَّر موج الحجاج في أماكنهم. وبينما أخذني الإعجاب من المنظر، سمعت صوت والدي يسقط عليّ من فوق:

- هذا هو مسكن القدوس، إله آبائنا إبراهيم واسحق ويعقوب.

منذ ذلك الحج بقينا أوفياء للنزل الواقع قرب باب الغنم، الذي يستقبلنا كل مرة بإنعام خاص. وكانت أمي تحب أخذ قسط من الراحة فيه قبل الصعود إلى الرواق، أما أنا فكنت أشتاق بفارغ الصبر إلى لقاء يوسف.

- أمي، ألا يكون هو ذلك الرجل الحامل العارضة الخشبية هناك؟

كلا لم يكن يوسف، وكان الأفضل للقاء يوسف أن ننتظر على عتبة باب الخروج الآتي من منطقة المشاغل. ولكنه كان علينا للوصول إلى هناك أن نسير فوق حجارة البناء المكدسة بقرب الأروقة، وأن نجتاز ساحات العمل، وندع وراءنا حلقات الحجاج الناطقين باليونانية واللاتينية والآرامية والمصرية، ونصطدم بجماهير المتفرجين أو الفضوليين الذين يغلقون الطرق دائماً، أو أن نتحاشى هراوات الشرطة الذين يرافقون

قافلة تجار الذهب أو التقادم. عندما أعود اليوم بالفكر إلى تلك الذكريات، مع خوف أقل، وقامة أكبر، تعود إليّ صورة أورشليم كما كانت في طفولتي، إلى حد ما. فاليوم كما في الأمسّ: غليان جمهور متنوع صاخب، يعمل كل واحد ما يشاء، وكيفما شاء إزاء طقوس دقيقة، أملتها شريعة قاسية نظمها موسى وهارون، وراجعها عزرا ونحميا، وأعاد ترتيبها معلمو الناموس.

ووجدتني فجأة وجهاً لوجه مع يوسف، سعيدة بأن أحتمي به أخيراً. لم يتجرأ أن يقبّلني، ولا أن يمسك بيدي أمام الجمهور، ولكني قرأت الفرح على وجهه بلقياي، وأنا نفسي لم أخفِ عنه فرحي. وصرح لي بحنينه إلى العودة إلى الناصرة ورؤية أخيه ودكانه وإلى الشروع في بناء أسرتنا.

– هنا، الكل غريب للآخر، ولا يعير انتباهاً إلى قريبه. أما البلاط فلا يخفى سلوكه المشين، وما على المرء إلا أن يجتاز الأحياء العليا للمدينة كي يلاحظ بذخ الأقوياء في أسرّتهم المحمولة، والعشيقات في تبرجهن الفاضح محاطات بعبيدهن. وحتى النبلاء من الكهنة لا يتورعون من مظاهر الترف والعجرفة في وتيرة حياتهم. "لقد افترس الأغنياء الكرم، وصارت أشلاء الفقراء في بيوتهم".

كنت أرى في شخصية خطيبي صدى شخصية والدي وحبه للعدالة، والعطاء، والتحفظ أيضاً. واجتزنا رواق النساء، واقتربنا من بوابة نيكانور حيث تتجمهر الزوجات المتهمات بالزنى، بانتظار الكاهن مقبلاً إليهنّ بعد فراغه من "تقادم الغيرة"، ليفرض عليهن عقاب ماء المرارة. "إذا أثمتْ وأعطتْ نفسها لغير زوجها، فليدخلْ هذا الماء جوفَها، ويملأ أحشاءها، وليهلك رحمها!". لم تكن فتاة من عندنا تجهل أوامر سفر العدد هذه. ولاحظت أن يوسف يأخذ طريقاً آخر فلا يمر من هذا المكان. لقد أراد خطيبي إبعادي عن مجرد النظر إلى نتائج الشك في الطهارة، بالرغم من عجزي عن مجرد التفكير بمثل هذه السلوكية المذنبة المزعومة، وعن إمكانية تصور نفسي واقعة تحت طائل مثل هذه الوصية. وأذكر كيف أدان يوسف، ذات يوم، أقوال أمي لي، في الناصرة أيضاً، إذ قصدت الإفصاح عما اعتبَرتْه كلام حق، مؤكدة:

– لاشك ان أباك كان مؤمناً صادقاً، وكان فرحه، مثل أشعيا، يكمن في خوف الله، ولكنه تعرض لضلال العتمات: فأنا متأكدة من انه شك يوماً في تحقيق الوعد الإلهي.

لقد تشكك يوسف في رقّته العفوية من هذه التعرية و لم أشأ الحكم على الموقفين. فتصورت أبي حيادياً لا يريد الحكم بين أمي وخطيبي.

هل صادف يوسف أحداً من سكان الناصرة؟ أجل، لقد التقى بإلياهود الذي كان يتساءل عن مستقبله. وقد دفعني الفضول، أنا ذاتي، لاستفسر عن المهنة التي يزاولها رفيق طفولتي، ولكني أحجمت عن طرح السؤال خوفاً من أن تحمّر وجنتاي حياء. واكتفيت بمعرفة أنه في وضع جيد، وبهذا سوف أطمئن راعوث وراحيل لدى عودتنا.

موضوع آخر كان يذكي حماس خطيبي ويعود إليه دوماً، ألا وهو الهيكل. لقد أحبه حباً جماً لكونه مقدس الله الواحد الأحد، ولأنه يشترك في بنائه، هو العامل البسيط. وإذا كان يشجب كافة أعمال هيرودس، كسائر اليهود، فمشروع تجميل الهيكل لا ينال حظوة في عينيه حسب، بل يتكلم عنه بحماس. وكان يسترسل في شرحه لتوسيع ساحة جبل موريا على يد هيرودس بتسويات ترابية هائلة، وقد عمل فيها عشرة آلاف عامل من دون أن تنقطع خدمة الله أبداً. صفوف الأعمدة، تيجانها المزخرفة، المنابر، أعالي الأبواب، فرش الأرضيات الملونة، الأسقف من خشب الأرز، البوابات الكبرى... لقد جُنِّدت كافة الإمكانيات ومواصفات المواد المستخدمة وكمال الأشكال لإبراز مكانة الروح ورفعها إلى السماوات. ونظرت في عيني دليلي، أنا الجاهلة في هذه الأمور، ورددت وراءه: "يا رب، أحببت جمال بيتك ومسكن إقامة مجدك". لقد كان من حق خطيبي أن يعتز بتكريس قوته ومهارته لهذا البناء الإلهي، وكنت اشعر من موقعي المتواضع بأني اعمل أنا أيضاً إلى جانبه.

من لم يعش شهر تشرين في أورشليم، خسر ما يعادله من حياته. وتحققت من صحة هذا المثل القديم الذي يمتدح قوة المدينة المقدسة وبهاءها ومجدها في تلك الأسابيع. فلقد كان الحجاج ينسون كل شيء ولا يعود يهمهم سوى هذه الفوضى في أزقة المدينة أو الأروقة التي تهزها النشوة، وكنت أنا نفسي مأخوذة مشدوهة في هذا الجو، و لم يكن لنشوتي من حدّ سوى إحاطة والدتي، أنا وميريام، بالعناية اللازمة لتشترك بكافة الاحتفالات، كما كانت راغبة، بحسب حدسي. فقد كانت تتبع خطانا حيثما ذهبنا، بالرغم من ضعف رجليها ووهنها الذي تجاوزته بشجاعتها، بقصد ألا تحبط اندفاعنا وفرحنا. وكنا، من جهتنا، نهتم في أن تمارس سلطتها الأمومية على جماعتنا النسوية الصغيرة، فلا نناقش أوامرها، ولا نتجاوزها لدى سيرنا في الأزقة، حتى لو استوجب الأمر حثّ خطانا، وكنا نتحاشى إزعاجها بالتوافه والمعاكسات إبان تلك الطقوس

الطويلة، مما كان سيضاعف تعبها. وكنا في نهاية النهار، مساء، نتكئ على مرفقينا على سطح الفندق الطويل، ونتأمل دخان نيران المحرقات يخفّ تدريجياً على المذبح، ويغيب قرص الشمس في دماء سماء أتخمتها الذبائح المحرقة. وكان يوسف يلحق بنا أحياناً، وكذلك النسيم القادم إلينا من أحد البحرين، البحر الذي يحد سواحل الوثنيين، والذي يبلل أقدام جبل موآب. لقد كنا نحب ذلك الوقت، حيث يهبط السلام من الأعالي ويجلل قلبي الطفولي.

غادرنا يوسف في اليوم الرابع وانضم إلى فريق عمله، فيوم التكفير يقترب، ومن اللياقة أن يستعد له الرجال والنساء منفصلين. إن استذكار الاحتفال بيوم الاستغفارات برفقة والدتي يبعث فيّ القشعريرة. فلقد زاول عظيم الكهنة القطاعة منذ أسبوع، ومارس الغسول الطقسية، وفرض على نفسه السهر لئلا يتنجس بأي شيء، وأُعدت له حلّة بالغة النظافة ليلبسها حين تقديم الذبيحة. انه سيلج قدس الأقداس قريباً، هذا الإنعام الذي يحظى به هو وحده فقط، ويمارسه مرة واحدة في السنة، في هذا اليوم بالذات! وتسمرت أعيننا على الستار القرمزي الذي ينفتح أمامه ليدخل... ويختفي في المكان المقدس الذي هو مركز الدنيا. ويركع الجميع وأوجههم إلى الأرض، وأعناقهم مثقلة بالحضور الإلهي اللامنظور.

أما أنا فبقيت عيناي شاخصتين نحو أمي، لأن الاحتفالات الدينية تثير فيها انفعالات تهزها هزّاً. أنا أعلم أن انبهارها لا يتوجه إلى عظيم الكهنة في هذه السنة، متسربلاً بحلته الاحتفالية، فهو صبي من جيلها يدعى اريستوبول نُصّب في هذا المنصب، وهو في السابعة عشرة من عمره، وهو آخر سليل الحشمونيين، تخاله وكأنه صورة للجمال والروعة التي تمثل تجديد إسرائيل مسبقاً، إذ تراه يرتقي درجات المقدس، والوشاح على كتفيه، وصدريته المرصعة بالأحجار الكريمة تنسدل على ثوبه الطويل، مع لمعان تاجه المثلث الزوايا. [...]

وأمسكت أمي بيدي كما لو أرادت التأكيد على الوحدة التي تربطنا كلينا. وحلمت برباط قوي كهذا يضمني إلى الابن الذي سيولد مني. إنها اللحظة المركزية في ليتورجيا الهيكل، فقد قال موسى: "في أيام التكفير، تتطهرون، وستمحى خطاياكم أمام الأزلي". وعاذ عظيم الكهنة إلى الظهور، متهيئاً للتلفظ بالاسم المقدس الذي لا يمكن وصفه، مع أن الخليقة كلها تبجله: وانقطعت الأنفاس لتستمع إلى التلفظ بما يحق له وحده التلفظ به مرة في السنة. واستعداداً لذلك ذبح العجل، والكبش، وسبعة خرفان،

ثم رشّ بدم الخليقة الملوّث، هذا الدم الذي هو ملك الله، وإليه يعود ليطهره. وتوجه الكاهن نحو الرواق حيث ينتظره كبشان اختيرا بالقرعة، ليقدّم أحدهما ذبيحة تكفيرية، والآخر للبرية، حيث سيُحمَّل خطايانا بوضع اليد، ثم يلقى من أعلى الجبل، ليتلاشى ويلاشي معه جرائم إسرائيل. يا أيها الكبش المسكين، يا رسولاً بريئاً، ليتني لا أخطأ أبداً لئلا أساهم في موتك أبدا! وهبط قرص الشمس وراء المقدس، وارتجت السماء والأرض بطقس الدم الذي أرادته الجماهير وتابعته. وبعد نشوة الحجاج وشرودهم، خرجوا من رهبة القاضي الإلهي وغضبه ليبحثوا عن رأفة الآب السماوي. [...]

وهتف عظيم الكهنة وذراعاه مفتوحتان:

- كونوا أطهاراً.

هل أنا طاهرة بما يكفي؟ [...]

عندما عدنا إلى الغرفة، كنت محطمة حقاً، فبحت لميريام بشعوري العميق: إن القسم الدموي من هذه الضحايا يؤلمني جداً. وكنت قد فاتحت إليشباع بهذا الأمر في وقت سابق، مع بعض التردد، لأنها زوجة كاهن. وهذا ما أجابتني به:

- إني أفهمك. فأنا نفسي أقرفها أحياناً. ولكن ثقي، ليس كفراً أن نقول مع أنبيائنا بأن الطهارة لا تكتسب بالمال، ولا بموت ثور أو يمامة. استمعي إلى ما يقوله إرميا باسم الرب: "لم أطلب ذبائح من آبائكم يوم انتشلتكم من أرض مصر". وأشعيا يقول كذلك: "بماذا تعنيني كثرة ذبائحكم؟ لقد سئمت من كباشكم ومن شحم ثيرانكم!". إن الله يفضل الطاعة على الذبيحة.

ونهضت والدتي في اليوم التالي بصعوبة، لأن تمارين الغفران الفردية والجماعية، أنهكتها. وفي نهاية الأسبوع توسلت إليها أن تلازم الغرفة، لأننا، أنا وميريام، سنبقى معها بالتناوب، ونناولها الوصفة الخاصة بنبضات القلب والمكونة من الشعير الممزوج باللبن الخاثر. وفيما توقعت أن ترفض نصيحتي، تفاجأت بقولها:

- فعلاً، هذه الأتعاب لم تعد تلائم عمري.

عمرها؟ هل كانت تعرفه؟ إنها لم تبح لي به قط. فمنذ مدة غير يسيرة صار اللحم والروح عندها يعملان كل على حدة في حالة من التجرد الذي لربما سيعكس إرادة الله. وفي هذا الإطار شعرت كم تتوق إلى أن تراني متزوجة في أقرب وقت.

- اطمأني، فستسكنين معنا، وسيكون يوسف حامياً لنا.

واكتفت بالابتسامة لتتحاشى الإجابة.

وجاء خطيبي والتحق بنا حال الانتهاء من يوم التكفير، وقلّب مخططاتنا إذ اقترح علينا قضاء العيد التالي، عيد المظال، في بيت عنيا، خارج المدينة. هنا سترتاح والدتي من صخب الجموع الأورشليمية، وسنلتقي بأصحابٍ وبأهل. في الواقع كان قد أعدّ كل شيء واتخذ القرار.

كم أحببت هذا اللقاء البهيج والملائم تماماً بعد أسبوع الندامة والأدعية، وكم من مرة شرحوا لي جذوره، إذ كنت طفلة! فلقد كانت هذه الأكواخ المقامة على عجل، نموذجاً للتي أقامها أجدادنا تأهباً لموسم القطاف. كما إنها تمثل مرحلة الخيم السريعة العطب التي عرفها آباؤنا الآراميون الرّحل والمسافرون على الأرض، وتوقظ الحنين –والحنين سمة شعبنا– إلى أيام شبابه إذ كان في عنفوانه يتحاور مع الله. من جانب آخر ما أطيب هذه المناسبة، حيث ينشغل الرجال في بناء قرية الأغصان، بينما تتعامل النسوة مع المؤن وتعد الفطائر التي يتقاذفها الأطفال. إن الجميع يشعرون بالجوع بعد صوم التكفير، ويتهافتون على خبز الحنطة المعجون بالسمن، والفطائر المعطرة بالنعناع، والجراد المطعَّم بالعسل. أما النبيذ المقطر فيضاعف الشهية. وأمالت والدتي فمها إلى أذن جارتها:

– لقد ضغط عليّ يوسف قليلاً للمجيء، ولكنه كان محقاً في قراره إني مرتاحة جداً معكم.

وانتهزت فرصة انشغال الجارات في إعداد الوجبة التي ستجمعنا من جديد بعد قليل، لأنسحب عن الضجة. ورحت أتأكد من أن يوسف قد أتم بسط نشارة الخشب التي جلبها أحد النجارين من أصدقائه في الموقع الذي تنام فيه أمي في الخيمة. أما بالنسبة لي فقد بسط لي أوراقاً يابسة إلى جانبها. وانسحبت إلى ركن صغير منعزل لأكون وحدي كما كنت أفعل على السطح في الناصرة. وتصورت نفسي نعجة منعزلة عن القطيع، مع إحساس بعين الراعي الساهرة تحنو عليّ، فأسمع صوته.

وفيما ذهب أصدقاؤنا إلى المدينة، حاملين المشاعل في أيديهم، للاشتراك في الاحتفالات الليلية، عدت إلى أمي في عتمة مسكننا.

– قد لا يكون الجميع في الساحات. انظري إذا ما كان أهل الناصرة في الأكواخ المجاورة.

فرحت بوجودها خالية. ونظرت فرأيت دائرة من الضياء في الجو تشير إلى موقع الهيكل حيث الاحتفال بالعيد في أشده. وتباطأت في العودة إلى سرير والدتي.

لطالما فكرت في هذه الخلوة التي لم تدم، وقد تركت فيّ طعم الندم. فلقد انتظرتني أمي، وتأخرت عليها من دون إعطائها السبب، وكان احترامي لها عميقاً إلى حدّ لم أرد إزعاجها من جديد بأسرار جديدة أبوح بها! وأقنعت ذاتي بأن الرب سيطلعها على الحقيقة في الوقت المناسب من دون أن أجبر على إخطارها أنا. إن أثمن صفات الخالق هي كلامه، وهذا الكلام تنصت إليه أمي.

القسم الثاني

الفصل السادس

الذكريات..

هنا سألزم الصمت وأتوقف لدى الذكريات. فالذاكرة تشبه امرأة ذاهبة إلى جمع الحطب، تجمع منه ما يحلو لها. ومع ذلك بوسعي أن أقول بأني معك تكلمت يا يسوع، ولم أخف عنك شيئاً. لقد قلت يوماً ولم أنسَ كلامك أن أثر خدعة واحدة لن يمحى، حتى ولو بمئة كلمة صادقة. إن ما سجلته يشكل كتراً سرياً وصادقاً يخصك أنت كما يخصني. لقد أطلعتُك على الزمن الذي ترتكز عليه حياتك من تحت، كما ترتكز الشجرة على الأرض من فوق: والشجرة هي أهلنا، وأجدادنا، والأساس الذي عليه تقوم أسرتنا.

إن السنوات الأولى من طفولتي، هذه التي استذكرها بكثير من التقوى، هي حصيلة تاريخي، تاريخ صبّية تنتمي إلى عائلة متواضعة تخدم الله في الخوف، وتبتهج بالرعدة. لا شيء يميزنا ظاهرياً عما يمكن ملاحظته لدى أبناء عمومتنا أو أقربائنا. أجل، ولكن هذه الصبّية تترقب نجمة ميلادك منذ نعومة أظفارها، ومنذ أن انفتح لسانها للحديث، وعيناها للرؤية وهي تتهيأ لاستقبالك. إنك الكائن الذي تتقدم نحوه، أنت مشتهاها، أنت صلاتها، أنت معجزة براءتها وإيمانها. أصخ سمعك إليّ: قلبي يتكلم ويستذكر ما كان معداً لك. لقد ولدت ذات مساء ربيعي، وكان ذلك اليوم أجمل أيام حياتي. كنا أنا وأبوك نسير في الطريق نحو بيت لحم، والسفر على ظهر حمار هو شيء قاس جداً بالنسبة إلى امرأة في أواخر حملها. ولم أكن غريبة عن الآلام المتصلة بحالتي

تلك، ولا أختلف بشيء عن سائر الزوجات اللواتي يبتهجن بانتظار مولود، وأي مولود! لقد تزوجت يوسف حال سماح التقاليد بذلك بعد وفاة والدي، التي أعقبتها وفاة والدتي بفترة قصيرة بعد عودتنا من الحج. وهكذا ترك فقدان والديّ فراغاً في حياتي وجعلني أفقد توازني في الوقت الذي كنت في أمّس الحاجة إلى سندهما. وفيما صرت موضوع شفقة عامة، لاسيما لدى راعوث وراحيل، انتقلت من أسرة قليوفا ابن خالتي إلى أسرة أصدقائنا في قانا، حتى وصل الأمر لأن أحضى بحنان جارتنا التي لم تكن مرنة المراس دوماً فألبّي دعوتها. ولما حان الأوان جاء يوسف وأخذني للسكنى في بيته، فأقيمت لنا حفلة بسيطة وكنت موضوع إحاطة خاصة كما يقتضي لعروس يتيمة. وختم نهار الاحتفال بالطبول والشرب وأغاني الأعراس، هذا النهار الذي غاب في غمرة ذكرياتي بعبير حفلة الخطوبة التي كان والديّ قد أعدّاها، والتي أعلنت فيها ارتباطي أمامهما. فلقد انتشلني صلاح القدوس من زوايا عزلتي العائلية ليدفع بي نحو عريسي. وبقدر ما طفح قلبي عرفاناً للذين اختاروه لي، بقدر ذلك أزددت احتراماً له يوماً بعد يوم.

وما إن استقريت في وضعي الجديد كزوجة وأم حتى بلغنا الخبر السعيد من عين كارم. وكانت إليشباع، وهي أعزّ قريباتنا، تلحّ عليّ بزيارتها عندما أسرَّت إليّ بأنها اكتشفت نفسها حبلى بالرغم من عمرها المتقدم. وهكذا رأيت أن الله يغدق نعمه على عائلتنا بإثابته حرارة التقوى التي لم تغب عنها أبداً. إن البهجة والاعتزاز حالة معدية حقا. فلقد كان يوسف في تعقله الدائم يدعوني إلى الهدوء، ويتردد في السماح لي بالذهاب إلى عين كارم، ولكنه أذن لي بذلك أخيراً.

استقبلتني إليشباع، وارتميت بين ذراعيها. ولكن قبل أن أتفوه بكلمة، توجهت إليّ بقولها:

- يا مريم، أنت مباركة في النساء، ومباركٌ ثمرُ بطنك.

هذه كانت كلماتها في الترحيب، ولقد رددتُها عدة مرات مستغربة كيف كشفت النقاب عن سري، وهو بعد في مهده، وكيف عرفتْ بأني أنا أيضاً حامل...

فأجبت بالتحية ذاتها وأنا أنظر إلى ثوب إليشباع المرتفع، وهممت بلمس بطنها وأنا أخفض نظري نحو بطني. إن تبادل النعم والتحية بيننا كان بمثابة تأييد لكون الرب مصدر هذه الهدايا التي طالما رأيتها في أحلامي يوم كنت طفلة. لقد صنع بي الرب عظائم من خلال موجة السعادة التي انبثقت من شفتي والدي المدنف، وفيض الرؤى الذي غمرني بهذه المعجزة البشرية تماماً، والقادمة من ينابيع التكوين ككل مخلوق. لقد كانت هتافات هليلويا تنطلق من شفتي في سلسلة لا تنقطع.

ومكثت مدة أطول مما توقعت في عين كارم...

مدارج الكروم تتسلق الروابي وكأنها درجات سلّم عملاق، شمس ساطعة تجعل من أورشليم جبلاً من الثلج. إن بيئة اليهودية قاسية وتختلف تماماً عن أرض الجليل الضاحكة بورودها، ولكن السلام كان مخيماً على أعمال الله هنا وهناك. وكان الرجاء بالنسبة لي ولإليشباع يتمثل في الولدين اللذين سيخرجان من رحمينا.

لقد كنت أعلم بأننا سننجب ولدين. وكانت إليشباع أيضاً على يقين من ذلك بفضل حدث طرأ لزوجها زكريا وهو يحمل أثره في جسمه: فلقد فقد النطق منذ أن خرج من الهيكل متأخراً بعد انتهاء نوبته في تبخير الهيكل، وكانت النوبة تتم بالقرعة. وعلم الشعب في حسّه العفوي بأن زكريا قد رأى رؤيا إلهية، كما تحققت إليشباع من ذلك إذ رأت نفسها حبلى خلافاً لكل التوقعات. وخرج زكريا من صمته بعد ولادة يوحنا، وبذلك أعطى لنا مفتاح اللغز. غير أننا، لدى زيارتي إلى عين كارم، كنا لازلنا نتخبط في الافتراضات وفي تخيّل هيئة الرؤيا ومعنى الرسالة، وما كنا نتوقع شفاء زكريا بعد تلك الحادثة...

أما تنبيهات السماء والنعم المباشرة التي كانت من نصيب أنسبائنا، فليست استثناء في تاريخنا المقدس. فسمعة زكريا كانت ناصعة في البلد نظرا إلى نزاهته وتواضعه في ممارسة وظيفته، وكانت إليشباع معروفة ضمن أسرتها بحكمتها وخضوعها. ولدى حبلها كانوا يرددون خلسة اسم سارة زوجة إبراهيم، وحنة أم صموئيل اللتين شفيتا هما أيضاً من عقمهما لتنجبا ولدين قريبين من الله. وكانت إليشباع تشهد أمام الملا بأمانتها قائلةً:

- هذا ما صنعه الرب إذ نظر إليّ ورفع الخزي عني أمام الناس.

في الواقع كانت إليشباع تتردد في النزول إلى الشارع في ساعات الحركة، تحاشياً لفضول المارة، إذ كان حبلها المتأخر يغذي الأحاديث حتى جبال يهوذا وما بعدها. فلقد كان الناس، أكثر من أي وقت مضى، يرون في كل حدث خارق علامة لنهاية الأزمنة ومجيء مخلص. وأخذت محل إليشباع في كل أعمال المنزل الصغيرة وفي البستان، وكنت أقوم بذلك بفرح. وكنت أتجوّل في حقول الشعير، وأقطع حشائش العلف، وأجتاز الطرق الوعرة، خافية حبلي أنا نفسي على قدر استطاعتي، وكانت متانة صحتي تساعدني على القيام بكل هذه الأعمال. لقد تعلمت أن المرأة لا ينبغي أن تعلن أمرها قبل الشهر الرابع، فلا زال الوقت في صالحي إذن. أما الإنزعاجات الأولى للحمل

فقد صارت ورائي، وتخلصت من الخمول الذي يؤلم الأمهات الشابات أثناء الحمل بفضل بقائي عند خالتي. إني لم أتخلص من آلام الخمول حسب، بل كنت أرقص فرحاً حين يتسنى لي الذهاب إلى التبضع. لقد كنت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها.. أليس كذلك! أما في البيت فكنت جدية في عملي، واجتهد في أن أكون مرنة طائعة. فقد كنت إلى جانب خالتي، وأسأل عن صحتها ومزاجها وأحيطها بكل كلام طيب وأبعث فيها الطمأنينة بطيبة قلب، مع ما ينقصني من خبرة، لاسيما عندما يتعلق الأمر بقلقها لدى التفكير في شأن الولادة. إلى جانب ذلك كنت أقبل نصائحها وأقارن بين أحاسيسها وأحاسيسي. وفيما كنت أعرب لها عن عاطفتي، كنت انسحب منفردة كي أفكر في نفسي. فكنت أجسّ بطني التي لازالت مسطحة تحت نقابي، كلما انزويت لوحدي، وأسرح بأناملي متحسسة البرعم الذي يتغذى من ذاتي، رغبة مني في مراقبة تطوره. قريباً سيتمطى جلدي كقشرة ثمرة، وستكون نفس طفلي قد سبقت السكنى فيه، واستقت مني دمه ولحمه وعظامه، ليلاً ونهاراً، في أعماق رحمي. وكنت أحاول التأقلم مع هذا السر. أليس الفرح الذي يغمر المرء في أن يكون خالق من يحب هو فرح يحاكي فرح الله في خلقه! يا ابني، يا تكويني... سيأتي اليوم الذي سيخرج مني وأمسكه بيديّ لأنظر إليه بعينيّ، وتلتقي جفوني بجفونه، وأعجب بيديه، وأعدّ أصابعه، وألمس أذنيه الورديتين، وأتحقق من انه إنسان صغير حقاً [...].

وعدت إلى الناصرة، ومضت الأشهر التي تفصلني عن موعد الولادة بسرعة، حتى لم يبق منها في ذاكرتي سوى صور خفيفة، مع ان الرب صاغ لي مصيري فيها شيئاً فشيئاً كما يفعل الخزاف بالإناء الذي بين يديه. وكنت في تركيبتي النفسية لازلت طفلة تسبح في مزيج من اللاوعي الطفولي والثقة الراسخة في العلي. وكنت سعيدة أن يكون يوسف زوجي إلى جانبي كصخرة صامدة وكله انتباه إليّ، وكنا نبتكر سوية تقاليد حياتنا الجديدة. وبما أننا قررنا البقاء في منزل والديّ، بعد أن غادراه إلى الأبدية، فقد بقي جيراننا هم أنفسهم، وكنت أجد متعة هادئة في تنظيف البيت، كما أعتدت في السابق، ولكن بهمة أكبر، مع إجراء بعض التعديلات. أفما كان ينبغي أن يكون بيتنا أكثر جاذبية لاستقبال هذا الضيف الكريم الذي هو ابني البكر! وهمهمت مع نفسي: هنا سيفتح عينيه، بين هذه الجدران المكسوة بطلاء جديد سيكبر. وشدّ يوسف من متانة هيكل الدار، واستبدل الباب الخارجي القديم بباب جديد أقوى، حفاظاً على المنزل

العائلي من اعتداءات الخارج، ووضع الركائز لسرير جديد، وانتهى على عجل من إعداد مهد لطيف للقادم.

لقد أحببت هذا المنزل الذي يحدثني عن عالم ذكرياتي [...].

إليك سيعود هذا المنزل العائلي يوماً، يا ابني يسوع، لذا طالما حدثتك عنه بحب فيما بعد. الناصرة هي مدينتنا، يا ابني، وجذورنا تمتد فيها إلى أعماق الصخر. لازلت أسمعك تعلن:

- لا يكرم نبي في وطنه.

يا لصدق ما قلت! غير اني يومذاك كنت استرسل في أفكاري وأتخيلك عاملاً يدوياً، أو كاسباً، مثلاً، كلمتك مسموعة، ورجلاً محترماً، تعيش في هذا البيت كما عاش آخرون من أسرتنا ممن كانوا أثرياء بسمعتهم وفضيلتهم. فقد حكى لي والدي عن جده الذي كان متبحراً في التوراة ومتحلياً بكثير من العلم والعدالة بحيث كانوا يقصدونه من بعيد، بالرغم من كونه لا يملك أي منصب رسمي في المدينة. وكنت أفكر لو سكنت هذه المدينة واحتميت بجدراننا، لورثت ذلك الاعتبار، وأضفت إليه ما هو من جهدك وتألقك الشخصي. انك تعرف ما فيه الكفاية عن النفس البشرية لكي تفهمني.

ولكن انظر كم يسخر القدر من مشاريع البشر! فلقد تمنيت أن تبصر النور في ذكرى تجديد العبادة في الهيكل على يد يهوذا المكابي. إن هذه التواريخ تحمل معاني معبّرة، ولم يسعني أن أحلم بأفضل منها. ولكن الحلم لم يتحقق. كما اني أعددت لك بيت الناصرة، ولكن الوالي الروماني أمر بإجراء التعداد السكاني، فاضطر أبوك للتوجه إلى بيت لحم، موطن أهله. ولَذهَبَ وحده لولا إلحاح نسيبنا هيفار ودبورة اللذين يسكنان هناك بأن أرافقه، وقد عرضا علينا السكن عندهم ردحاً من الزمن. وكانت تلك فرصة ملائمة لتجديد العلاقة مع هذا الجزء الآخر من الأسرة بعد أن أبعدتنا المسافات عن بعضنا.

فقال لي أبوك بعفوية لا أثر للمكابرة فيها:

- إذا أتممنا كل المراسيم، فستلدين في مدينة داود.

مدينة داود! ترى كيف لا تعيد إليّ هذه الكلمات نصوص الكتاب المقدس، بل ثرثرة راعوث ورؤى والدتها! أجل، لم أقم بأية مقاربة يومذاك، وتأخذني الدهشة من ذلك اليوم. فلربما كنت مأخوذة بحركة الحمار الذي يهزني مضاعفاً آلامي، وسط الجموع المحتشدة وهتافاتها وتدافعها. الجموع!... لقد كانت قوافل الوافدين تأتي من كل

الاتجاهات وتتدافع من دون أي تحفظ، بل تتفرق في مقاطع الطرق، قادمة من كل صوب. ولقد اضطررت إلى تغيير دابتي أكثر من مرة. وفي سبيل تحاشي المرور بالسامرة، سرنا في محاذاة وادي الأردن، وتوقفنا للاستراحة نهارين وليلتين في أريحا التي أحببت بساتين النخيل فيها، كما أحببت أسواقها التي تنوء في أيلول والتشارين تحت ثقل فواكهها وعسلها وتمورها التي تسيل اللعاب. ثم صعدنا باتجاه أورشليم، وفضلنا المرور في أطرافها كي نتحاشى زحمة الجماهير. وكان حذاء أبيك قد تمزق في الطريق المبنية حديثاً، فانتعل قطعة قماش وتابع السير. ثم بانت بوابة الهيكل في ذلك الجو الربيعي العليل منحوتة في المرمر والذهب بيد ماهرة، بينما صعد الدخان الأسود، عند أقدامنا، من وادي هينور، منبعثاً من محرقة نفايات المدينة. وكانوا في الأزمنة القديمة يلقون الأطفال حديثي الولادة في هذا الوادي لتسكين غضب بعل...

وبدا لنا من الصعب الوصول إلى دار أنسبائنا قبل هبوط الليل، بالرغم من جهود أبيك في استحثاث خطانا، وذلك بسبب ازدحام المارة، والقطعان، والحجاج الذين أخّروا تقدمنا. وشعرت بضعف يجتاحني حتى خلت قواي أوهن من أن تسمح لي بالاستمرار. ولدى وصولنا إلى سفح التلّة التي تخترقها الكهوف، حيث يلتجيء الرعاة ويحتمي اللصوص أحياناً، قرر أبوك اختيار أحداها للاستراحة، وقد اختار أفضلها من حيث التهوية ويبوسة أديمها. وهنا، في غمرة تعبي وخوفي واعتزازي شعرت بأول آلام المخاض.

كم مرة حكيت لك قصة ميلادك! لقد كنت تشعر بالارتياح لدى معرفتك انك ولدت في الصخر، وتحت وشاح ملوكي نسجته أنوار نجمة تشع قوة ونوراً. ولم تشمئز من كون عشّك مبنياً من حفنة تبن كعش العصافير. وكان القنديل يرسم أشكالاً متأرجحة في سقف الكهف. وهرع أبوك إلى الرعيان والسابلة ليأتوني بإناء ماء، وبأغطية وأغصان لإضرام النار. وفكر أن لابد من وجود جدّة حاذقة في المنطقة، فاستقدمها. وكنت أسمع ثغاء الغنم في المغارة المجاورة جواباً لنداء الكبش، فقلت لأبيك:

- اسمع، سنحصل على الحليب [...].

وأبصرتَ النور أخيراً. فأمسكتُ بين ذراعي قطعة لحمي المجروح تصرخ ألماً بسبب الجرح ذاته. وأحاطت مضجعي النسوة اللواتي هرعن مع الجدة وهن يعربن عن دهشتهن بشكل كاد يزعجني، وأضرم أبوك النار. ودموعي إذ ذاك.. هل كانت بسبب الدخان الراكد، أم بسبب الأسى لغياب والديّ عن مشاهدة لحظة ميلادك ولطالما

ترقبوها؟! كلا. لقد كان ذلك بسبب ثقل عنقك الطفولي الذي احتمى في قعر ذراعي، ونطفة اللعاب التي تجمعت في زاوية شفتيك هي التي بلّت عينيّ من التأثر.

يسوع! إني أردد اسمك ولا أمّل! ها إنك ترضع من ثديي وتشبع. إنك خليقة من فعل الأزلي الذي استخدمني على مدى أربع مرات سبعين يوماً. ها إنك تحتل موقعك في شعب الكتاب. إني أسمعهم يقولون لي بأن عينيك تشبهان عينيّ، وأنفك وفمك مثل أنفي وفمي. إذا كان ذلك صحيحاً، فالرب ينعم عليّ بوجه إضافي، بفم مثل فمي سينطق بما لا أستطيع النطق به؛ بعينين مثل عينيّ، ستريان ما لا أستطيع رؤيته، لأنك ستتجاوزني وتذهب أبعد مني، يا ولدي! أنا أعلم اننا سنفترق، فلتَتباطأ السنوات في سيرها حتى ذلك اليوم! أما الآن فأنت لي!

لقد كنتَ لي يومذاك.

ونعستْ النسوة ونام الرعيان، واخترق ضياء الليل وبرودته زوايا المغارة. لم يطاوعني النوم في تلك الليلة، ولا أباك الذي رأيته متكوّراً ومتكئاً على الصخرة.. وأخذك على ركبتيه تعبيراً عن امتنانه. لابد انه كان يفكر بما أفكر به، وإن على طريقته الخاصة. ونظر إليك هامساً:

- يسوع.. يسوع!

وخفت عليك من كل شيء، عندما لا تكون بين ذراعي، يا بكري.

ولما جاء يوم الأيام لدخولك الرسمي في الجماعة، كنا في بيت لحم ضيوفاً عند أنسبائنا، هيفار ودبورة، اللذين ما إن سمعا بظروف الولادة ومكانها حتى هرعا إلينا بما يعوّض عن عوزنا في هذا المخيم المقفر، من ثياب ومهد للطفل الذي كان مضجعاً في مذود، وخشب للتدفئة، وإناء للنظافة، وجرة للماء. وفي اليوم المحدد أرسلا لنا عربة تتحرك على أربع عجلات، وتهيأنا للانطلاق منذ الصباح، وكنت قد قمطتُك بقماط ناعم جلبوه لنا، ولففتُك بعباءة راعٍ، وحرصت ألا توخز الشعيرات الخشنة جسمك البض...

وشعرت بالحرج الذي سنسببه لمضيفينا، لا لخشونة طباعي، بل لوجوب تمسكي بالتقاليد التي ما كان لأبيك أن يتجاوزها أبداً: أعني بها التمسك بإتباع مهلة الثمانية أيام بعد الولادة لوسمك بسمة العهد، بينما أبقى أنا في الدار لا ألمس أي شيء

مكرس قبل تطهيري. ولكن تعذر البقاء مدة أطول في تلك المغارة مع طفل رضيع بعد ولادته، جعل أباك، بعد استشارة هيفار ودبورة، أن يقرر انتقالي إلى بيتهم.

وكان قلقي ممزوجاً بامتناني تجاه مضيفينا أكبر بسبب إتباعهم القواعد الفريسية بصرامتها. فلقد كانت الطهارة الطقسية تكتسب قيمة مطلقة لديهم، وكانوا يرددون صلوات التبريكات بصورة احتفالية في أوقاتها منذ الفجر. وكان جرس من النحاس المخضوضر، شبيه بالجرس الذي يوضع في عنق الإبل، ولكن بحجم أكبر بكثير، يعلن مواقيت الصلاة أو العمل، وكانت بركة ماء الغسول في وسط الفناء.. وهكذا كانت الأصولية الدينية عندهم تنسجم مع الحاجات البيتية بصورة دقيقة. ترى ماذا كان تعليق صموئيل، وهو فريسي أيضاً، على هذا التشدد المريح الذي تمارسه هذه العائلة؟

من جانب آخر كان أنسباؤنا هؤلاء يبدون أثرياء جداً بالنسبة إلينا، وإن لم يظهروا بمظهر التخمة الصارخة. فلقد كانوا يضيفون إلى تجارة الحبوب تجارة أخرى أقل ربحاً وهي بيع كتب الأسفار بأسعار زهيدة للحجاج كتذكارات عن زيارتهم. وكانت دارهم ذات طابقين من الحجر وكانت واسعة، يحيط بها بستان مسيّج، زرعت فيه أشجار السرو والطلح. وكانت تعلو الباب الخارجي رسوم شبيهة بتلك التي تزين بيوت النبلاء في أورشليم. لابّد إنك تتذكرها وقد لاحظتها. ووضعوا قاعة من قاعات الطابق العلوي تحت تصرفنا، تنفتح على السطح باتجاه المغيب. وقال لي أبوك بأن الأثاث والخزانات والكراسي هي من اليونان ومصر، ولاحظت مقاييس السرير، فخلته يكفي في اتساعه لإيواء أسرة بكاملها، ولكنه بقي من حصة أبيك وحده، إذ لم نكن لنتقاسمه قبل انتهاء فترة نهوضي. لذا كنت أنام على فراش سميك على الأرض، بجانب مهد معدّ لك إلى يميني.

كان الخروج متعذراً عليّ، ومع ذلك تحققت كم تختلف العادات بين أهل يهوذا وبيننا. فشعبنا الذي تضمه كف الرب هو مختلف، وكل عشيرة من عشائره لها أوضاعها الخاصة، وطموحاتها، وأطماعها وعاداتها.

في الواقع كان سكان بيت لحم يعيشون على حركة الهيكل، ويحرصون على أن يبقوا أسياد أنشطتهم وموارادهم وحتى طبائعهم. أما في ما خلا ذلك فكانت أعينهم مصوبة نحو البلاط ليسمعوا ما يبلغ إليهم من إشاعات، وتكون الإشاعات دوماً مأساوية. وكانت الأقاويل تتردد في تلك الأيام ان هيرودس يزداد جنوناً وشراسة يوماً بعد يوم. وكان انتيباتر ولي العهد المزعوم وصاحب مؤامرة السموم قد غادر روما. وما

إن وصل إلى أورشليم حتى أقام والده محكمة اتهمته بجريمة التخطيط لاغتيال أبيه، وربطه بالأغلال. ووصل النبأ إلى القيصر، فصدرت الأوامر بمنع الاقتراب من جوانب القصر، وتعرض كل من يقترب منه لطائلة الموت عقاباً له.

- ماذا تنتظرون من أب يقتل أولاده؟!

هذا ما كان يردده أبناء عمومتنا [...].

عندما بلغ إبراهيم التسعين من عمره ظهر له القدوس وقال له: "أنا إلشـــدّاي، الإله القدير. سر أمامي وكن كاملاً. وأنا أقيم عهداً أبدياً بيني وبينك، مـــن جيـــل إلى جيل، فأكون لك إلهاً، ولنسلك من بعدك. سيكون عهدي سمـــة في جســـمك، سمـــة دم...".

يا يسوع، لقد ختنت، وأعطيت اسماً، وبذلك دخلت في العهد بحضور أعضاء الأسرة كلهم، وحضور خدم البيت أيضاً. لقد جفّ الجرح بفضل غبار الكمون ورماد خشب الصندل، ولُفَّ بحرير ناعم، وشُدَّ بخيط لمّاع، بحسب ما تتطلبه الطقوس. رفعتك إلى أعلى، وانتصبت تحدّق فيّ ولا تبكي. أما أنا فنظرت إلى تلك النقط من الدم، وكأنها تكرسك للرب. ولم تكن قد افتُديت بعد بحسب شريعة موسى: "كل فاتح رحم هو لي، يقول الأزلي، فتفتدي بكر الحمارة بحَمَل، وكذلك تفعل مع أول أبنائك". لقد كان عليّ دفع مثاقل من الفضة ويمامتين أو حملاً كي تعود لي، وكنتُ على استعداد لأدفع أكثـــر! ولكن هل كان لي الحق أن أستعيدك؟ لا أظن. لقد كنت فاقدة الصبر، ولم استطع إخفاء مشاعري: يعرف الأب أن يقرأ في قلب أبنائه.. وانتظرت ثلاثة وثلاثين يوماً للـــتطهير، حتى يتاح لنا، أنت وأنا، أن نتقدم سوية من جديد أمام الكاهن.

لقد كنا نساء كثيرات آتيات من كل الطبقات الاجتماعيـــة، ومـــن مختلـــف الألوان، وتجمّعنا في الرواق أمام باب نيكانور، صامتات.. يا للغرابة! وننتظـــر دورنـــا بانتظام. ترى من هو اليهودي الذي لا تتملكه الرهبة عندما يرتقي الدرجات التي تقربه من أعتاب الأزلي؟ وجاء دوري فقدمت زوجَي يمام: اليمامة الأولى لذبيحـــة المحرقـــة، والثانية عن ذبيحة الخطيئة، فقبض عليهما الكاهن، وتملكتني السعادة. لم أفتدك في ذلك اليوم يا يسوعي، بل تقاسمتك مع الرب.

ولدى عودتنا إلى المنزل لاستراحة قصيرة رأينا أنســـباءنا هيفـــار ودبـــورة في انتظارنا، ويا لفيض سعادتي حين رأيت إليشباع في انتظاري أيضاً! وكان طفلها يوحنـــا

قد كبر، وتخلص زكريا من عَوَقه. أظن أن سعادتنا كانت معدية، بحيث مالت خادمة المترل نحو ولدينا وداعبتهما، ثم دَسَّت آيتين من التوراة ملفوفتين في تعويذتين، الأولى في عنق يوحنا، والثانية في قماطك، وأضافت:

- لحمايتهما من العين الحاسدة... كم هما جميلان!

كان اليوم التالي سبتاً، وما كنا لنخالف القاعدة التي تحظر التنقلات الطويلة في هذا اليوم. وهكذا توجهنا إلى بيت لحم، دون تأخير، وقبلت إليشباع دعوة دبورة لترافقنا مع طفلها. وبينما بقي زكريا في أورشليم بحكم وظيفته، كان هيفار وأبوك يسبقاننا في الطريق. لازالت صورة تلك الرحلة شاخصة أمامي وكأنها اليوم. لقد كان الوقت متأخراً، وقد مالت الشمس هابطة نحو مخدعها على جبل صهيون، وكان البحر يمتد وراء الجبل.. هذا البحر الكبير الذي تغنى المزمر باتساعه. هنا في هذا البحر تتيه المراكب، وتتحرك الحيوانات التي لا تحصى، هنا يمرق لفياتانْ، هذا التنين الأسطوري، ويسخر من الأمواج.. وضَمَمتك بقوة على صدري وأنا جالسة على ظهر دابتي المتعبة. أما أنت فكنت نائماً آمناً، وأنا أنظر إليك في ضعفك واستسلامك بين ذراعيّ.

- إن شاء الله.. لا يُصبه الأذى، ويشرب بيسر، ويبلع جيداً، ويهضم جيداً! هل تراني سأنجح في جعله رجلاً كاملاً؟!

لقد استعدت أحداث ذلك النهار الخطير، فلقد قال سمعان الشيخ أقوالاً مربكة وهو يرفعك على مستوى عينيه:

- لقد رأت عيناي خلاص إسرائيل!

وقال أيضاً:

- سيكون هذا الطفل سبب معاكسات.

أما أنا فقلت:

- سيجوز سيف في نفسي!

أنّى لنا إبعاد النبؤات التي تقلق أمانك؟ لقد حاولت تجاهلها، ولكن النساء خُلِقْنَ للألم!

وهكذا كنت أكافح ضد التعب وضد شياطين طريق العودة.

أما أروقة الهيكل وراءنا فكانت لا تزال تعج بالناس، وفيما أدرنا ظهورنا للهيكل، كان الناس لا يزالون يذبحون الذبائح. ولما وصلنا إلى تقاطع الأكمة المشرفة

على الوادي أبصرنا قافلة من الجمال قد خرجت عن الطريق ببطء وتؤدة. فتذكرت كيف كانوا يحذرونني من القوافل في السابق:

- كوني حذرة! إنهم يسرقون الفتيات الصغيرات ويأخذوهن عبدات!

يا لسعدنا! ففي الناصرة لم نكن لنشاهد القوافل إلا من بعيد، أما هنا فكانت القافلة قريبة وباستطاعتي تفحصها. كانت الحيوانات مزينة بأقمشة ملونة وافرة التطريز، وقد تضخمت أحجامها بالبضاعة التي تحملها من أكياس وصناديق زينة ووسادات مطرزة بخيطان فضية تتدلى منها شرائط من الصوف المبروم كالجدائل. وكان الغبار يختلط بزبد أفواهها ويقّع جلودها، إشارة إلى طول المسيرة، واستفسر هيفار عن أمرهم فطمأننا على أن تلك القافلة كانت تمثل حاشية أمراء عرب تحمل بضائعهم، وتضمّ حاشية ملك نبطية الذي جاء تلبية لدعوة هيرودس كي يشرح له معنى الأحداث الغريبة التي لوحظت في السماء في تلك الأيام. وكانوا قادمين من كلّديا وأرمينيا وبختريان وقيدار وطيمة: علماء فلك شهيرون وحكماء وعرّافون. ولقد تأكدت هذه المعلومات من أفواه جميع المسافرين الذين اعتراهم الذهول مثلنا.

كان جدك يعرف سير النجوم ويسميها بأسمائها، ولكنه لم يبحث فيها عن معنى للمستقبل، ولا مزج بين خوف الله ورغبة التهرب منه. إني لا أقاوم رغبة امتداح فضيلته، فلقد كان جمال الفلك يسحره، ويعتبره مسكن العلي:

- أنظري يا مريم، كيف تضيء الكواكب القبةَ الزرقاء بلمعانها! هكذا تضيء أفعالنا الصالحة نفوسَنا.

أما هيرودس.. هيرودس الطاغية الذي يجلس على عرش جرائمه، لم يفكر وهو على عتبة موته سوى بتمزيق ستار اللغز الواضح حول مصيره. فلقد كان يطمح إلى السيطرة على الزمن، وليس على مساحات مملكته حسب. لم يكن مصيره يعنيني. أما أنت يا ولدي.. إذا كانت السماء معبأة بالألغاز الكاشفة، فماذا، ترى، تخبيء لك؟ هل الآتيات إيجابية أم مأساوية؟. وما إن اطّمأنّنْتُ حول مجيء المجوس وحاشيتهم، حتى أهتز حبي من جديد، وكان يوسف يمزح معي قائلاً:

- أنت أم يهودية حقاً!

أجل، نحن شعب في حالة انتظار. وليس أكثر قلقاً من الانتظار!

الفصل السابع

تخوّفاتي

لم تكن تخوفاتي باطلة، إذ انتشرت الأشاعات بين المسافرين في صفوف أدلاء القافلة، وخيمت على بيت لحم كطائر الشؤم. وكان عملاق يجوب الساحة في ساعة الظهيرة متباهياً بعلاقاته مع أروقة البلاط الداخلية، ينثر الأخبار من جعبته عن هيرودس. هيرودس دائماً.. مع كوابيسه!

وسرت موجة من القمع في المدينة وفي الريف منذ أن افترست النيران أجساد الفريسيين الشباب الذين تجرأوا وحطموا النسر الذهبي. وكان الفلاحون المتحفظون دوماً بكلامهم يجترون بؤسهم وهم يُشبعون حميرهم وخزاً، وأهمل مربو الأغنام خض اللبن واستخراج الجبنة. وانتشرت الإشاعات عن أن الكهوف التي لجأنا إليها قد امتلأت فجأة بالهاربين من وجه شرطة هيرودس، متّهمين بالخروج عن القانون، وقد كانوا في الحقيقة مواطنين أمناء تلاحقهم الشرطة. وتخيّلنا أنا ويوسف بأن الوضع أسوأ في الجليل، لأن أنصار حزقيا كانوا منذ زمن طويل يعدّون العدّة لانتفاضة عامة، وقد لجأوا إلى الجبال مدججين بالسلاح، يدعمهم سكان السهل، وهم يقومون بعمليات سطو على القرى لفرض هيبتهم. ولم يكن هيفار يجاري والدي في الدفاع عنهم، سيما وأنه كان، هو نفسه، هدفاً مستساغاً لهم بوصفه من الوجهاء، وكان ذا دخل واسع.

– إن هؤلاء الفاشلين لا يتهجمون على الرومان فقط، بل يعادون اليهود المعتدلين الجيدين أيضاً: فما يقوله لسانهم يشجب أذرعهم. إنهم يتكلمون عن إعادة

الشريعة إلى صفائها السابق، ولكنهم يتآمرون حتى في أروقة الهيكل ويعدّون انتفاضات كافرة. لقد كانت هذه المناقشات تحتدّ عادة على المائدة، ولكني أسرع فأقول بأنها كانت معتدلة.. ففي نهاية المطاف كلنا مرتبطون بأواصر القرابة. أما أنت، يا يسوع، فقد كان النعاس يأخذك بعد الرضاعة. وكنا، بعد فراغ دبورة من نظافة الأطفال، ندخل إلى غرفة الجلوس بهدوء لئلا نقطع أحاديث أزواجنا. ولكن هيفار قال متعالياً:

- لا زلت أفضل تجاهل الطبقة العليا من الاكليروس في لا مبالاتها.

فأجاب يوسف:

- كن عادلاً في حكمك يا هيفار، فالصدوقيون لا يبغون سوى التواطؤ مع الوثنيين لحماية أبناء طبقتهم، بينما يُعرّض هؤلاء الفتيان حياتهم من أجل إيماننا، مهما بلغت مغالاتهم.

فهمست دبورة في أذني:

- إنهم يذكرونني بملائكة الرؤيا الأخيرية.

لقد كانت دبورة تتقد حماساً وحيوية في تلك الأيام، وكانت تقلقني ولا أرتاح لأقوالها دائماً. وكنت ابدي لها الاحترام لكونها أكبر مني سناً، من جهة، ومن جهة أخرى لكوني ضيفة عليها، وخاصة لاتساع ثقافتها أكثر مني. فقلّما توجد نساء بهذه المعلومات الواسعة يحسنّ استخدامها في محلها. فلقد تلقت تربيتها في مصر وكانت تتكلم اليونانية بطلاقة، سواء كانت يونانية التوراة بحسب ترجمة السبعين عالماً، أم لهجة التجار والحجاج الدارجة. واليوم و يبدو لي اليوم، وأنا استذكر اهتمامها ولطفها معي، أنها كانت تستذوق إثارة إعجابي بها، كما يحلو لبعض النساء الناضجات أن يفعلن أمام الأصغر منهن سناً. ولا زلت أستعيد في ذهني بوضوح تلك الخصل البيضاء التي تطرز جدائلها السوداء، كما أتذكر خطوط فمها وعنقها الطويل المتعالي. وذلك بالرغم من قلة اهتمامي عادة بالأوجه، إما لأني اعتدت عليها، وإما لأنها جديدة وغريبة عني، فلا أأبه بها. لقد حاولت حيناً أن أقلّد أسلوبها. ففي أثناء النهار كانت تغطي رأسها بطرحة تبرز عينيها، وفي المساء تخلع زينتها وتتحلى بالعفوية لتهتم بأطفالها. فتستنبط قصص خيالية لإلهائهم، وتتسابق مع الصغار في حكاياهم المبتورة، حتى توزع ضربات كفها على أقفيتهم، أو تداعبهم بحسب مزاج كل منهم، أو بحسب مزاجها هي. وكان أحد الخدام يغذي النار بأغصان معطرة برائحة العنب. أجل، لقد كان هذا العش لذيذاً [...].

لم تكن دبورة أقل مني استذواقاً للذكريات، لاسيما إذا تعلق الأمر بذكرياتها في مصر التي كانت تسميها وطنها. وكانت تترنم بخصوبة الأرض التي أعزت آباءنا بعد

يعقوب، وبعذوبة ضفاف النهر الكبير الذي هو كالبحر المترامي الأطراف مقارنة بنهر الأردن أو بمستنقعات بيت لحم.

فلقد كانت تقول:

- ان الله الذي يملك أقاصي الأرض قد غمرها بأفضاله.

وتستخلص قائلة:

- إذا ساءت الأمور في مملكة هيرودس، فسنغادر، وتأتون أنتم أيضاً معنا.

فكنت أعاكسها بهذه الملاحظة التي كنت أرددها على والدتي نفسها:

- لماذا يا ترى ننظر إلى مصر التي استُعبدنا فيها، كالفردوس المفقود؟

وكنت أذكر منفى آخر، ألا وهو بابل، حيث أقامت راحيل منذ زواجها، وما ذلك سوى للتأكيد على عدم تبعيتي التامة لأسرة زوجي. وكانت دبورة تضاعف ثناءها لجمال الإسكندرية، مضيفة أن الجالية اليهودية فيها ثرية، وان في صفوفها علماء عديدون، منهم مثلاً رجل اسمه فيلون مشهور في كل العالم، بالرغم من معاكسة البعض له. ولقد زين الإسكندر، هذا الفاتح الشاب المتحمس، المدينة بأبنية صارت مفخرة لها. وقد بنى هيكلاً في ليونتوبوليس نفسها. وكانت تقول دبورة بأن هذا الهيكل هو أصغر من هيكل أورشليم، وإنه محظور على المؤمنين المستقيمين. فقلت في نفسي بأن أولئك اليهود يشبهون السامريين اليوم، فأهل ليونتوبوليس مثل السامريين اليوم: يقدمون الذبائح في ليونتوبوليس، كما يقدم الآخرون ذبائحهم على جبل جَرزيم. ولكني كنت أستبعد جداً فكرة اعتبار هيكل الأزلي خارجاً عن هيكل أورشليم. ترى ما هذا البلد الذي يعيش فيه محرومونا سعداء، ويتبجحون بأسمائهم اليونانية، ويقرأون التوراة بلغة الكفار في مصاحف الغرباء. لقد أقلقني ذلك حتى صاروا يقولون، في حلقة معارفنا الصغيرة، بأني لا أنظر إلى الناس إلا انطلاقاً من نموذج سكان المدينة المقدسة. وكانوا يمزحون معي بقولهم:

- ما رأيك يا مريم؟ أيهما أفضل أورشليم أم أدون؟

وبفضل أحاديث دبورة وبراهينها المقنعة، أخذت مملكة الفراعنة تبسط تأثيرها على ذهني. وكانت نسيبتي تعود دون ملل إلى فكرة اللجوء إلى مصر قبل أن تطبق علينا المصائب.

[...] أما يوسف لم يعط للموضوع أهمية، وحاول إشراكي في تحفظه عندما انفردنا لوحدنا في غرفتنا، فناقشنا سوية إيجابيات وسلبيات سفر مفاجئ. وكان انتظار ما تفرضه الأحداث وعدم الاستعجال في القرار هو الموقف الذي رسونا عليه. لاشك ان

الهروب إلى مصر سيكون قراراً حكيماً إذا ما دفع الجنون هيرودس إلى مزيد من النار والدماء. وبين كل الخيارات رأينا اننا في مأمن عند أبناء عمومتنا أكثر من أي مكان آخر بالتأكيد. ولكن المآسي التي تهددنا لم تكن قد سقطت بعد على رؤوسنا. ففكرنا هل من الفطنة أن نعرّض رضيعاً إلى محنة أكبر أو أقسى من التي تعرض لها في طريق بيت لحم وهو بعد في بطني؟ لم يكن هذا رأي دبورة! فهنا، بسعنا سماع ما يحدث في الناصرة، أما إذا توجهنا إلى النيل، فسنبتعد عن باب رزقنا: أي دكان النجارة الجديد، والزبائن، وبستان الزيتون الصغير، والكرم. لاشك اننا أوكلنا حماية مصالحنا إلى مردخاي الذي اكتتب قبلنا، وقد استجاب إلى ثقتنا تماماً. ولكنه سيستغرب لو انقطعنا عن تزويده بأخبارنا كما تعودنا حتى الآن. أليس ان الأملاك المتروكة إبان الجلاء لم تبق من دون أسياد؟ أليس ان إعادة توزيعها على ملاكين جدد، لم تمسح الغصة التي بقيت في قلوب من أُخذت منهم، خمسمئة سنة بعد ذلك التاريخ؟!

وكان أول قرار رشح من مناقشاتنا هو تمديد إقامتنا في بيت لحم. هل كنت واهمة إذ لم أشعر بأية رغبة من أنسبائنا للتخلي عنا؟ بل بالأحرى كنت أحسّ بأنهم ممتنون منا لإضفاء الحرارة على هذه الصداقة الجديدة القائمة بيننا. لقد كانت دبورة بحاجة إلى رفقة، وكنت أنا أوفّرها لها، كما وجد هيفار في شخص يوسف معاوناً له، بل شريكاً تقريباً. فلقد عملا سوية في توسيع المخزن الذي تكدست البضاعة فيه تكديساً، وهي المورد الأساس للأسرة.

وفي الوقت الذي شعرنا فيه بالأمان، كانت الأجواء تتلبد بالغيوم. لقد كنتَ صغيراً جداً يا يسوع، وكم كنت بحاجة إلى الحماية! لم يكن يرفض لك أحد شيئاً، وكان صوتك كتغريد العصافير يملأ أركان البيت. كنت أراقب حركاتك، وألاحظ يقظة فهمك، وسرعة تقبلك. لقد كنت تعبّر عن أفكارك على طريقتك الخاصة، وكنت تمرق من بين ذراعي لتخاطر في خطواتك الأولى. عندما كنت تسقط قاعداً على الأرض، كنت تسخر من قلّة مهارتك بأسلوبك الخاص الجريء، وكان الجميع يتعجبون منك.

وهكذا انقضت بضعة أسابيع أنى لي أن أنساها! حتى جاء اليوم المشؤوم الذي وضع حداً لترددنا فجأة. لقد صار الجميع يعلمون ان مرض الملك انتشر في الجسم كله، وأخذ يشعر بآلام مبرحة تتآكل كل مساحة جلده، وبأوجاع قاسية في معدته. وانتفخت

رجلاه، واكتسحت الديدان المنطقة السفلى من بطنه، و لم يعد يستطيع التنفس إلا منتصباً. وكان يشعر باقتراب الموت، ولكنه كان يتعلق بالحياة بعنف، ويتحدى الموت بأقواله. ونقل إلينا عمّ وكيل هيفار، وهو موظف في البلاط، بأن الملك في قمة هيجانه أمر بمشروع لا يصدق: فإذ شعر بدنو أجله، وعلم بأن اليهود سيحتفلون بموته بفرح عارم، قرر ذبح عدد من الوجهاء في لحظة نَفَسه الأخير كي يرغم البلد كله والعوائل جميعاً أن تضطر للبكاء لموته. وبما أن المنجمين القادمين من الشرق أكدوا أن المسيح، ملك اليهود المزمع، قد ولد منذ مدة قصيرة في بيت لحم، فقد أراد أن يقتل الأطفال الذين ولدوا منذ سنتين.

وعندما تأكدت هذه الأخبار، هرع هيفار وزوجي لعقد مجلس مشورة، وكان يوسف قد رأى حلماً في الهجعة الرابعة من تلك الليلة فأيقظه، و لم تطل جلسة رئيسي الأسرتين كثيراً. فقال هيفار:

– أنا أقرر البقاء هنا لحماية المنزل، و حماية أملاكنا وخدمنا، وإذا ما لاحقني عملاء هيرودس، فأعرف أين ألجأ. ولكن علينا التفكير بالأطفال. أنت يا يوسف خذهم إلى مصر مع مريم ودبورة، وسأعطيك ما يلزم: سيرافقك رجال الحماية، وتأخذ معك حيوانات للركوب، ومؤونة ومتاعاً للسفر. أسرع وأعد لوازم السفر، فالوقت ضيّق.

لا أجسر على ذكر تلك الليلة الكئيبة في سماء بيت لحم! لم ننم تلك الليلة. فبعد اتخاذ قرار السفر، كان علينا التحسب لكل شيء، ونحن لا خبرة لنا. وحذّرنا الخدام من الحر والبرد والجوع والعطش واللصوص، علماً بأن بسطاء الناس يميلون دوماً إلى المبالغة في التحذيرات. فقد أوصونا بتحاشي الضحة لئلا نوقظ الجيران أو نلفت نظر الشرطة المتحفزين دوماً للتدخل. لقد كانت ظلال قاتمة قد خيمت حقاً على البيت. وتساءلنا لماذا، يا ترى، تصر هذه الريح المقيتة التي يدعونها "القديمة" أن تعاكس الناس، ولا تكتفي بمعاكسة السماء؟ فلقد هبت العاصفة الرملية القادمة من الريف وهجمت على المدينة، فكان سفرنا في عزّ الاختناق، ورافقنا هيفار حتى بيت وكيله في آخر الأسوار. وكانت القافلة في انتظارنا في قعر واد واسع لتأخذنا في الطريق الساحلية نحو مصر البعيدة. ورفع هيفار سراجه إلى أعلى ليتحقق من الأحمال وتوازنها وقوة شدّها، ثم تفحّص حيوانات الركوب، وأحزمة البطون بكفه، ثم مرّ بأصابعه تحت الرسن وتوجه بتعليماته إلى الخدام ليوصيهم بأغلى ما عنده، بنيه وعائلته. ثم قال ليوسف قبل أن تغلبنا انفعالات الوداع:

– أنت الآن السيد الآمر يا يوسف. ليرافقك الرب ويلهمك! فأجهشت دبورة بالبكاء.

وشعرت في تلك اللحظة اني أملك زوجي أكثر من أي وقت مضى، بل بـأني مندمجة في أسرته كما لم أشعر من قبل. لقد كانت مصائرنا مرتبطة، ونحن نتقاسم الحياة والجهود، ونسير الواحد في خطى الآخر، وقد أحالنا الهروب آراميين رحلاً كأبينا إبراهيم. وكنا أنا ودبورة لا نفكر سوى بحماية طفلينا، وكنا نحنو عليهما بحركات تمليها غريزة الأنثى. أما يوسف فلقد أظهر بأنه سيد ورئيس حقاً؛ قاسٍ تجاه نفسه وحنون تجاه الآخرين وعادل تجاه الجميع، يوزع الغذاء والشراب، يأخذ قرار التوقف وينظم المخيم، أول المستيقظين وآخر من ينام: موسى يجتاز الصحراء.

وعندما اقتربنا من بيت لحم قليلاً، استغنى يوسف عن رجال الحماية واضطلع بمسؤوليات القيادة وحده. فاجتزنا منطقة غنية بحقول الشعير والبرسيم وتربية المواشي وبتقديم المؤن للجيوش والقوافل. وشرح لي يوسف ان في هذه البقعة التقت، عبر التاريخ، جيوش الفاتحين من مصر في صعودهم أرض كنعان، مع جيوش الآشوريين والفرس والسلوقيين في نزولهم نحو المغيب. واتخذت مجموعة الدروب تلك اسم "طرق هوروس" نسبة إلى الفراعنة وقد سلك اليهود هذه الطرق في كل الحقبات التاريخية، سواء بدافع الخوف، أم بدافع التجارة. [...] وتوقفنا لاستراحة السبت على الساحل حيث أقمنا مخيمنا وراء برج قد غزاه الذباب [...] وفيما أسرع أولاد دبورة للعب في رمال الساحل، دلفت أنت يا يسوع إلى الماء، فطوقتك موجة رقيقة، فهرعت إليك مذعورة. وعصرتُ ثيابك بقوة لتنشيفها، ثم طوقتك بالحزام الذي صنعته من الخيطان، وأنا فخورة باختراعي لكي أمسكك إذا ما عثرت. ولكنك كنت تسحبني في الاتجاه المعاكس، كالخروف العنيد.

وفي اليوم التالي نزلنا إلى المدينة التي كانت نظيفة وحسنة التخطيط، وكان المرفأ يعج بالحركة حيث يكثر النبطيون وتزدهر أعمالهم. وكان هيفار قد احتاط لنا وزودنا بكيس مليء بالقطع النقدية المضروبة بصورة إلههم، لعلمه ان هذه العملة مستعملة في تلك المنطقة. وحسب أبوك نفسه غنياً فأهدى لي ولدبورة قنينة من العطور التي يبيعها هؤلاء الناس. وكان في نيته أن يزور رئيس الجالية اليهودية التي لا تعتبر غريبة في تلك الديار، بل تتمتع بكثير من الامتيازات، ومنها إمكانية أعضائها أن ينظموا ذواتهم ويديروا شؤونهم بأنفسهم. أما الاستقبال الذي نلناه، فكان مؤدباً، لا أكثر. لم أستغرب، بل

فكرت ان زيارة مواطن في مثل هذه المدن المطروقة من قبل الزوار يُعدّ حدثاً تافهاً. ولكن الأحاديث التي سمعناها من مضيفنا أعطتنا الانطباع بأنه يشعر نفسه مصرياً أكثر منه يهودياً. ذلك انه لم يذكر سوى أصدقائه الوثنيين الذين يشاركهم عاداتهم، مما أدهشني. وكان يوسف نفسه أكثر دهشة مني إذ كنت أراقبه من زاوية عيني. لم يجرؤ على توجيه اللوم إلى مَن استقبلنا تحت سقفه، ولكني لاحظت استياءه من هذا التساهل الذي لم يرق له.

تشكل هذه التجاوزات على تقاليدنا اكتشافاً مراً سيتكرر لاحقاً [...]. ولكن دبورة لم تأبه لذلك، لا لأنها تقبل ما لا يمكن قبوله، بل لأن الأمانة بعيداً عن أماكننا المقدسة تتعرض للتراخي والتساهل، وقد تخترقها ممارسات وثنية.

ومع ذلك تنهد يوسف وقال:

– هذا لا يمنع يهوداً يفضلون العيش بسلام مع الكافر مما مع الرب.

فأجابت دبورة المصرية:

– لذا كانت ردة فعل هيفار الفريسي على هذه الممارسات بتمسك أكبر بالتقاليد.

وتساءلت إذا ما كانت السماء، بإنزالها كل هذه المصائب والضربات على رؤوسنا، إنما تعطينا إياها كدواء للامبالاة التي استسلمنا إليها. أليس ذلك جواباً لأسئلة طفولتي إذ كنت أستفسر من والدتي عن قساوة الله؟ فأجابتني دبورة:

– ومع ذلك لا تستعجلي الحكم. فهناك مختونون أكثر تشدّداً منا، يعيشون فيما بينهم في حلقات مغلقة وقاية لهم من أي امتزاج.

وهكذا سرنا مكسوري الخاطر على خطى القافلة بمحاذاة البحر الهادئ. فهمس يوسف بصوت خافت:

– سيأتي المسيح ويجمع مشتتي إسرائيل.

يا زوجي يوسف، لي تعليق على كل كلمة منك. فيا للبرارة التي كنت تشهد لها! يا للذكاء الذي كنت تتميز به! يعرف الرب كم كنت أقدّرك، هل كنت أنت على علم بذلك؟ إن الحياء ابن الوقار! لذا كنت أخجل من التلفظ بالكلمات أو التعبير عن أفكاري. وأظنك أنت أيضاً مثلي. فلقد كنت تحب ترديد العبارات التالية لأيوب، وقد حفظتها على ظهر قلبي لشحذ الذاكرة، فهي تليق بك تماماً، وهي:

"الحكمة أين هي، وأين يسكن العقل؟ إنها ليست في موطن الحياة. فالهاوية تقول: الحكمة ليست عندي، وكذلك المياه الغزيرة تنكر أن تكون الحكمة عندها. إنها

لا تشترى بالذهب، ولا بالفضة، ولا بياقوت الحبشة... من أين يأتي العقل، وأين تسكن الحكمة؟ إنها مخفية عن أعين الأحياء، وحتى طير السماء يجهلها. الله وحده يعرف موضع سكناها، لأنه إلى أقاصي الأرض يمد بصره. لقد عيّن موقعها يوم وضع للريح قانونها وللمياه حدودها، وللمطر قياسه. مخافة الرب رأس الحكمة، والابتعاد عن الشر هو عين التعقل".

لقد اقتربت الرحلة من نهايتها. و لم تكن الإسكندرية العزيزة على قلب دبورة هدفنا، بل مدينة "بيلوسة" كما قرر هيفار، وتقع "بيلوسة" في مصب قناة الدلتا الشهيرة، حيث يقيم أقرباء من أبناء عشيرتنا. واضطررنا على غير توقع إلى تمديد رحلتنا بمرحلة إضافية في أحد الخانات في مدخل الحي الجانبي. فلقد أصيب أطفال دبورة فجأة بحمى قوية، مما دفع بيوسف إلى اتخاذ قرار التوقف. وكان الموضع يعج بالمسافرين. غير ان بضعة قطع نقدية فتحت باب صالة النوم، فتمكنا من دفع المرضى الصغار إلى النوم. واحتاط يوسف لحمايتنا، فتسلح بهراوة تحسباً للطوارئ، لأن أصحاب الأسرة المجاورة لنا لم يكونوا مبعث ثقة لديه، فلربما كانوا من قطاع الطرق الذين تغريهم أمتعتنا. كما إننا وضعنا شيئاً في يد الرجل الأسود ليسقي حميرنا ويساعدنا في إنزال أحمالها ويسهر عليها في الفناء، ومع ذلك لم نكن مطمئنين. في الواقع لا أحد منا أغمض عينيه في تلك الليلة، وكانت الروائح الكريهة تزعجنا، وانصبّ اهتمامنا بالصغار! وانتهى هؤلاء بالنوم، الواحد بجانب الآخر، وأفواههم مفتوحة، وكنا أنا ودبورة ننهض باستمرار لجسّ جباههم. وكان حملة آنية النظافة الطافحة حتى الحوافي يعبرون من فوق النائمين دون اهتمام، ذهاباً وإياباً، ولا أريد معرفة ماذا كانوا يرشونا به لدى عبورهم. [...]

ومع ذلك كنا محظوظين، لأن مسافرين كثيرين اكتفوا بالاستلقاء خارجاً على الطين والرصيف. وتجمعنا صباحاً، نحن اليهود، في زاوية منعزلة، وكنا ثلاث أو أربع عوائل، لنتلو سوية صلاة "شمع":

– اسمع يا إسرائيل، ان الأزلي هو...

يا لها من كلمات تلقيك في الأبدية! ثم نادانا صوت:

– أي يوم نحن اليوم؟

فلم يجب أحد. و لم تكن معرفة التاريخ مهمة، في قافلة المنفى التي كنا نسلكها.

قد تكون عبارة "المنفى" قوية، لأن أهل دبورة، الذين كانوا أهلنا أيضاً إلى حد ما، استقبلونا كإخوة وأخوات، بل قد تبنونا بتقديمهم لنا الأسرّة والطعام والثياب وسائر

احتياجاتنا. وقد قمت بأولى خطواتك يا يسوع مع أطفال رائعين من سنك، لا في أرض الموعد، بل في الأرض التي وطئها آباؤنا عبيداً. هل ترى نقراً في ذلك معنى خاصاً؟

فقال يوسف الذي كان يكثر من الأقوال المأثورة:

– ان من أعطى الحكمة للثعلب والعقل للديك لم يكشف لنا عن مخططاته.

وبعد أن اطمأنت دبورة على أولادها، استسلمت للفرح، واسترسلت أنا في الشكر.

لقد شعرت بالغربة، لا لكوننا تركنا البيت العائلي، ولا لاختلاف التقاليد، فسرعان ما يتأقلم المرء مع محيطه –وكان محيطنا الجديد محيطاً يهودياً أيضاً– بل إن مشهد الشوارع هو الذي أشعرني بالغربة. لم أكن حتى الآن قد عشت في مدينة وثنية، وكان ذلك هو الحدث الجديد بالنسبة لي. وكان يوسف يشدّ معنوياتي، متظاهراً بشعور قد لا يكون شعوره تماماً:

– أنت تعلمين ان المصريين يختارون مواقع مدنهم بعناية بالغة، ويهتمون بملاحظة جودة المناخ، واتجاه الرياح، ومنابع المياه، ويبنون بيوتهم بعناية أكبر؛ وتمثل "بيلوسة" نموذجاً خاصاً من جوانب معينة...

الريح.. الماء.. كنا نملك ذلك كله في الناصرة، وكنا نحسّ بأننا في بيوتنا، فأبديت موافقتي على قوله...

– إن إخوتنا في الدين كثيرون هنا وهم منظمون جيداً، ويشكلون ما يدعى بجماعة متراتبة مع رئيس ومجلس إداري. إنهم يعيشون في الثراء ولهم مركز واعتبار.. ويمارسون العبادة من دون حرج.

إنني أعترف بأننا كنا سعداء تماماً وسط هذه الجماعة نظراً إلى الظروف الراهنة. وكان المحسنون إلينا يمارسون المحبة الحقة، إذ لا يفرضون أنفسهم من خلال مبراتهم. وكنا نتلو سوية تبريكات النهار، وصلوات "شاريت"، "وميخا"، "وغربيت"، هذه الأوقات الثلاثة التي تضعنا في صلة حميمة مع الرب وتجمعنا سوية. وكنا نقصد المجمع مرتين في الأسبوع. يا للمفارقة! إن مصر التي أخرجنا منها الرب بذراع قوية، هاهي تقدم لنا هذه الضيافة العذبة.

– إن هذا البلد، كما قال لي يوسف، هو وليد هبة من هبات الله: النيل. ففيض النيل يحمل معه الثراء، ويبعد الجوع والعطش، ورسوبُه يثري الأرض. وتشتهر مصر بكرومها وزراعتها ووفرة سمكها. إنهم يجففون السمك ويملحونه كما يفعل أهالي بيت صيدا، وينسجون كما نفعل في الناصرة. أليست عباءة عظيم كهنتنا من حرير بيلوسة!

وإذا ما صادفت يونانيين ونبطيين كثيرين هنا، فلأن التجارة رائجة في المدينة. أنظر إلى الشوارع، وإلى المرفأ: إنها تعجّ بالناس القادمين من كل الأمم ومن كل الألوان.

ومنذ الأيام الأولى مدّ يوسف يده لمعاونة أحد النجارين، رغبة منه في التعبير عن امتنانه لمضيفينا، ولقضاء الوقت أيضاً. وكانت دبورة تهتم بأولادها وتزور المعارف بيتاً بيتاً، غير أن فكرها كان عند زوجها. وكنا في المساء ننضمّ إلى الرجال المجتمعين على الأرصفة لسماع الأخبار. وكانت ترسو في المرفأ بواخر قادمة من قيصرية ويافا وعسقلان. وكان يوسف يسأل الملاحين همساً، لا خوفاً من جواسيس هيرودس، بل لأنه كان يتوقع الأسوأ: أتتوقع غير المآسي من هذا الملك العاتي؟ وأصابنا الذهول ذات مساء عندما سمعنا نبأ إلقاء القبض على هيفار. ترى ماذا جرى؟ في حال ملاحقة الشرطة له، هل توفر له الوقت الكافي كي يصل إلى ملجأه؟ أم اكتشفوا مخبأه؟ وكانت دبورة قلقة جداً وتستدعي الشفقة. وكان مرعباً أن تتصور زوجها سجيناً بين الرهائن المعدة للعذاب لحظة تنطفئ فيها حياة هيرودس، فلا ينجو زوجها من الموت. فلطالما تمنت موت الطاغية ككل الشعب اليهودي، وها هي جذلى بسماعها من فم بحار يصل تواً:

- أجل، لا زال حياً. وقد ذبح آنتيباتير وعين أرخلاوس لخلافته.

وبكت دبورة خجلاً. وكنا جالسات أنا وهي على المصاطب التي تحاذي رصيف البحر، وإذا بسرب من الطيور يغطي وجه السماء قادماً من جهة البساتين حيث أعشاشهم. ولكن غراباناً ثلاثة كانت تنعق فوق رؤوسنا، يا لها من طيور كئيبة سوداء تنقل كلمات الناس إلى الأقاصي!

- لا تستمعي إلى تخوفاتك يا دبورة. صدقيني ان الرب سينجي هيفار كما نجى دانيال من جب الأسود. أنا متأكدة من انه يحرسنا بجناحيه. فلقد خلّص أطفالنا بالهرب من بيت لحم.

لقد كان قولي بمثابة النبوة، لأننا سمعنا ان هيرودس قد مات، وان أسرى ميدان الخيل قد نجوا، لأن سالومي شقيقة الملك قد أمرت بفتح السجون حالما لفظ أخوها أنفاسه الأخيرة. وأنتشر الخبر في بيلوسة بسرعة أمواج النيل. وأخذ الشباب والشيوخ والنساء والرجال يرقصون في الحي اليهودي على أصوات القيثار والطبول. ويوسف نفسه، يوسف الهادئ عادة قد بكى من الفرح. وذهبنا جميعاً إلى المجمع الذي كان يغص بجمهور غفير، صخبُه أكبر من تقواه، هذا الجمهور ذاته أطلق العنان لفرحه بعد الصلاة بالرقص والغناء حتى ساعة متأخرة من الليل.

لقد قلّب موت هيرودس العالم.

الفصل الثامن

وبلغنا الناصرة..

[...] وبلغنا الناصرة أخيراً، وكان بوسعنا من جديد أن نفتح باب بيتنا، ونلتقي بجيراننا وأهلنا. كم حلمت بهذا اليوم! لا شك أنهم غمرونا بعاطفتهم وأحاطونا بكلمات الترحيب، ولكني أحسست بشيء من المرارة في ملاطفات ذوينا. فلقد كانوا رافضين دوافع غيابنا الطويل. لماذا قررنا الذهاب إلى بيت لحم قبيل موعد الولادة؟ لماذا بقينا طيلة هذه الأشهر عند هيفار؟ كيف عشنا في "بيلوسة"، هذه المدينة الوثنية؟ ذلك ان قلة منهم فهموا ان هربنا إلى مصر كان بوحي لكي ننقذ يسوع من حملة الإبادة التي أمر بها هيرودس. فلقد أعتبر معظمهم سفرنا تخلياً عنهم، ورددوا همساً بأننا فضّلنا أماننا الذاتي على التضامن المفروض بين الأخوة؛ ولأننا تركنا أملاكنا، فمن الطبيعي أن لا يتمكن يوسف من استعادتها حالاً. وكان أعضاء أسرتنا —ومنهم مردخاي مدفوعاً من زوجته– لا ينكرون حقوقنا، ولكنهم يجدون كل يوم ذريعة جديدة لتأخير موعد تسليم الحقل والدكان اللذين أودعناهما أمانة لديهم. ولقد بذل يوسف كثيراً من الحلم، وفي سبيل إعادة مكانته الاجتماعية التي تعرضت لهزّة، حاول أن يظهر بأننا عدنا إلى البلد يهوداً أصلاء كالسابق، بل تعمّد مضاعفة الممارسات التي تتطلبها الشريعة. من جانب آخر، أحجمنا عن الحديث عن ضعيفي الإيمان ممن لاقيناهم في بعض الجماعات اليهودية في مصر. ولقد حذوتُ حذو يوسف أنا أيضاً في كل شيء، وتحاشيت كل كلام مشين في ثرثرات العين أو في السوق. يا يسوع، لقد كانت صحتك وخدودك الوردية ومقالبك الطفولية كلها، ذرائع لأحول دون أن تتحوّل تلك الأحاديث إلى هذر صبياني.

وكان عليّ استخدام كل حذاقتي كي أحافظ على علاقاتي مع راعوث صديقة الصبا، كما كنا نتمنى كلانا. ذلك ان جذور راعوث الاجتماعية لم تكن لتسمح بأن أدعوها إلى المنزل. وفوق ذلك فقد اختار لها أهلها عريساً يُدعى لاوي ابن حلفي، يمتهن جباية الضرائب، وكانت تلك الوظيفة مربحة، ولكنها لا تلاقي الاحترام. فلقد عمل لاوي ورئيسه زكا جهدهما في تحصين عملهما بالعدالة، وفرض ضرائب معقولة على الناس، ومع ذلك كله لم يفلحا في تحسين سمعة وظيفتهما في نظر العامة. ولقد عانت راعوث من ذلك بالرغم من أعمال الخير التي تغدقها، والنابعة من طبيعتها الطيبة.

لقد كان من المخجل أن أنصرف عن صداقتها، كما كان من السذاجة أيضاً أن أعلن هذه الصداقة على رؤوس الملا. لذا اكتفيت أن أعرض عليها زيارتها في بيت صيدا حيث تسكن، بصورة لا تجذب النظر. والتمست من نسيبتي ميريام أن ترافقني في هذه الرحلة، لأن يوسف أبى أن أسافر وحدي، وكان هو ملزماً بالبقاء في الناصرة لشؤون مشغله. وكانت ميريام إحدى قريباتي النصراويات التي عدت إليها بفرح خاص، حيث كانت دوماً قريبة منا. فلقد حضرت حفلة خطوبتي، وشاركتني أحزاني، وكانت معي في احتفالات زواجي، وفي كل هذه الأحداث الصغيرة أو التافهة التي ترسلها لنا السماء لتتميم نسيج حياتنا. ولقد فهمتني دوماً في جميع حالاتي النفسية، لذا لم أبذل جهدا كبير لإقناعها في مرافقتي.. وفي سياق الطريق أخبرتني ببداية حَمْلها.

هذا الطريق المحاذي لجبل طابور كنتُ أعرفه، وكنت أعرف على ظهر قلبي كل حنية أو درجة فيه. لم يتغيّر شيء فيه منذ اليوم الذي سلكتُه ويدي الصغيرة نائمة في كف والدي. لا شيء ثابت على حاله كالطرق التي تسلكها بصورة مستمرة. وشرحت فكرتي لمريام:

– إن شوقي للقاء راعوث ليس هو لمجرد رغبتي في إثارة ذكريات الطفولة معها، ولكني أفكر بيسوع أيضاً. فأنا أودّ أن يعرف كل ما أحببته، وأن يستطيع القول عندما يكبر: "هذا صديق قديم، لأن أهله كانوا أصدقاء أهلي".

لقد كان طموحي أن تتسع علاقاتنا إلى أبعد من الناصرة، إلى أبعد من شواطئ الأردن الصخرية وهذه الحدود التي تقيمها الاختلافات والمسافات بين أناس يعبدون الله على السواء. هذه هي الأفكار الجديدة التي اصطحبتها من رحلتي إلى مصر. لقد كنت أفكر بشيء من الغصة في ما يفرق بين البشر، وأقول بأن المسيح وحده سيوحدهم عندما سيأتي: إنهم كرمال الصحراء.. يتواجدون الواحد قرب الآخر، ولكنهم لا يتوحدون.

ووصلنا إلى شواطئ كينارث بعد هبوط طويل في طريق مزهرة، فتذكرت قول المزمور: "لقد وضعت حدوداً للأمواج لا تتخطاها، فلا تغمر الأرض من بعد". أجل، إن مياه البحيرة التي يغذيها النهر هادئة، وإن ساورها الغضب أحياناً. إنها في استرخائها في قعر الروابي، تروي القطعان وتسقي الحقول وتلطف المناخ وتمنح الهواء شيئاً من خفة الملائكة. ونزعنا أحذيتنا، أنا وميريام، لننعش أرجلنا برطوبة العشب، وخلت حمارنا الذي يحمل أمتعتنا يشاركنا السعادة نفسها إذ أخذ يجري أمامنا منتشياً. وتوقفنا، فرأينا رجلاً عارياً في الجرف حتى منتصف الجسم، يتقدم في المياه نحو العمق وهو يرفع شبكة ويرميها من فوق الرأس بعيداً. وكان ظهره علينا.

فقالت ميريام:

- أعرفه. إنه زَبْدَيْ.

أجل، كان زَبْدَيْ نفسه، هذا الذي غنى بصوت رائع في مأدبة خطوبتي، ودعاني إلى العيد معه "كما في السابق". واختفينا وراء حزمة من الأدغال ونحن نراقبه من دون حراك، لأن السمك يهرب حال سماعه ضجة ما. ورفع زَبْدَيْ شبكته المخروطية بحركة حلزونية وألقى بها أمامه في الماء، وترقبنا انتشاله السمك السجين سمكة سمكة. أما أنت يا يسوع، فتركت يدي وقفزت نحو الشاطئ، حالما رأيت حركة الصياد، ولاحظت صمتنا، متعجباً من كل شيء. فهرعت إليك وأمسكتك صارخة بكل صوتي، مما جعل زَبْدَيْ ينتبه إلينا، فعرفني وأشار إلينا أن ننتظره. وكان صياد آخر يجذف بصعوبة نحوه في قارب محمّل سمكاً حتى حوافيه. فخلط الرجلان صيدهما، وأفرغا السمك في سلال كبيرة، وهما في سعادة بالغة، ثم أقبلا إلينا على الشاطئ حيث كنتَ تلعبُ في الماء. ولم يبدِ زَبْدَيْ أي استغراب إذ رآني قد عدتُ بعد تلك الأحداث وأنا أمسك طفلاً بيدي. بل رفعك فوق كتفيه، واستدار بك دورة، ثم أعادك إلى الأرض، قائلاً:

- أترين هذا السمك الممتاز؟ إذا مكثتم عندنا، سأشوي منه هذا المساء مع أعشاب، ثم أراك القارب، وقال:

- مع هذا القارب تنال أفضل صيد. فما عليك إلا أن تلقي شباكك هناك، في الموضع الذي تعلم أن السمك يتجمع فيه.. إذا كنت صاحب المهنة. فالشبكة تشبه جيباً كبيراً، وينبغي أن يبقى هذا الجيب مفتوحاً أثناء سحبه كي يلج إليه السمك. ففي الأعلى خاطوا قطعاً من المطاط الخفيف تطفو فوق سطح الماء، بينما وضعوا في الأسفل حصى ثقيلاً كي تغوص الشبكة في الماء. أتتبعني؟.. وعندما تمتلئ الشبكة، يسحبونها إلى الشاطئ، ويأخذون الجيد، ويلقون بالرديء إلى البحر.

وكنت تصغي بانتباه إلى زَبْدَيْ، فسألك:

- عندما تكبر، هل تريد أن تكون صياداً مثلي؟

كان كل شيء في كفرناحوم يسحرني: الممرات التي صقلتها أرجل الصيادين العارية، المجمع العتيق، الجدران الطينية المرقعة، الشاطئ حيث يسحبون القوارب. ففكرت لماذا، ترى، لا نتوقف هنا؟ وقررنا المكوث في كفرناحوم فعلاً. فصار نقاش بين زَبْدَيْ ويونا، أيهما يتشرف باستضافتنا! وصدر قرار يشبه قرار سليمان نفسه إذ قُضي أن أبيت أنا عند يونا، قبالة المجمع، لأن ابنه شمعون كان في مثل سنّك، بينما تذهب ميريام لتبيت عند زَبْدَيْ، وتهتم سالومي زوجته في إعداد الطعام.

يا لهدوء القرية وحرارة الاستقبال! وبُسطتْ المائدة تحت العريشة، وأثارت رائحة السمك المشوي فيّ تياراً من الذكريات. وأخرج زَبْدَيْ صَدَفَةً بألوان القوس قزح من محفظة جلدية، وأعطاك إياها، قائلاً:

- هذه لك. إذا وضعتها على أذنك، سمعت صوت الماء، وإذا نظرت من خلالها، رأيت لون السماء.

كان لزَبْدَيْ مجموعة من تلك الأشياء، وكان يربطها بخيوط مع حجارة من سيناء، فيصنع منها أشكالاً للزينة ويبيعها للزوار، على قلة عددهم، أو يعطيها هدايا للأصدقاء. وكانت أشكاله المبتكرة تأخذ هيئات بشرية أو حيوانية أحياناً: هذا داود وتاجه، هذا إبراهيم، أو يعقوب مع قطعانهما.

وكان يشرح عمله:

- انك تميّز الأشكال تبعاً لاتجاه أضاعها.

وبصفته جليلياً حاذقاً، لم يكن ليخفي مهارته في تجاوز الممنوعات بذكاء. وماخلا ذلك ظننت أن أسلحته الوحيدة هي الصنارة وسلّة الصيد، وإن خشونته لا تتعدى شؤون الصيد.

وكان العشاء الذي اتسم بالانشراح غنياً بأنواع الأطعمة. فلقد بدت سالومي في عز حيويّتها، وقدمت لنا كعكة معسّلة بوفرة، وسُمِحَ للأطفال أن يجلسوا معنا إلى المائدة. وبصراحة كنت معجبة بكَ كيف جلَستَ مستقيماً وجاداً على مقعدك بين جارَيك يعقوب وشمعون.وندمت ميريام على أنها لم تصطحب صغارها.

كانت الليلة في بيت يونا هادئة إلى حدٍّ لم أرغب الخلود إلى النوم. ولكني امتعضت من غياب النظام في الغرفة. هل سارة متقاعسة في ترتيب البيت؟ لربما.. فهي

حامل، ومنذ أسبوع وهي منشغلة في خدمة ابنة أخيها المريضة في مجدلة. لذا تكدست الجرار، والصناديق الخشبية، والشباك، والأدوات التي تركها يونا شاهدة على غياب سارة، وأضاف شمعون أشياءه الخاصة على هذا التشابك، بالرغم من عناية أخته الكبرى به. ورأيت صنارة راسية بين بلاطتين، فالتقطتُها قبل أن تجرح الأطفال في تقافزهم. ونمتُ، جنباً إلى جنب معهم، وقد بانت بطنك، فأخذت خماري وغطيتُك. وكان ضوء البدر الكامل يتسلّل لامعاً من شقوق السقف الواسعة، عبر ألواح القش والأغصان. هل سيسدّ مضيفنا هذه الشقوق قبل الأمطار القادمة؟ في انتظار ذلك، أصعدتُ صلاة من خلالها إلى العلي.

وأيقظنا صوت الديك وخطوات يونا منذ الفجر. وبعد فطور الأطفال انضممت إلى ميريام وأكملنا رحلتنا إلى بيت صيدا، وأنا أجر ساقيّ جراً، عالمة أنك تفضل البقاء مع الصيادين.

يعرف الجميع أين يسكن جابي الضرائب، فلقد اختار لاوي الذي كان يمارس مهنته هذه في كفرناحوم أن يسكن في بيت صيدا. وكان منزله متكئاً على الأسوار، تحميه جدران سميكة من الأطراف الثلاثة الأخرى. وما إن رأتني راعوث حتى ارتمت بين ذراعيّ، وجمدت الكلمات على شفاهنا بشيء من الخجل من شدة ما تختنق به قلوبنا. بماذا نبتدئ الكلام؟

- أرى صغيرك في صحة جيدة. وأنت كيف حالك؟

- أنا أيضاً على أحسن حال.

- وزوجك؟

- الحمد لله. وإن كانت وظيفته لا تستهويه. أن تَستَدّري المال من الأغنياء شيء، وأن تزعجي الفقراء شيء آخر. هل يوسف في صحة جيدة؟

- صحته جيدة. ولكن ما أمر راحيل؟

- لقد استقرت في بابل، وحملت وأجهضت مرتين. ولقد راجعت إحدى العرافات، فاقتنعت أن القدر يلاحقها. أما أنا فقد اقترحت عليها أن تقضي معنا بعض الوقت، ولكن طول المسافة والخوف من اللصوص في منطقة تراخونيا لم يشجعاها على ذلك.

- ظننت أن ثكنات زاماريس تحمي المسافرين!

– إن قطاع الطرق يتكاثرون كالذباب. فلقد عادت آخر قافلة من الحجـــاج أدراجها، بعد أن أفرغوا حمولتها. لقد أفلت النظام وعمت الفوضى. حتى الفصح تعرض للخطر وتأجل. والسامريون نجسوا رواق الهيكل بتلويثه بعظام بشرية. لابد أنك سمعت هذا الخبر في بيلوسة.

– أجل، لم يفهم يهود مصر كيف تسلّل المخربون إلى الصحن القدسي. هـــل أضرب اللاويون المسؤولون عن الحراسة، يا ترى، كما يضرب الخبازون وتجار العطور؟

– كانت تلقى القُمامة من فوق الجدران، ويُظَنّ أن برج أنطونيا ترك الأمـــور تجري على هواها. ولقد أخذ كل يهودي هذه الشكوك بمثابة لعنة.

واستدرجتنا راعوث إلى ركن من أشجار الطرفاء الذي يشكل امتدادا للفنـــاء، ووضعتَ يدَك بيد ابنها، فقالت:

– سيحتاجان الواحد للآخر.

وكانت أكداس السمك المملّح تغطي مساحات واسعة في الشمس، بمحـــاذاة السور وعلى الأرصفة، وكان ذلك أحد أوجه التجارة التي تمتاز بها المدينة.

– على الأقل، أنتم بمنأى عن الفاقة. فالصيد لا يتعرض للجفاف ولا للسنوات السباتية.

– ولكن الوفرة تعرضنا للغزوات المستمرة، إلى درجة دفعت بهيرودس إلى وضع مسلّحين على طول البحيرة. وقد فعل ذلك في سنة الجوع، عندما عرض أواني الطعـــام الذهبية الخاصة به للبيع، لتوفير القوت للشعب. أجل، لقد كان يقوم بمبادرات من هـــذا النوع أحيانا، مما يستحق الثناء.

واستفسرت كيف تمت مراسيم دفنه. فقالوا لي بأنها كانت مهيبة ومكلفة جداً. فلقد ظهرت كل أنواع الحلل الملكية في الموكب، وكان التابوت من الذهب الخـــالص، تزيّنه الحجارة الكريمة، وملفوفاً بقماش قرمزي. وكان الملك ممدداً عليه، والتـــاج علـــى رأسه والصولجان بيده، وكان يحيط به أبناؤه وذووه، ممن لم يتسنى له الوقت لقتلهم. ثم جاء حرسه الخاص المكوّن من الغاليين والجرمان والتراقيين يسيرون الهوينى بلباس الحرب تحت قيادة أمرائهم، وكان خمسمئة خادم يحملون الطيوب. وبعد سبعة أيام من مراسيم الحزن التقليدية، أغدق أرخلاوس المرشح لعرش اليهودية بالأموال للإجراءات الباذخـــة والوعود لكسب عطف الشعب، وتأمين منصبه الذي لم يكن مضموناً حقا.

– أتعرفين ماذا جنينا منه؟ لقد طرد عظيم الكهنة الذي عينه والـــده، وهكـــذا قضى على بيت بوثيوس، إضافة إلى أنهم وعدونا بهيرودس أنطيباس أخيه ملكـــاً علـــى

اليهودية، مع لقب رئيس الربع. لقد وضع الرب هذه العشيرة على رؤوسنا بسبب خطايانا.

قالت مريام:

– هل سيكون حنان عظيم الكهنة الجديد ذلك الرجل الحازم الذي يقارع الشر؟

فأجابت راعوث:

– سيضيء أبناؤنا نوراً جديداً على جبل صهيون. وإني أصلي كي يحقق ابني ما لم نستطع إنجازه لا أنا ولا أبوه.

لقد كان حماس راعوث متقداً أبداً، ولم تكن تساوم أمام الشر أبداً، وكنت أفكر بأنها ستبقى واقفة إلى آخر الأزمنة مع هذا "المتبقي" الذي سيستقبل المخلص. وانبريت، لتغيير الجو، أقصّ أخبار سهرتنا في كفرناحوم، واستضافة زَبْدَيْ، والعذوبة التي يتذوقها المرء عند هؤلاء الرجال الأشداء المسالمين. فبادرتني راعوث:

– لا يأخذنّك الوهم. أنا أعرف زَبْدَيْ ورفاقه لأننا جيران، وأضافت: أشداء؟.. أجل. أما مسالمون، فلست متأكدة! لاشك أن إيمانهم بلا حدود، أما صبرهم فهو محدود. قبل أيام أخرج يونا سيفه أمام لاوي، فطلب إليه هذا الأخير ماذا يريد أن يفعل به. فأجابه: "بشباكي لا أنال سوى سمك صغير، أما بهذا، فسأنال سمكاً أكبر".

لقد بذلت قصارى جهدي في البيت لأشعرك بقوة العائلة. أجل، ان عائلتنا متحدة، وهي في كل الأحوال تنعم بالاكتفاء. فلقد تبددت الانتقادات التي واجهتنا لدى عودتنا من مصر، بل صارت تضرب بنا الأمثال أحياناً لوحدتنا وانسجامنا. ولقد آوينا حماتي التي أصبحت تتحرك بصعوبة، بالرغم من احتفاظها بكامل قواها الذهنية. منها تعلم أبوك حكمته كلها. فأنا لم أسمعها قط تتشكى من العلّة التي جمّدت حركتها، أسبوعاً بعد أسبوع. بل كانت كتابوت العهد الذي يكرمه الجميع، يحبها الصغار الذين تحتوي كل مشاجراتهم بحصافة يعقوب وحذاقة رفقة. وبغتة، غادرتنا صباح يوم سبت قبل أن يطلع النهار على سفح حرمون، إذ رفعت عينيها إلى السماء، وغطت رجليها، وانسلّت في الطريق الذي تسلكه جميع الخلائق.

لاشك أن حدّة الأسى كانت أقسى على أبيك مني، فلقد بدا لي ألمه غير طبيعي أبداً، بالرغم من جهده في إخفائه. وباغتُّت نفسي أحسد هذه المرأة التي تمتعت بعمر مديد، وبأولاد يبكون رحيلها.. فشرد فكري: "ليطلْ الرب أيامي ولْيمنحْني أن أرقد بين ذراعي ابني!".

وارتدى يوسف وشاح الصلاة في الأسبوع التالي للاحتفال بيوم السبت. لقد بانت لي القماشة ثقيلة على رأسه. هل هو ثقل السنين، أم عبء أسرته، أم هموم الزمن الراهن؟ لربما كلها مجتمعة! لقد تبدلت نظرته إلى الأطفال، وإليك خاصة، حيث صار يستعجل الأيام فجأة ليراك في عمر الرجولة. فأحسست بقلقه إذ كان يتساءل: "أتراني أصل إلى هذا العمر؟". ثم يتملك نفسه ويعلن بصوت ثابت:

- علينا العيش على صخرة الرجاء والإيمان.

إلى هذه الصخرة جذبني طيلة الوقت الذي عشناه سوية. وهذا ما أحاول البقاء فيه.

أجل إننا نشعر بضرورة هذا الملجأ أكثر من أي وقت مضى. فمنذ خلافة هيرودس والعصابات المسلحة تشعل المدن والقرى بذريعة مقاومة الاحتلال. والنتيجة أن الدوريات الرومانية صارت كالكواسر الجافلة، تلقي القبض على المسافرين الأبرياء حقاً، والناس تتردد في ترك منازلها. واستمر صموئيل صديق والدي وحده يزورنا بانتظام. فقال ذات مرة:

- في عمري لا تتغيّر العادات المكتسبة.

إن الرجال من جيل صموئيل يقصرون فترة نومهم طوعاً، فكان منذ الصباح باكراً جداً، يقفل باب بيته في سيفوريس ويركب الطريق، مستصحباً أحد خدمه الأمناء. وما إن يلمحه قليوفا ويوسف ومردخاي صاعداً الهضبة وعصاه في يده حتى يهرعون إلى لقائه، ويرسلون إلى الكرم في طلبي، فأسرع عائدة مع الأطفال الذين يتقافزون إلى معانقته. وكنت أعدّ الطعام العائلي بفرح غامر. لقد أحببت صموئيل لأنه كان يذكرني بوالدي، وكانت همّته كفريسي مخضرم تبعث فيّ الثقة.

وجلس ذات يوم إلى المائدة، ولحيته المسترسلة تلامس صحنه، فأفرغ علينا حزمة من الأخبار:

- إن ثكنة سيفوريس في حالة تأهب، فلقد ضاعفوا عدد حراس المشجب فيها. وأرسل قاروس، حاكم سوريا، ثلاث كتائب إلى أورشليم لإسناد المرتزقة، وأسلمت القيادة إلى أحدهم يدعى سابيوس، وهو رجل محدود لا يبعث سوى الرعب في النفوس. ولقد أصبح الشعب ضحية لكل مشعوذ. تذكروا شمعون وآرثرونجس، هذين المسيحَين الدجالين اللذين لبسا التاج الملوكي وأوهما الناس بتحرير البلد: إن عرشاً فارغاً لا يجلب سوى الكوارث.

وإذا كانت زيارة صموئيل هذه قد تخلدت في ذاكرتي، وليس غيرها، فلأنها جلبت إلينا العاصفة التي أَنبأَتْ بها، منذ اليوم التالي. ففي الناصرة أطلق الإنذار منذ الهجعة الثالثة، والعتمة سائدة. وعندما رأى العَسَسُ لهب الحريق في سيفوريس، صعد الناس جميعاً إلى السطوح، ولم أفلح في كبح الأطفال من الصعود. وكانوا يصرخون مذعورين:

- ماما، هل سيحترق صموئيل أيضاً؟

وتمتموا صلواتهم، مناشدين الرب أن ينجي صديقهم.

وبقيت سيفوريس تحترق طوال الليل. أما الرجال، عندنا، فكانوا يصلّون بصوت عال. لم يكن الجو بارداً، ومع ذلك كنت أرتجف من البرد. وكانت رائحة الأجسام المحترقة تزكم الأنوف، وتحمل الرياح رذاذ الحريق والأجسام المتفحمة. ولما أنار الصباح كبد السماء، هرع قليوفا ليستخبر عن مصير صموئيل، فجيء به سالماً، والحمد لله. لقد نجا الرجل العجوز من الحريق بأعجوبة. فأعددت له السرير، إذ تقرر أن يسكن معنا.

وبعد هذه الأحداث المرعبة بوقت وجيز، أخبرنا زَبْدَيْ بأن وجهاء أورشليم أرسلوا وفادة إلى روما يطالبون فيها بخلع أبن هيرودس الذي كان مسؤولاً عن كل هذه المآسي. فقرر الإمبراطور عودة اليهودية إلى ولاية والٍ روماني، يكون هو نفسه خاضعاً لحاكم سوريا. وما إن تسلم هذا الوالي تعيينه، وكان أسمه كوبونيوس، حتى أمر بإحصاء جديد للنفوس. وكنت في بيت إيساخار عندما جاءني يوسف بهذا الخبر.

- إحصاء؟ ولماذا؟

- لفرض ضريبة رأسية لمنفعة روما.

فتجهم وجه إيساخار وأمسك رأسه بكفيه. وبعد برهة رفع بصره، ليرينا وجهاً متجعداً يعكس سيماء والد هرم هزّته الأحداث. لقد كنا على علم بأن أبناءه قد التحقوا بقادة التمرد: يهوذا الكاملي، وصادوق الفريسي، ولكننا لم نفهم سبب كل هذا القلق. فكشف لنا أن فتياناً متشددين استغلوا حريق سيفوريس لينهبوا المشجب، وتنظموا فرقاً متحركة، لا تنتظر سوى ذريعة لإثارة الفتنة. فقال إيساخار:

- ستكون هذه الضريبة المشعل الذي يضرم الجليل.

ثم أضاف:

– ترى كيف نتحمل الخزي في دفع الجزية للإمبراطور؟ إن أولادي على حق، فنحن لا سيد لنا سوى الوحيد، إله إسرائيل.

عندما يسود الحقد والخواء لا يبقى من قرار صائب. فمن جانبنا لم يكن ثمة قوة واحدة لمجابهة الثكنات الرومانية، بل مئة فريق أحالوا البلد إلى دماء. فاختلط الحابل بالنابل، والمعركة لا هوادة فيها. واختفى أهل راعوث فجأة، لاهتمامهم بأنهم يهود فاسدون.

وبقي علينا انتظار نقمة روما. وكانت عاتية! فلقد استهدفوا الأبرياء كما استهدفوا المسيئين على حد سواء. وكانت الصلبان المنصوبة في مفترقات الطرق تشهد على وحشية الرومان. وكان صراخ المحكومين يبلغ حتى داخل المجامع. وصليت كثيراً من أجل أبناء إيساخار كي يستطيعوا الهروب والاختفاء. ومرّ محكوم من شارعنا، حاملاً خشبته على كتفه، مُدْمَى، وسياط جلاديه تنهال على جسمه. فأخفيتُ عينيك يا يسوع بكفي لئلا تلتقيا بعينيه.

وبلغ الرعب المتعمد من الرومان درجة لم يجسر أحد القيام بالحصاد بالرغم من نضوج الحنطة. ولم تمر ليلة من دون أن يطرق بابنا أحد الهاربين، أو الناجين، طالباً اللجوء، فيحكي لنا قصة جحيمه ويبعث فينا الرجفة والغصة. واتخذ يوسف قاعدة في أن يستقبل كل طالب نجدة. وكنا، في خوفنا وحزننا، نتلو التبريكات بصوت خافت، لئلا نثير حفيظة الجنود المنتشرين. وكنت أراقب أعمال الأزلي التي تزهو في الحقول، في وضح النهار. لقد كانت الحيوانات والمزروعات تتنفس بحرية، بينما نختنق نحن، ويشكل الخروج مجازفة. ومع ذلك، أخذتك معي في أحد الأيام، حيث كنتَ تتحرق لمرافقتي، فرضختُ. وكنا خمس نساء معاً، وقد أدهشنا صمت الجدول الذي نعرفه يضج بالحركة والفرح حواليه. وأخذت ميريام جرتها وملأتها، ثم رفعتها نحو السماء، قائلة:

– مادام الماء متوفراً...

لن أنسى تلك الكلمات، كما لن أنسى الابتسامة التي رافقت كلماتها. إن الماء هبة من الله يجدد عطاءها بفضل طيبته. ولما قالت ميريام ذلك، وجهت إليك نظرة حنان، كانت انعكاساً لحنان قلبي تجاهك.

الفصل التاسع

نظام هشّ

بقي النظام الذي عاد إلى الناصرة تدريجياً، نظاماً هشاً. ويخال لي أن السنوات التالية تلاحقت رتيبة متشابهة عادية، ومتكررة بهمومها. ولم تتغيّر العائلات كثيراً، فعوّضت الولادات الجديدة عن الوفيات بوتيرة متساوية، بحيث بقي العدد هو هو نفسه تقريباً. وتوالت المحن كذلك رتيبة، وإن اختلفت مسمياتها: الأمراض المعدية نفسها، والجفاف، والحرب، وانتهاك القدسيات، والاستبداد الدموي على يد الكبار [...]

أتذكر يا يسوع تلك الأيام إذ كنتَ تنمو كما تنمو الشجرة المغروسة على حافة الجدول؟ كنت تنمو بالقوة والحكمة، كما يقول الكتاب، وكذلك بالمهارة. لقد كنت قوي البنيان، تميل إلى المواجهة، وتنظم ألعاباً قلما نالت رضاي مع جيرانك وزملائك في اللعب. وكان أحد هذه الألعاب يسمى بمعركة أبناء النور مع أبناء الظلام. وقوام اللعبة أن يتشكل فريقان منذ العشية، ويتواجهان منذ فجر اليوم التالي. وكان الفريق الأول يطمح إلى الخلاص والمجد، والثاني ينال الخزي والعقاب. وكان من الطبيعي أن يرفض الجميع الانتماء إلى الفريق الثاني، مما يستوجب تعيين أعضائه بالقرعة. وبدا لي أنك كنت عنصراً بارزاً في الفريق الأول. لازلت أتخيّل عودة يسوعي وقت الغداء جائعاً مثل عيسو، ممزق الثياب مثل طوبيا، ولكن منتصراً. وكنت أغسلك من قمة رأسك إلى أخمص قدميك.

لست أدري كيف اختُرعتْ هذه اللعبة، ولا كيف وصلت إليكم، يا صبيان الناصرة، عبارة: "أبناء الظلام وأبناء النور"؟ فهي من مفردات الاسينيين، ولا وجود لها

عندنا. لربما ذكرنا أمامك، مرة أو مرتين، رهبان قمران الذين يعيشون حياة التقشف في الصحراء. هذا كل ما في الأمر. لقد دهشت دوماً من أين يستلّ الأطفال مفـــرداتهم أو صورهم، من دون أن يبدو عليهم الاهتمام. فتكفيهم ومضة عابرة ليبنوا بها عالماً كاملاً. هل تذكر أنك تعرفت على الناسك المتشح بالبياض في قعر صخرته في الناصرة، من دون علمنا؟ لقد كان عضواً في البدعة. هل كلّمتَه، كما فعلت في طفولتي؟ أني أعلم أن ترك الممتلكات، ودقة الطقوس، والأخوّة، ومحاربة الشر، وخشونة القواعد المسلكية.. كلـــها تشكل جاذبية قوية على الشبيبة، لاسيما في الأزمنة التي نعيشها. أنا لا ألقـــي اللائمـــة، وإنما أفهم الحالة.

في صريح العبارة، كنت مندمجاً تماماً في سرب صبيان القرية. فلقد تخوّفتُ أول الأمر ألا يكون تغرّبك المبكر عن البلد قد ولّد فيك جرحاً لن يلتئم ســـريعاً، ولكـــنني تعزيت بتجاوزك كل ذلك. وكل مرة تترك الدكان حيث تساعد أباك، أو تغيب عـــن المجمع، أراك تجوب الحقول بحثاً عن رفقة أو مغامرة. فأبحث عنك في كل مكان، وأجـــرّ آذان ابن النور بقوة! وكنت تقدم لي باقة من شقائق النعمان قطفتها لي، وكانت الثمار التي تجلبها لي ألذّ الثمار عندي. وكنت تسرد لي أسماء النباتات والأعشاب البسيطة: إنها روائع الخالق تبوح لك بأسرارها، لأنك تحنو إليها. وكنت تؤثر اللحاق بالراعي أحيانـــاً فوق التلة، فيضع على ذراعيك خروفاً لا تتخلى عنه طوال النهار، معلناً أنـــه ملكـــك. ولكن مذّخراتنا لم تكن لتتيح لنا شراءه لك. وككل الأمهات، حلمت لك بمستقبل لن يعوزك فيه شيء.

وكان يوسف يقول عنك:

– له عين مفتوحة وأذن ذكية. سيكون عاملاً حاذقاً.

وكان عمال الأرض يدعونك إلى بيوتهم بعد العمل، ويرتاحون إلى رفقتـــك، وكنت تتذوق رفقتهم. وكانوا، إذا ما تأخرت مساء عندهم، يعتذرون لنـــا بامتـــداح صفاتك. قال أحدهم:

– إنه مثل داود.

وقال آخر:

– سترون كيف سيأخذه الرب من وراء القطيع.

أما أنا فكنت أصغي في الرجاء، واحفظ هذه الشواهد في قلبي.

وفي مدرسة المجمع أحبك "الخازن" الذي كان يعلّمك، وكان يداعب خصلات شعرك. يقول سفر الأمثال: "من أحجم عن العصا أبغض ابنه"، ولكني لم أسمع قط أنك استحققت العقاب. فلقد أرسلك أبوك منذ الخامسة من عمرك إلى أقدام المعلم.

- أعتن به، وأغرز في دمه أقوال الكتاب.

وكنت تجلس وسط الصبيان الآخرين، وترددون في الجوق سوية آيات الكتاب التي يتلوها "الخازن" بطريقة الأنشاد لإضفاء الحيوية على الكلمة. وهو يقول عنك:

- إنه يحب ما يتلوه.

لقد ألفت نصوص التوراة. بل أخذت أسئلتك أحياناً طابع المفاجأة بدقتها ونفاذها. وكان أبوك يردد على مسمعيك مساءً:

- إذا امتلكت المعرفة، ملكت كل شيء، وإذا لم تكن لك المعرفة، لا تملك شيئاً البتة.

وهكذا تقدمت بخطى فلاح صغير منشرحاً نحو نضوجك الديني، يتبعك في الطريق نفسه أولاد مردخاي وقليوفا الذين كانوا يعيشون في كنفنا، وهم: يعقوب الذي يصغرك بسنتين، وشمعون ويوسي ويهوذا الذي كان في السادسة من عمره تقريباً. هؤلاء كانوا أبناء لنا، وإخوة لك. وكان الجدل بيننا هل ستحتفل بمراسيم بلوغك الديني (بار ميتسوا) في ظل الأسرة في الناصرة، أم في مهابة الهيكل في أورشليم ، كما كنت تتمنى؟ لم تكن المسألة مسألة لياقة أو تكاليف، بل لأن الذهاب في قافلة من النساء والصبيان على طرق اليهودية كان مجازفة حقة. وتردد يوسف بين أتّباع الفطنة واحترام التقاليد. وكان لابد من اتخاذ القرار. فدعاك ذات مساء بعد استشارة صموئيل ومعلم آخر للتوراة، وكلاهما من اللاجئين القادمين من سيفوراس، وقال لك:

- سنأخذك إلى أورشليم. ليحرسنا القدوس، تبارك أسمه، وليحفظنا مرة أخرى. وسنحتفل بحصولك على لقب "بار ميتسوا" في الهيكل، في أسبوع الفصح.

وما إن صدر قرار السفر حتى بدأت الاستعدادات. وكنت قد تعودت على مثل هذه الهموم، وإن كانت أقسى بسبب الأحداث الأخيرة. واتفق يوسف مع بعض أبناء عمومتنا الأشداء الشجعان لمرافقتنا في الطريق. وكنت أنا المرأة الوحيدة في القافلة، وأنت الصبي الوحيد. وكان علينا أن نخفف من أمتعتنا تحسباً للطوارئ التي قد تضطرنا للتخفي أو الهرب.

وكان الأسبوع السابق للسفر مضطرباً بحيث تعرّض المشروع للإجهاض. فلقد ضربت الحمى كلا من يعقوب وشمعون، وانتقل صديقنا القديم إيساخار من هذا العالم. ولأن أبناءه لم يُشاهَدوا في تشييعه، سرت إشاعة بأن مداهمات جديدة ستحدث قريباً جداً. طبعاً كانت الإشاعة كاذبة. كما أن توعك صحة الصبيين لم تدم طويلاً. فلقد سهرتْ ليلتين بقربهما، وقاما على رجليهما في اليوم الثالث. وما إن تعافيا حتى صارا يلومانني لعدم استصحابهما، وأخذا يمطران يوسف بالأسئلة حول أورشليم. فسأل يعقوب:

- كم عدد سكان المدينة؟

فقاطعه شمعون دون انتظار الجواب:

- وسكان العالم؟

وسأل يعقوب من جديد:

- أجل، من هم سكان الأرض، ما عدانا نحن اليهود؟

ولم يكن يوسف ليترعج من أسئلة الأولاد، بل يحبّ أن يعلّمهم. وتخلى قليوفا ومردخاي له عن هذا الدور الذي يلائم التنشئة التي نالها بصفته الولد البكر. فأجاب:

- هناك الرومان واليونانيون والغاليون والسوريون والآدوميون والعيلاميون والمصريون والموآبيون.. لا يمكنني تسميتهم كلهم...

- هل عددهم أكثر من عدد أصابع اليدين؟

- أكثر بكثير.

- هل يصلّون معنا؟

- بوسعهم أن يفعلوا ذلك، شرط أن لا يتجاوزوا الرواق المخصص للغرباء.

- ويسوع، أين سيكون موقعه في الهيكل؟

- سيدخل من الباب الملوكي، ولدى الوصول إلى الباب البرونزي، المدعو باب نيكانور، ستترك أمه يده، لأنها هي ذاتها لن تستطيع تجاوز عتبة هذا الباب، وأنا الذي سأقوده الى هناك. وسيصبح "بار أونيش"، أي إنه سيحق له الدخول إلى فناء الإسرائيليين، وسيحق له قراءة "الباراشا" "والهافتار" في المجمع. وهكذا سيصبح، ككل يهودي، كاهناً في إسرائيل.

فرفع يعقوب يده، وسأل:

- هل سيدفع يسوع الضريبة؟

- سيدفع العشر الإلزامي.

واشترك جميع الأهل والأصدقاء بمبلغ من المال لشراء وشاح جديد للصلاة لم يلبسه احد، هدية للمرشح للقب "بار أونيش"، وتكريماً له بهذه المناسبة. لقد كانت هدية رائعة، تشابكت فيها الشراشيب البيضاء مع الخيوط الزرقاء، كما أراد موسى. أما اللون فكان مستخرجاً من صدفات لم تعد توجد في السوق منذ أن تعرضت الطرق للمخاطر.

فسألت أستير:

- ولماذا هذا اللون النادر والغالي الثمن؟

- لأن اللون الأزرق هو لون البحر، والبحر يشبه عرض المجد الإلهي الذي جاء عنه ما يلي: "تحت قدميه وضع الله حجراً من الياقوت".

وكان الصبيان يحسدونك. فقال لهم أبوك:

- سيأتي دوركم أنتم أيضا.

وفي الصباح تلا المزمور الذي يرافق الحجاج.

- أيها العلي إلهنا! تعطف واعضدنا في هذه الرحلة، قُد خطواتنا وأوصلنا إلى ميناء السلام. أوصلنا إلى تحقيق رغباتنا، ولتكن للحياة والفرح والرخاء. أصغ إلى تضرعاتنا، لأنك الإله الذي برأفتك تسمع الصلاة.

فأردف قليوفا:

- لن يصيبك الأذى، ولن يقترب من خيمتك أي مكروه، لأنه سيوصي بك ملائكته، ليحرسوك أينما حللت.

ثم مال إليك واستكمل:

"في مسكنه ستعرف أنك موسوم بسمة إبراهيم. لا تنس ذلك أبداً يا ابن إسرائيل...".

إذا كانت جنة عدن في فلسطين، فبابها هو في بيث شآن التي تدعى في اليونانية سكيتوبوليس. هنا تكثر الينابيع، والهواء عليل دائماً، مما يجعل الغلال وفيرة وغزيرة. وترتفع أشجار السرو على حوافي الحقول، فتوفر الظل لنباتات كثيرة ومفيدة. فيا لسعد سكان مثل هذه الحاضرة!

وفيما كنا نشاهد على جانبي الطريق آثار المعارك الأخيرة، من بنايات محترقة، وحيوانات نافقة، لم نعد نر شيئاً من ذلك لدى اقترابنا من بيث شآن. بل بعكس ذلك كانت تردنا، في ضياء الليل، أصوات الأغاني المبهجة، ووهج التنويرات. فقال دليلنا:

- الوثنيون في عيد.

ثمة أماكن تبقى خارج نطاق الضربات. غير أن الواقع هو أن المحتلين قد رسخوا أقدامهم فيها، بحيث يتحاشى اليهود التحرش بها. فأدلى يوسف برأيه قائلاً:

- إن بيث شآن أهم حواضر المدن العشر، وقد فضلها القائد بومباي عندما احتل البلاد. فاليونانيون والرومان يتقاسمون الأحياء الجميلة داخل الأسوار، أما أبناء جلدتنا فيجتمعون في أحد أطراف المدينة السفلية من دون دفاعات. وبما أن الحديث عن الأسوار، فلنصلّ من أجل الملك شاول الذي علّق على هذه الأسوار، بعد أن اخترق الفلسطينيون جسمه بالنبال.

- ولكن سكان جلعاد أخذوا الجثة وأحرقوها، ثم دفنوا العظام تحت أقدام شجيرة الطرفاء في ياووش، وصاموا سبعة أيام.

- جيد يا بني. أرى أنك تعرف تاريخنا.

واستضافنا صديق قديم من جيراننا في الناصرة، وهو رجل تقي ومضيف للحجاج. وبعد تبادل الشالومات بصفاء القلب، انفتحت شهيتنا، صراحةً، بعد أن انفتحت قلوبنا. وكرّمنا مضيفنا بغداء دسم، قوامه جدي مشوي، وقد أكلت منه بشهية. وكنت تحظى بالحصة الفضلى، وتحاط بهالة من التكريم بفضل ترقيتك المقبلة.

وبعد ليلة مريحة تذرع يوسف بحجة التزود بالطعام، فتشجع وأخذنا إلى السوق اليهودي، وفي نيته أن نقوم بجولة في القسم الوثني من المدينة. فلقد كنت، بالرغم من رحلاتك إذ كنت طفلاً، لا تعرف سوى الجليل، وتخصيصاً الناصرة وجبل طابور وبحيرة كينيريث. وفي بيث شآن كان الزائر يرى في القسم الأعلى للمدينة طراز البناء لدى اليونان، والرومان، لاسيما في دور العبادة لديهم، ويقارن ما بين أساليبهم وأساليب بنائينا. فلقد ذكرتنا الخطوط المستقيمة في البناء والرصف، والأعمدة والأنصاب بمدينة بيلوسة. كنت أتبع خطى يوسف، ولكني عجبت من رغبته في إتاحة المجال لك بالتجوّل والتمتع بمثل هذه المشاهد المشككة المتمثلة في مجمّع الأصنام والإلاهات العارية وتماثيل المصارعين، وأن يفعل ذلك في مناسبة حج فصحي يتطلب الهدوء والاختلاء حول التوراة. وبادرك، كما لو قرأ أفكاري، وجذب انتباهك إلى نوعية المواد المستعملة، مثل الحجارة الشقراء ذات اللمعة اللمساء المستخرجة من مناجم اليهودية. ولاحظ أمامنا كثافة البساتين وتنوع ثمارها.

– كل هذا ملكنا. إنه هبة منحنا إياها الله، و لم يحرمنا منها إلا ردحاً من الزمن. سيأتي يوم سيعيد إلينا كل هذه الأشجار: الطرفاء، والدفلى، والطلح، والعنّاب، والميس، والسرو، والنخيل ذو المراوح الضخمة: ثروة وجمال وهبهما الأزلي لأجدادنا بنعمة الاختيار. وينقل الكتاب إلينا ما يلي: "لقد أعطيتك حقولاً لم تحرثها، يقول إلوهيم، وكروماً لم تعمل فيها". وجمعت في خماري، ليس رائحة الورد أو الزنبق، بل روائح الأعشاب المسكية الدسمة التي هي من حصة الأغنياء والفقراء. وعندما بلغنا السوق اليهودي ملأنا سلالنا فواكه وحبوباً معشّرة. ونظرت إليّ نسوة روميات بتفحص، وهن يُحطنَ رؤوسهن بشرائط معقوصة بالأقراط، وهن يتضاحكن من دون حياء. لقد كن مختلفات عني كثيراً بزيهن ومشيتهن، وتضايقتْ كما لو تعمدتْ التميّز عنهن ببساطة مظهري. وفرحت لأني تخليتْ عن جنة غيّر وجهها وطبيعتها الوثنيون.

وكانت المدن والقرى تتهيأ للعيد. و كانوا في مينولا يكنسون الشوارع، ويصبغون الجدران، وينشفون الثياب في الأفنية، ويرتب العمال أدواتهم استعداداً لأسبوع طويل، وكانت صبايا لعوبات قد احتللن منابع العيون، وهنّ يتحدثن باتجاهنا:

– إنهم حجاج في طريقهم إلى أورشليم. إنهم من الجليل.. نبرتهم تدل عليهم.

وقدمت لنا نسوة أخريات زوادة للطريق، مع حشائش وبيض لعشاء "السدر". وملأت إحداهن ظرفي حليباً حاراً ومنعشاً. وقالت:

– هذا للأولاد.

ثم أضافت:

– هناك بعض الحجاج على أهبة السفر، وقد التمسوا أن ينظمّوا إلينا، ولكننا كنا ملزمين باتّباع تعليمات رئيس القافلة، أي بالبقاء ضمن عدد قليل، احتياطاً للتبدد بسرعة، إذا ما تعرضنا للخطر.

الخطر؟ كيف أصدق إمكانية تعرضنا للخطر في هذه المدينة الفصحية بين إخواننا الذين يتنقلون بانشراح، ويعرضون علينا هدايا ترمز إلى السلام؟ فلقد منحنا القدوس، تبارك اسمه، نهوضاً مفعماً بالعافية والألفة بعد القلق!

وعندما غادرنا أريحا غطت الغيوم وجه السماء، وانفجرت عاصفة هوجاء. ولدى وصولنا إلى الهضبة المشرفة على الخلجان، تبددنا شذر مذر. وأمسكتك من ذراعك لئلا تقترب من الحافة وتميل إلى النظر إلى عمق الوادي الذي يتضخم السيل فيه. وعندما كف المطر، حدثت المعجزة، فصرختْ:

- أنظر إلى فوق وليس إلى تحت.

وظهر قوس قزح في عز كماله، كالذي ظهر لنوح. فانتشل صرخة إعجاب من كل القافلة. وأشرت بإصبعي إلى هذه العلامة التي ربطت ما بين السماء والأرض، بعد الطوفان، وجاءت من عمق الزمن لتوحد الخليقة كلها مع الخالق.

- كل الخليقة؟ حتى العصافير؟

- طبعاً، تذكر الحمامة التي خرجت من الفلك وعادت إليه مع غصن الزيتون في منقارها.

- والوثنيين أيضاً؟

- نعم..الوثنيون في وقت لاحق.

وبعد هذه الرحلة التي استغرقت أربعة أيام شعر أبوك بالتعب، فاضطر إلى التوقف عدة مرات. إن الطريق الصاعدة إلى أورشليم هي الأكثر صعوبة، ولكنها الأكثر إثارة في كل الرحلة. فالاقتراب من المدينة المقدسة يدعو إلى التأمل ويحث العزيمة إلى تجاوز الذات. فلتكن مباركة جبال يهوذا، لأنها مرحلة تقشف وتطهر! ثم بلغنا الأراضي الخاصة بمحاصيل الهيكل. فقال يوسف:

- تشجعوا لقد اقتربنا. أترى يا بني. عندما تلاحظ فراغاً قوامه ثلاثة خطوط تفصل بين الحقول، فهذا حقل يخص أحد تلاميذ شمعي. أما هيلّيل فهو أكثر تسامحاً، حيث يبيح فراغاً أضيق بقياس نير واحد. وهذه الأشجار المحاطة بشريط أحمر هي مخصصة لعُشر الكهنة.

تقع بيت عنيا، وهي المرحلة الأخيرة من الطريق، في ظهر أورشليم، وبسبب هذه الجيرة تتحمل كل التأثيرات السلبية. وتكون الجماهير في أيام الأعياد دوماً كثيفة: أناس قلقون، سريعو الغضب، مستعجلون للوصول، وكنا نحن من الصنف الأخير. وكان الليل قصيراً، وكانت القافلة جاهزة للانطلاق منذ الفجر. أما أنت فكانت عيونك تراقب، بكل اتساعها، هذا المشهد الذي جاء بمثابة مكافأة لانتظارك الطويل، مما جعلك تتعثر عدة مرات على الطريق الحجري [...]. أما أنا فكنت حريصة ألا أفقد، لا زوجي ولا ولدي.

الفصل العاشر

أمام ملك الكون

وكنا نستعد للمثول أمام ملك الكون. وتمتمت صلاة خجولة: "ليتلطف ويستقبلنا في مسكن اسمه". وجاءت زيارتنا اثنتي عشرة سنة بعد نداء النعمة الذي أطلق لصالح طفلي الوليد، ورجوت من الرب أن يعضدني أنا ويوسف لنستمر في التزامنا رعاية هذه الحياة التي في حوزتنا، حياة ابني! لا يستطيع المرء أن يخادع في حضرة القدوس. فإذا نظر كل يهودي إلى نفسه في مرآة التوراة، لانكَشَفَ لذاته بصورة أفضل، كونه ينظر إليها في حضرة الذي يفحص القلوب والكلى. وبعد أن تطهرت بالغسولات القانونية، دهشتُ من جسارتي إذ طلبت من الآب جواباً لطلبتي.

إني أستعيد الصورة، في ذلك الربيع، وأنا أعاين هذا الغصن الغض لشجرة داود كيف يشق صفوف الجمهور؛ هذا الجمهور الغاضب من نقاط التفتيش العسكرية المتكررة، والخائف من احتمال وقوع مآسي جديدة لا تنتظر سوى شرارة كي تستعر. وفي محاولة للاحتفاظ بهدوئه، أراد يوسف القيام بزيارة المقدس، وكان عارفاً بأسراره أكثر من أي أحد، لأنه سبق أن أصلح أعمدته. فبادر وقال:

– يرتقي الهيكل نحو السماء بطوابق متعاقبة. ففي القمة يرتفع قدس الأقداس، عرش الأزلي المنظور. وتحته المقدس حيث يتحرك خدامه وذوو المقامات الكهنوتية. وفي الأسفل يمتد رواق الإسرائيليين، رواقنا. أخيراً يأتي الفضاء المخصص للوثنيين حيث يمكن لجميع الناس المدعوين إلى الخلاص أن يدخلوه.

ثم أخذ يصف الأعمدة:

- طولها عشرون ذراعاً، وهي منحوتة من حجر مرمر واحد. عرض الأروقة الخارجية ثلاثون ذراعاً وطولها ستون فرسخاً. وهناك ثمانية أبواب أجملها الذي أهداه نيكانور، وهو من البرونز الحر، ويتطلب فتحه لا أقل من ثمانية لاويين. ومن البرونز أيضاً كأس الغسول المدعو بحر النحاس الذي يحمله اثنا عشر ثوراً بالحجم الطبيعي، متجهين بمجموعات، ثلاثة ثلاثة، نحو الاتجاهات الأربعة. وينفصل المقدس عن رواقنا بستار أرجواني بنفسجي اللون، طرزت عليه رموز البخور، وبجانبه يستوي الشمعدان السباعي الأطراف، ومائدة خبز التقدمة الذي يتجدد كل سبت.

وكان يوسف كالنهر المتدفق حين يركز على شرح معاني أواني العبادة: قناديل الشمعدانات السبعة تمثل الأجرام السبعة، والخبزات الاثنتا عشر تمثل علامات الأبراج الاثني عشر، وأنواع العطور الثلاثة عشر المخصصة للمذبح تشير إلى أن الله وحده يسيطر على الأشياء كلها... وتلا يوسف المدراش الذي يتكلم عن قرار داود في بناء بيت للأزلي: "يملك ملوك الأمم قصوراً فيها موائد وشمعدانات وكل أنواع العلامات الملكية، وأنت يا محرِّرنا ومخلصَنا لا يكون لك ما يظهر لسكان الأرض أنك ملكنا؟". وبعد أن ثبَّت يوسف هذه الملاحظات، أشار إلى تردد سليمان في نصب تابوت العهد في قدس الأقداس: "أيسكن الله مع البشر على الأرض، وهو الذي لا تحده السموات؟".

لقد استمرت دروس أبيك تعلمني حتى بعد أن ترك شعب الأحياء، ولازلت حتى اليوم استذكر وسع علمه وقوة أحكامه، وقد نلت أنت أيضاً قسطك منها. ولاحظت وجهك قد تجهّم عندما اجتزنا ساحة الهيكل، لأننا مررنا تحت ظل النسر الإمبراطوري الذي أعاد الرومان وضعه فوق الباب الرئيسي، وقد أطلقوا عليه اسم باب كوبونيوس. وكان الجنود يحرسون المدخل تحت ظل قلعة أنطونيا التي تطل عليه، كما تطل على الرواق أيضاً. ولكن ذلك لم يكن السبب الوحيد لحزنك.

فسرعان ما لاحظت عدد العرافين، وتجار البهائم، وجشعهم، وصلافتهم.. بكلمة واحدة، لقد أبصرتَ نزعة التهافت على الربح، التي ترافق الاحتفالات دوماً. ولم نجسر، لا أنا ولا يوسف، أن نتفوه بكلمة، لا تأييداً ولا شجباً، وإزاء معرفتي معاني صمتك في ما يخص مشاعرك الداخلية، تمنيتُ لو تغضّ النظر عما لابّد منه، كما يفعل الآخرون.

ونزعنا أحذيتنا في المدخل المزدحم وتخلينا عن أكياسنا وعصّينا، كما تتطلب الأعراف. وفيما كنا نجتاز رواق الأمم، ورواق النساء، شددت على يدك، ثم سلمتها لأبيك. ورأيتكما تجتازان سور المختونين من دوني...

لقد جاءت الساعة، ساعتك، يا بني؛ ساعة مشاركتك في الذبيحة لأول مرة في حياتك كرجل. وكانت الخراف تتدافع في ذلك الركن، وعين كل مقرِّب على خروفه. وتشاركنا نحن في شراء خروفنا مع رفاقنا مردخاي وقليوفا. وتذكرت اني في مثل سنّك كنت أشفق على الخرفان، وكان خطيبي يعود إلى النص الكتابي ليقول:

– الرب ذاته أملى هذا الطقس على موسى.

لم أتحرر أبداً من قلقي تجاه الدم، وحتى ذلك اليوم ذاته هنأت نفسي بأن يكون مردخاي هو الذي يغرز السكين في عنق الخروف، لا يوسف. وفكرت بأنه علينا توليفك مسبقا مع هذه الجوانب الطقسية، المختلفة تماماً عن القراءات التقوية التي تتلى في المجمع: حركة الجمهور وصخبه، الرائحة الباهتة للدم الفاتر بعد الذبح، إفرازات الحيوانات، تحليق الكواسر المنجذبة إلى هذه اللحوم المتكدسة التي يقال أن الذباب لا يحطّ عليها... لاشك أن الطفل يقبل كل ما يمليه عليه مربوه أول ما يفتح عينيه على العالم، أما الصبي فقد يعترض أو يتشكك، نظراً إلى طبيعته المتمردة أو رقة إحساسه. وكان أبوك قد شرح لك هذه الأمور بهدوء، ولو مع بعض التأخر:

– إن الله الذي يرفض الضحايا البشرية، يقبل تقديم ذبائح الحيوانات، ولكنه لا يقبل هذه التقادم إلا إذا قُدمت بقلب قادر أن يضحي بأعز ما عنده، على مثال إبراهيم. لذا، فمن دون استعدادات القلب، تبقى الذبيحة فعلاً فارغاً من معناه.

وانتصبت على أصابع رجليّ في وسط حشد النساء على الرصيف، كي أراك بين الرجال. ووقفت إلى جانبي يهودية من الإسكندرية، قد فقدت كل أثر لزوجها، وكانت تجهش بصخب. ولمحت وراءها امرأتين جليليتين تتناقشان حول الثمن الباهض الذي ما انفكتا تلومان نفسيهما على دفعه عن الخرفان... ووصل موكب الكهنة بحللهم إلى يمين الساحة، يسبقهم الكاهن المضحّي.

ماذا كانت مشاعرك في تلك الساعة يا يسوع بُنَي، يا ولدي الكبير؟ إن الذكريات التي تزحمني وأنا أستعيدها في ذهني تتحول اليوم إلى أسئلة تحاول خنق شكوكي. هل، ترى، كنا الأدلاّء المناسبين لك؟ هل شرحنا لك شريعة الرب كما ينبغي؟ [...]

إني أعود إلى هذا الحج الأول الذي قمنا به سوية. ولا أحب أن أستعيد ما حدث بعده. ومع ذلك... فبينما شددنا أمتعتنا وأخذنا طريق العودة، اكتشفت أنك لم تكن في القافلة، فأخطرت يوسف الذي صرح لي أنه لم يرك منذ الصباح. فكلانا لم نلاحظ غيابك في زحمة الانطلاق، وظننا أنك قد تكون في مقدمة القافلة مع الأدلاّء والصبيان. وجمد الدم في عروقي فجأة، أما أبوك فقد احتفظ برباطة جأشه، والحمد لله.

- إطمئني، سوف نجده.

ووجدناك فعلا، ولكن بعد بحث طويل ودموع الترقب. فإنك لم تغادر أورشليم، بل بقيت في وسط العلماء في رواق سليمان... فهرعت إليك وصرخت دون أن أدع يوسف يوقفني:

- لماذا فعلت ذلك بنا؟

فالتفتوا إلينا مستغربين، وأجبتَ:

- وأنتما، لماذا بحثتما عني؟ ألم تعلما أني يجب أن أكون في خدمة أبي؟

فتملكتنا الدهشة كلينا. وبدونا أمام قناعتك ونبرتك الظافرة كعجوزين أُمسِكا في خطأ، عاجزين عن فهم أقوالك وسلوكك. فقلت أخيراً:

- أنت محق!

وأعتذر يوسف عن انتشالك من حلقة العلماء، فوافق شمعي الشيخ على ذلك، وحَيَّيتَ كل واحد منهم وتبعتَنا مرغماً.

وعاد هدوئي إليّ في الطريق، أما أنت فشرحتَ لنا كيف أن العلماء ألقوا عليك أسئلة عديدة، فأجبتهم بأسئلة جديدة من عندك، وهكذا دواليك. وقد أيّدك شمعي في ذلك.

- إن الأسئلة هي الطريقة الفضلى للتقدم في فهم الشريعة.

إن معجزة علمك لم تأتك من دراسة "الياشيفا"، بل عزوتها إلى مواهب روحك التي كانت تميزك عن سائر الأولاد. فكل جواب من إجاباتك كان يصدر عن قوة خاصة... بماذا كنت أفكر عنك؟ إني لم أختر دعوتك، فلقد كانت مرسومة من دوني. وعندما نقلت خطابك إلى يوسف قلت له:

- يا ليته أقنعهم، يا ليته يقنع دائماً!

فأجابني:

- ما أكثر الذين يخافون الحقيقة!

ثم أردف:

- إذا قُبل يسوع كابن للأزلي وعومل كذلك، فيحق له أن يناديه "أبي".

لم يعد يوسف بيننا ليوضح لي عمق فكرته، وليس لي إلا أن أضمرها. أما أنا فكيف أفسّر قلقي الجنوني، مع إني تلقيت علامات كثيرة. فبعد أن أنقذتك من قتل هيرودس، هل يجوز لي التفكير أن الأزلي قد يتراجع ويتخلى عنك؟

أما الآن وقد تم كل شيء، فسهل عليّ أن أستعيد ماضيّ وأهزّ أكتافي. ولكنه قلب الزوجة، وقلب الأم، الذي يستحق تقدير مشاعره وانفعالاته! إن الإيمان الذي يكلمني اليوم ويقودني لا يزيل الزمن وينفي مفاجآته. وإذا لم أستسلم للرعب، فلأن الظلال التي سرت فيها لم تكن صحراء جرداء أبداً. ومع ذلك لا أحد يمتلك القناعة التامة لذاته، حتى لو حصل على أنوارها واحتفظ بانعكاساتها بحرص.

في ليالي "السدر"، أي الفصح، التي كنا نحتفل بها في منزل ذويّ، وبعد تناول الطعام والشراب في أجواء الفرح التي سادت في حدث الخروج، كنت أستسلم للنوم مطمئنة مع أهلي، ومع الأرض والكون، بعد أن يكون الكبار أنفسهم قد خلدوا إلى الراحة: "ارتفع الأزلي فوق الشعوب، وارتفع مجده فوق السموات". هل سمعتني أرتل الهلاّل في عيد الفصح يوم بلغت الثانية عشرة؟ أما أنا فلا أزال أسمع صدى صوتك وسط الجمهور وأنت تطرح الأسئلة الطقسية المعتادة:

- لماذا تختلف هذه الليلة عن سواها؟

وصوت يوحنا ابن خالتك سائلا في نبرة أكثر خشونة:

- لماذا نأكل خبزاً فطيراً في هذه الليلة؟

فيجيب أكبر الحاضرين سناً:

- إنه فصح الرب. أعياد الفطر تحفظون، لأن الأزلي أخرجنا من مصر في مثل هذا اليوم بيده القديرة وبذراعه المبسوطة.

أينما كنا، أفي أورشليم، أم في سيناء؟.. فالأجيال المتعاقبة منذ حدث الخروج قد أنجبت أسرة واحدة تترك أرض الفراعنة بالفكر كل سنة. وفي ليلة "السدر" يتوحد كل شيء، فالبارحة يصبح اليوم، واليوم يصبح البارحة. يسأل الأزلي الطفل، ويجيب بفم الشيخ، ويجدد الوعد، بعد أن يبارك المحتفل خمرة الكأس الرابع، قائلاً: "أنتم شعبي، هليلويا!".

إني فخورة بأن أنتمي إلى هذا الشعب المنفصل المصطفى من قبل الله لحفظ كلامه. وعندما يغطي المحتفل رأسه بوشاح الصلاة، إشارة إلى حضور الضيف الأعلى إلى مائدتنا، أشعر بثديي يمتلئان. عبثاً يمتلك الاممين الذين يحتلونا القوة والجبروت، فهم لا يستقبلون ملك الكون على موائدهم. لا حياة لأصنامهم، ولا فم ولا عيون ولا آذان؛ لقد صنعتها الأيدي من الذهب أو الفضة، أما الأزلي، إلهنا، فهو روح يرى ويسمع ويتكلم ويسكن فيما بيننا. عندما نكون سعداء، ليست سعادتنا هي التي تنعشنا، بل سعادة إلهنا. وإذا ما شعرنا بالبؤس، فالذي يؤلمنا هو أن يُهان إلهنا. أجل، إنه على مائدتنا، ونحن نقول له: "لا لنا، بل لأسمك يليق المجد".

في ليلة الفصح تلك، يا صغيري داود، كان حضور الله يلفك أنت أيضاً. كنت تقتسم الخبز مع المحتفل، وترفع الكأس إلى فمك، وتتذوق الحشائش المرة بعد غمسها في الخمر الحامض، وأنت تقول:

- مبارك من خلق ثمار الأرض.

لقد كنت بالغ الاحترام والتقوى، مثل ابن خالتك يوحنا، الذي يكبرك سناً، وقد جلس إلى جانبك. وفيما كنتما كذلك، إذا بابن صاحب الفندق، وهو طفل في الرابعة من عمره، يستولي على الكرسي الفارغ الذي يحجز للنبي إيليا، الذي سيأتي لدى ظهور المسيح. فلاحظ يوحنا ذلك، أول الأمر، فصاح:

- أنظر إلى النبي إيليا. أنظر إلى النبي، كم إنه صغير! هل سيقوم بتبشيرنا بالمخلص؟

ثم قال للصبي:

- أخرج إلى بّرا، وانظر هل جاء؟

فسحبت أم الطفل ولدها خجلى، أما الطفل فظل يحدّق في الباب لعلّ ضيفاً سيظهر، وإلا لِمَ أخذوه عن كرسيه؟

أن تستذكر حدثاً، معناه أن تعيشه ثانية. وعندما كنا نحتفل بالسدر في الناصرة، كان تعداد المدعوين مشكلة عويصة دوماً، سيما وأن العيد هو يوم بطالة. ففيما كان علينا إعداد كل شيء منذ الأمس، إذا بطارق غريب يأتينا في اللحظة الأخيرة، فتوجب علينا لياقةُ الضيافة أن نستقبله. أما في فندق أورشليم، فكانت اهتماماتنا بسيطة، لا تتعدى الهرولة إلى السوق لشراء عدد إضافي من البيض واللوز المحمص. آه! كم كان لذيذاً نزع الحذاء في البيت، والتخفيف عن الذات بترك كيس التبضع، والمناداة:

– مرتا، هل نسيت الهريسة، هل الحطب كاف للنار، في أي طبق نضع الخروف المخمَّر؟ قليوفا، كالعادة...

في ذلك اليوم، جئنا إلى الحج من الجليل بعدد كبير، إلى حدّ ألزمنا تقسيم أنفسنا إلى فريقين حتى بيت فاجي التي اعتبرت جزءاً من بقعة أورشليم المقدسة. وكان أنسباؤنا من عين كارم قد صعدوا هم أيضاً، ما عدا زكريا الذي كان قد توفي قبل عام. ومذاك شعرت إني أقرب إلى إليشباع أكثر من السابق، و لم يدر في خلدي إني أنا أيضاً سأصبح أرملة مثلها. وتكلمنا عن زوجها الراحل. فقالت بأنه لم يشف تماماً من محنته، وكان الجميع يأملون أن تطول أيامه نظراً إلى حياته الهادئة، وتخفيف خدمته في أورشليم. ولكن دون جدوى. أما إليشباع، وقد تسلمت إدارة أملاك العائلة، فكانت تخشى ألا تطول أيامها حتى بلوغ يوحنا أشدّه، فيأخذ مسؤولية معيشته. وفكرتْ في الانزواء في الهيكل حيث تعيش بعض أرامل الكهنة في جماعة. ولكن يوحنا لازال هنا:

– إن هذا الولد هدية من الله لنا وإنعام من عنده، أشكر الأزلي كل يوم عنه. لقد رباه زكريا كما يربي يوسف يسوع اليوم. وعندما كنت أقلق على مستقبله، كان والده يسدّ فمي بقوله: "ابننا سيحفظ الوصايا، ويحترم التقاليد، وسيتكفل القدوس بالباقي". و لم يضعف إيمان زكريا إلا مرة واحدة، فعوقب!

إذا توقفت عند هذا "السدر"، يا بني، فلأنه كان قمة الاحتفالات التي اشتركتما بها في فتوّتكما، أنت يا ابني وابن خالتك يوحنا. لقد كنت أنظر إليكما، وإلى يوسف وإليشباع نظرة حب وقلق في آن واحد، لأني أحسست أن السعادة التي نتذوقها في مثل هذه الاجتماعات، قد تهرب منا قريباً. وفي توقفنا في بيت عنيا ارتبطتَ بصداقة مفاجئة وعميقة مع لعازر، وكان لعازر صبياً أصغر منك، شغوفاً بالنظر إليك. أجل، لا مجال للغرور أمام إعجاب صبي أصغر سناً، أما أنت فبدا عليك الاعتزاز، وعبّرتَ له عن اهتمامك به برقة، وتوقفت عن الكلام عندما أخذ يتكلم هو، مما لم تكن تفعله مع يوحنا، وإذا كان يوحنا يثير إعجابك، فلأسباب أخرى. لاشك أن روح يوحنا الطاغية، بعض الشيء، كانت تشكل ثقلاً على علاقاتكما. فلقد كان يوحنا ينحو باللائمة على الخنوعين والفاترين، وكان، كلما تكلم عن الكاهن الذي يقدم ذبيحة يومية عن القيصر، يصرخ:

– كيف لا يرتجف السكين بين أصابعه؟

ثم يتنهد ويقول:

- يشبه الهيكل رجلاً مهاناً...

وكان الهيكل، بالنسبة إليه، عالم زكريا أبيه! وبوصفه ابن كاهن، كان من الطبيعي أن يثور لمثل هذه التصرفات. لقد كنت تؤيده أحياناً، وأحياناً أخرى تسكت. خلاصة القول: كان يوحنا بالنسبة لك هو الأكبر سناً، ولكنه الثاني بعدك. ومن حيث هو يتيم، ومضطلع، من ثم، بمهمة رب العائلة، كان يفرض نفسه عليك، ولو مع بعض التحفظ. فبينكما أنتما الاثنين، لم ألاحظ شيئاً من هذه الألفة التي تجمع ما بين الإخوة أو الأنسباء. ولكن ذراعاً قوية كانت تجمعكما جنباً إلى جنب.

الفصل الحادي عشر

صورة أبيك

لا أستطيع التفكير بسنوات طفولتك ونضوجك دون أن أرى صورة أبيك. يا طالما أضاء الصالة وأضرم النار للتدفئة حال عودته من دكان النجارة. لقد أحببت دوماً أن يكون البيت ممتلئاً، وكان بيتنا نحن ملتقى لجميع الأعمار، مع رجوح عنصر الصغار. فلقد غنمت مائدتنا، كما قلت، وجوهاً جديدة، حيث كان يجلس أنسباء لنا، وأبناء إخوة وأخوات قادمون من الريف، وكنت تبدو كمعلم وسط هذا الفريق الصغير. وكانوا، بالرغم من مشاكساتهم ونوادرهم يسمعون كلامك، وكان أبوك مندهشاً، دون أن يظهر ذلك. لقد تعودت على حركة عينيه وزاوية فمه عندما ترق عاطفته. وكان يأتينا كل يوم بقصة ذات عبرة، أو حدث يستخرج منه درساً، مستنداً دوماً على آية من توراتنا، لأنه كان يحب أن يقول بأن لا شيء أقرب إلى الكتاب الأبدي من كتاب حياتنا المرسوم، يوماً بعد يوم، على رمال الزمن.

هل كان قد عَلِمَ أبوك أن أيامه قد اكتملت؟ فلقد دأب على توسيع دورك أكثر فأكثر في البيت. وقد كان هو نفسه أيضاً البكر مثلك، وعلى خطاه توجب عليك أن تأخذ مسؤولية العائلة، وقد دربك على هذه المسؤولية هو نفسه. لقد فرض الصمت على الأطفال أثناء الطعام، لكي يترك لك مجال الحديث، وأنا نفسي كنت أقدم الطعام لك أولاً بعده، وإذا وقعت مشكلة ما، فإياك كان يستشير أولاً. وفي احترامه الشديد للقدم، لم يقبل أن تتخلى عن دورك، حتى في العلاقات الحميمة. ولكنك، والحق يقال،

كنت أنت نفسك تتغير. فلم نعد نعرف ممن هو ابن الأنوار، ذو الثياب الممزقة، بسبب صراعه مع ابن الظلام، كما كنتم تلعبون أيام الطفولة. و أصبح الطفل القروي المشاكس شاباً يقول لأخيه:

– ما لا تحب أن يفعله الناس بك، لا تفعله لغيرك.

لقد أجبت إلى الحنان الذي أحاطك به أبوك بعمق احترامك تجاهه. فلقد عرفت أن تواضعه كان يتخذ شكل الاحترام واللياقة أمام الناس تجاهك، وكان طهراً أمام الله، و لم يتجاوز ذلك إلا في الأوقات الحرجة، أي عندما ينبغي على رب العائلة أن يتخذ موقفاً، كما حدث على طريق مصر، إذ شعرتَ فجأة بأنه هو السيد المطاع. لقد كان صبوراً ودقيقاً في دكانه، ويحب المهنة التي ورثها عن أبيه. وكان يحب أن يوضّح أن في زمن داود وسليمان لم يكن ثمة نجارون، بل كانوا يستقدمونهم من أهالي صور. وما تعلم اليهود صنع الخزانات الخشبية، والأبواب والنوافذ، وبناء السلالم إلا بعد حدث الخروج، ولكنهم أحسنوا اختيار أخشاب الشجر في الغابة، وطريقة تقطيعه وتفصيله. وقد طور يوسف أيضاً مهنته، وكان البيت أحياناً لا يفرغ من الزبائن الذين جاؤا، هذا في طلب معجن، وذاك بحثاً عن دفة محراث، والآخر ليوصي بمكيال، وغيره راغباً في إطار سرير. وكان أبوك يفضل خشب الجوز الصلب الذي يقاوم الدودة، أو خشب الأرز الجبلي، أو خشب الجميز الباشاني. وكانت تستورد هذه الأخشاب من بعيد، وهي نادرة وغالية الثمن، وكان عليه أن ينتظر طويلاً للحصول عليها. لذا اكتفى في معظم الأحيان بخشب السرو أو الزيتون الذي ينمو في المنطقة. وكان يحسن خدمة هذا الصديق بكل عفوية، دون أن يكسر خاطر الآخر. "لا تفضل الضعيف، ولا تعط الأولوية للكبير". لقد أتاح له هذا المبدأ تحاشي الدخول في خلاف مع أحد، لا مع الكاتب، ولا مع الفلاح، ولا مع نسائهم خاصة.

إني أتكلم عن يوسف كما لو عرفت شخصيته معرفة تامة، ويحلو لي أن أعتقد ذلك، غير أني عالمة أن ذلك مجرد ادعاء. ولكي تحكم حكماً صائباً على قريب لك، يلزمك الابتعاد عنه بعض الوقت: وقد اختبرت ذلك معك، يا ولدي. لقد حكيت لك ما قالته أمي عن والدي:

– لقد آمن، ومع ذلك أنا متأكدة من أنه لم يستطع تحاشي الشك يوماً!

لقد تشكك يوسف من قوة هذه المكاشفة، وسوف أحجم عن قول الشيء ذاته عنه. ولكني أبوح بأني رأيته يتألم من قلق الروح، والشكوك التي تساور السلوكيات،

وتردد الإيمان، وضياع القلب؛ ولم يكن في مأمن من الحيرة والشفقة على شعبه. هذا ما أستطيع تأكيده. أجل!

لقد كان باراً: قالها عنه فريسي سيفوريس صموئيل، وقالها أهالي الناصرة عندما هرعوا للبكاء على جثمان صديقهم وأخيهم. لقد كان باراً بطبيعته، وحسناً فَعَلَ ذويّ عندما أودعوني في ذمته. وإذا كانت علامات الحب تظهر في الاحترام الممزوج بالتقوى مع البذل، فبوسعي أن أقول بأنني أحببتُه منذ الأيام الأولى، ومنذ أول كلمات تبادلناها على السطح. هل أعطيت له بالكفاية؟ ما بذلتُه لابني البكر، ألم يكن مقتطعاً من حصته؟ مثل هذه التساؤلات تستيقظ عندي اليوم، وقد بدا الزمن يهرب من عمري. أما آنذاك، فلم يكن ثمة فراغ في أيامنا المشحونة في بيت الناصرة. وكنا، أنا ويوسف والأولاد وكل الذين يأويهم سقف بيتنا، نستيقظ باكراً، ونخلد إلى النوم قبل سقوط الظلام، اقتصاداً في زيت السراج. وكان النهار بأكمله مكرساً للعمل. وبعد الصلاة والغسول كان يوسف يلقي نظرة إلى السماء من عتبة الدار: استشهاداً بها، أو لتحيتها، أو شكرها، أو استرحامها، أو لمجرد مشاهدة القمر وهو يختفي. ولم يكن يعود من العمل إلى البيت إلا مساء، وقد سبقتُ وقلت ان عودته كانت تغمرنا فرحاً.

- في عيد الهلال القادم سأتوقف عن العمل.

لم يكن أحد واهماً، ولا هو نفسه. إنما تلك كانت طريقته في التأكيد على استقلاليته كعامل يدوي، وفي الاعتراف بتقدمه في السن، وإعلان ثقته بالشباب الذين سيأخذون المهنة عنه. وعندما كانوا يسألونني عن مرضه، لم أكن ادري بماذا أجيب، فهو لم يتشكى من شيء يوماً. لقد أسلم الروح من عينيه، مثل والدته، وقد ضممتهما أنا بيدي. لا أظن أن أعضاءه تألمت من المجابهة الأخيرة. فلقد وجد مردخاي جسمه مرناً وكأنه جسم حي عندما لفّه بالكفن وشدّ ذراعيه وساقيه باللفائف.

إني أراك من جديد بيننا، يا يسوع، في ذلك السبت المحزن، وقد رسمت خطوط لحيتك الحديثة على حنكك، بل ظهر ظِلُ لحية ناشئة على خديك، ولم تكتمل رجولتك بعد. إن مفاجأة الحدث لم تسمح لنا بإخبارك، آنذاك، فلقد غادرتَنا منذ أسبوع ولم نعلم أين نجدك. وكان ذلك أول غياب لك، تبعته غيابات أخرى عديدة. وحضر الجميع حول جثمان الميت، ما عداك أنت. ولم تغلق عيني الذي طالما نظر إليك. لم تشرف على غسله الأخير، ولم تدفنه بيديك. وبعد مراسيم الدفن رأيتك واقفاً في الصالة الفارغة، وقرأتُ عمق الألم على قسمات وجهك. ومكثتَ معنا عدة أيام. وجلستَ صامتاً في

المكان العائد للابن البكر في البيت الذي هزّه سقوط عموده الفقري. وشعرت بثقل أفكارك، وودت لو ضممتك إلى صدري. وكان الآخرون صامتين أثناء الطعام. ماذا تراهم ينتظرون؟ كلمةً تسندهم، وعداً ما؟ كلا، بل كانوا يتلفتون نحو موقع رئيس العائلة، كما يحدث في مثل هذه الحالات عادة. إذ ذاك، لم أعد أسمع سوى دقات قلبي، فهرعت إليك يا ولدي، وضممت يديه في يديك، وقبّلتُهما.

وكان عليّ أن أعيد ترتيب البيت في غياب الغائب وأقبل وضعي الجديد كأرملة. وعشت الأيام الأولى في الأسى، آوية إلى فراشي محطمة وغارقة في الدموع [...] وكنت أدعوك، يا يسوع، وأنت غائب لا تسمعني. إنه لمن الغرور أن ينسب المرء ثواباً لنفسه، ومع ذلك أظن أن الأزلي، إذا غمرني بلطفه يوماً، فذلك بفضل الصلاة التي سندتني في قبول مغادرتك. لقد رغبت دوماً، ومنذ سنوات طفولتك، أن تمنحني ما أرجوه منك. وبعد مشقة كبيرة أعدتُ إليك ما أعطيتنيه، وتوقفتُ عن التماس الجزاء عما أعطيتُه. وقلت في نفسي لعلك كنت محقاً في ترك المنزل، متخلياً عن مسؤوليتك وعن حقوق البكورية الخاصة بك. لقد فكرت في ذلك ملياً، ووضعتُ حبنا في إطار حب أكبر. هكذا أراد القدوس تبارك اسمه. متى؟ لا أهمية لذلك، فأنا أرملة وحسب، ولا يمكنني فهم كل شيء. ألست أرملة ووالدة ابن غائب؟

ومن باب تسهيل شؤوننا، جاء مردخاي، شقيق يوسف، وعاش معنا في المنزل مع زوجته أستير. وكان مردخاي أصغر من يوسف سناً بكثير، وكان يقظاً ونشطاً، فاتخذ بعض الخطوات التدبيرية بخصوص الصبيان، فوضع يعقوب في المشغل كتلميذ صانع، ويهوذا عند إيساخار الذي عاد ففتح دكان الفخار، وسلّم شمعون إلى جارنا ليعمل معه في الحقل، وأرسل يوسي إلى مدرسة المجمع. لقد كانت هذه القرارات صائبة وأيدتُها. ولكني وجدت صعوبة أكبر في الاتفاق مع أستير في الظروف الأخرى الصغيرة من الحياة اليومية. وتركت لها صلاحيات أوسع، شيئاً فشيئاً، إذ لم يَعُدْ بوسعي أن أمارسها بَعدُ، ولا بقي ذوقي السابق على ما كان.

لم تكن حالي تعيسة في نظر الناس. فجيرة بيت قليوفا تتيح لنا تناوب الاهتمام بالأطفال، وكذلك مقايضة نصف كيلة قمح بكيلة زيت. ومردخاي يكسب قوته جيداً، وينظّم أسابيعه وشهوره بصورة معقولة. وزوجته أستيرامرأة خدومة وتقية. لذا لم ينقصنا الطعام، بل أظن ان احتياطيَ الحنطة عندنا كان أفضل مما كان إبّان حياة يوسف، وكنا ندفع العشر من دون أن نضطر للاقتراض.

لقد آلمتني مغادرتك، يا يسوع: فلقد أرغمتَني على إقناع نفسي يومياً، ولو على مضض، بأنك أحسنت في تركك إياي، وبأن الجسد حتى لو كان جسد الأم قد يتعرض للصدمات عندما يحب، وأن التفكير بك هو نوع من عدم الانفصال عنك. وفي ليالي غرفتي، كنت أستعر بحب الأمور السماوية، وأحسّ بفرح عارم للعمل، وبالإصرار على الثبات الذي تقاسمناه كلانا سوية. لقد قرّبتني منك هذه المقارنات وغيرها، مما أحببت التفكير بتفاصيله. وكانت مخيلتي تتبعك حيث أريد مرافقتك، حتى لو كان ذلك مستحيلا: فأراك في مجمع أورشليم الأكبر وأنت تناقش العلماء، أو في الهيكل وأنت تتأمل وتصلي. ولم أبحْ بشيء من ذلك لأحد، ولا جاء أحد على ذكرك. ولو حصل ذلك لتألمت كثيراً! ولكني كنت ألمح الأحكام عليك في النظرات والآهات، وكنت أقف إلى جانبك وحدي، وبسبب ضعفي الشديد، لم استطع فعل شيء من أجلك سوى في سرّ صمتي. وجاءت جماعة أسرتنا التي طالما تركتني لوحدي مع أفكاري، لتسندي في وحدتي وحزني وأساي.

وكانت زيارة إليشباع لنا بركة كزيارة مرسل من قبل الرب. فلقد شاء هيفار ودبورة أن يستصحباها إلى الناصرة، عالمين أنها لن تستطيع السفر لوحدها من دون رفقة بسبب وضعها الصحي وعمرها. والتمستُ منها المكوث معنا بعض الوقت، وأحَطتُها بكل اهتمامي وحناني.

- أنت أختي الكبرى التي باركها الله.

فابتسمت إذ ذكّرتُها بالكلمات التي استقبلتني بها في عين كارم. لن أذكر هنا كل ما يجمعنا، وقد سبقتُ أن أشرت إليه. فجميع أعضاء أسرتنا يعلمون خصوصية علاقتنا، لذا كان مردخاي وأستير وميريام وزوجها يتركوننا لوحدنا، ويضاعفون اهتمامهم بإعفائنا من أية خدمة منزلية. حتى الأولاد، تحاشوا اللعب بالقرب منا، علماً بأن الكبار منهم، أي أولاد ميريام، كانوا يتعلمون مهنة، لأنهم اجتازوا مرحلة بلوغهم الديني، وبقيت ابنتها وحدها ملتصقة بأذيالنا.

- إنها ندى الصباح!

بهذه العبارة قدمتها لإليشباع، وقد استغربت الصبية من هذه النسيبة الهرمة التي تجهلها. فقلت لها:

– كان زوجها كاهناً يخدم الهيكل، ويحرق البخور على مذبح البخور. وكان يقدم الخبز والفطائر المغموسة بالزيت..

– هل كان يأكلها؟

– طبعاً. ولكنه عندما هرم لم يعد بحاجة إلى الغذاء. حينذاك رفعه الله مع الملائكة.

وكانت تنظر إلى إليشباع ملياً، وتحدق في ثوبها الصوفي العتيق، وجدائلها الرمادية، وكانت مندهشة كيف يمكن لهذه المرأة أن تكون زوجة لرجل يعيش مع الملائكة.

وتمنيتُ في خيالي لو رزق الرب زوجة زكريا ببنت بعد يوحنا كي تعينها في ترملها وتسندها في أيامها الأخيرة.

وما إن أصبحنا منفردتين حتى أخَذَنا الحديث عن ولدينا.

– لم أستطع الاحتفاظ بيوحنا في عين كارم. إن الحب معناه الوقوف عن بُعد...

واغرورقت عينا إليشباع بالدموع. فقدّمت كرسيّ منها، وقلت:

– لقد ذهب إلى قمران عند الأسّينيين. فعقدنا مجلس العائلة، و لم نُخْفِ عنه شيئاً من حياة هذه الأخوّة، وتكلمنا معه عن تجردهم التام، وعن صومهم، ومقاسمتهم الممتلكات، وحياة الأخوّة، وكلها من خصائص الحياة الرهبانية. فأجاب إلى كل أقوالنا بكلمة واحدة: "أعرف".

فأضافت إليشباع بعد برهة صمت:

– لربما استهوته الحياة المشتركة. ولربما تألم من كونه وحيداً لا تحيط به أسرة كبيرة. إن الشباب يتعلمون كثيراً من بعضهم البعض، فهم يتناقشون ويتبادلون الأفكار. وبهذا كان يوحنا أقلّ حظاً من يسوع. فعددكم كبير في الناصرة، أما نحن فكنا منعزلين في عين كارم. وقد يكون تفكيري خاطئاً. فأنا أعزي نفسي بقولي: لازال صغير السن. ان الرهبان المسؤولين عن تنشئة المبتدئين يكونون فطنين عادة، ويدربونهم ببطء، ثم يتركونهم بعد ذلك أحراراً في إعلان نذورهم أو الانصراف.

فأجبت:

– من المستحسن، اليوم، أن ينتمي المرء إلى جماعة تأخذ بيده، ولكن يوحنا إنسان مستقل في ذاته. لقد دلّلته! هل تراه يتأقلم مع نظام الدير؟.اللهم إلا إذا أنضم إلى إحدى هذه الأخوّات الصغيرة المنتشرة في البلد، وهي أكثر حرارة في الاستقبال!

– إن ما يقلقني في قرار يوحنا هو خوفي من رفض زكريا له لو كان حياً. كم كان فخوراً أن يكمل ابنه عمله! أنا أعتذر، يا مريم، عن التحدث عن نفسي، فأنت أيضاً قد أصبحت أرملة. لقد كان يوسف رجلاً لن نأسف لغيابه بما يكفي.

– لقد كان اختيار أهلي موفقاً. هل تتذكرين خطوبتي؟ كنت تتمنين لي عدداً هائلاً من الأولاد... لقد تأثرت، حينها، من سخائك الكبير، وأنت عاقر. لقد صنع الرب بنا عظائم، قدوس اسمه.

وكررت إليشباع التبريكات التي اعتدنا عليها للرب، وكانت شفاهنا تصعدها عفوياً:

– يوقظ الأزلي النائمين ويبعث الحياة في الغافين. يعيد الكلام إلى البكم، ويسند الضعفاء. لتلهجْ قلوبنا باسمه القدوس.

لقد كانت تلاوة التبريكات بصوت واحد مع خالتي في السابق دواء لي، فَلِمَ لا نفعل ذلك اليوم؟ وسألتني السؤال الذي يحرق شفتيها، بعد الصلاة، وقد صاغته بشيء من الخجل:

– وابنك؟

وصمتُ برهةً خلتُها دهراً قبل أن أجيبها. وتوقفت طويلاً عند ذكر يوحنا لأتحاشى التلفظ باسم يسوع. ابني؟ أجل... وتجول نظر إليشباع في الغرفة باحثة عنه، ثم مدتْ بصرها باتجاه الباب. وقلّدتُ حركاتها، وأدرتُ رأسي، وبلعتُ ريقي. لقد تحققتُ، يا يسوع، بأنك لست هنا، وبأنك أنت أيضاً قد تركتني. وقمت بحركة معبرة، ولكني لم أتفوّه بكلمة.

وددتُ لو عانقتكِ بحرارة يا أختي إليشباع! فكلانا تركَنا ولدانا، ومكثنا جامدات.. نحن اللتين يربطنا الدم الواحد. لقد كشفت لنا غريزة الأمومة ما لم نقله بشفاهنا.

– ليستنشقا معاً نَفَس الرب.

الفصل الثاني عشر

غيابك

لقد مرت سنوات طويلة، يا يسوع، عن غيابك، وأقام هذا الغياب جداراً من العزلة حولي، وأبعدني عن ذاتي. بل أبعدني عن كل شيء، وحتى عن الأعمال المترلية التي أهملتها، وعن العلاقات العائلية التي تخليت عنها. لقد ترك ابني البالغ البيت ولم يعد: ففي كل ساعة سانحة كنت أذهب للقائه، كان فكري يطير إليه، وقد صار شغلي الشاغل أن أنتظره.

كم فصلاً دام ذلك؟ لا أعرف. كم يخوننا الزمن، وما أبطأ جريه! وإذا للمتَه وراءك، تجهل دوماً وأبداً بأي قياس تقيسه. وقد تميأ لي، يومذاك، أن الزمن، لا ينتهي. أما اليوم فحين أنظر إليه، لا أخال كثافته أكثر من نفحة عابرة.

ومع ذلك يتوقف الزمن أحياناً، ويتوقف قلبي معه: عندما أسمع صرير الباب، مثلاً، وأراك فجأة قادماً من أورشليم. وقبل أن تتفوّه بكلمة أقرأ حالتك من خلال الغبار الذي عليك، ومن وضع ثوبك وعينيك الذابلتين. وكنت أشعر بك شجاعاً، أو حزيناً، أو مرهقاً. فيوم كنت تستمع إلى الدروس التي يلقيها عليكم المعلم شارحاً الشريعة بكل دقائقها، كنت تفتح قلبك ليخترقه حماس الأنبياء، وليتشبع بأناشيد داود، ويتضمّخ برقة المزامير وقوتها، حيث تنعكس مشاعر الرجاء والخوف، أو الرعب والتعزية التي يحسّ بها الإنسان تجاه قدرة الله الفائقة. وكنت ترجع إلى الكتاب في صمت رؤياك الداخلية. وكنت تتوجه إلى بيت عنيا مساء، حيث قررت السكنى. وهكذا كنت اكتشف من

خلال هذا الاختيار ابني الجليلي الصغير عاشق الهواء الطلق، النهم في تذوق فواكه الحقول، الراعي اليافع الذي يتابع خرافه حيث حلّت، والذي يختنق في شوارع أورشليم القاحلة التي لا تأوي سوى الجدران. لقد فهمتُك حقا! وكان صديقك لعازر يستقبلك في بستانه في بيت عنيا، بينما تعد أخواته العشاء، وكنت تتكلم بصوت واطئ إذ يقبل المساء. وحسدتُ أصدقاءك الحميمين الذين كانت لهم الحظوة في أن يستقبلوك قبل أسرتك وقبل الجماهير. وكنت تعلّق على عبرَ النهار وتكشف النقاب عن فكرك الشخصي، وتحققتُ أن لك رؤية في كل شيء. لقد سرق هؤلاء الأبرياء الذين يحيطون بك كل هذه الأوقات مني، ومع ذلك لا ألومهم بل أشكرهم، لأنهم عرفوا كيف يستمعون إليك ويبادلونك عذوبة ضيافة لم تخيب الظن أبداً.

ترى عمّاذا ألومك؟ ألم تكن تعود إلى مهنة النجارة كلما عُدتَ إلى البيت، وكان مردخاي يتعجب من عدم نسيانك شيئاً من ممارستها؟ لقد كان عقلك يملي على يديك أسرارها، وكان الناس يتقاطرون من المناطق المجاورة طالبين أن تتفحص أخشابهم، أو أن تقوّي أبوابهم. ألم يعلّم سفر الحكمة ان البناء المُحكَم يقاوم الهزات الأرضية. وفي تلك الأيام تخلى يعقوب لك عن دوره في الدكان وذهب إلى قطاف الزيتون أو الصنوبر لشحة ما تبقّى منها في المخزن، ولربما قام بهذه الخطوة غيرة منه على نجاحاتك. وكان يعود متأخراً وهو يسير وراء بغلته المحملة حملاً ثقيلاً. وكانت البغلة تُكرى في الناصرة للقيام بالنقل الثقيل، وكان صاحبها، وهو صديق لنا، يؤجرها لنا بثمن معقول.

أظن انك كنت ترتاح لهذه الأقامات القصيرة بيننا. فلقد كانت روحك وخبرتك متلازمتين كالتربة والبذار. وكنا نفكر بأن هذا البذار سينمو يوماً ويصبح شجرة لن يقوى يعقوب على قلعها. ولم تكن تتكلم عن تعليمك في تلك الظروف، ولا تفصح عن أفكارك، كما لو أن الوقت لم يحن بعد للكشف عن ذاتك، وكنت أنا ممتنة لك لهذا التحفظ. وكنت أتحاشى المواضيع التي تفرّق العائلات دوماً، ولقد أخذت ذلك عن والدي الذي كان أكثر تساهلاً من والدتي، بينما كانت هي أكثر حزماً، بل تثير الشجار أحياناً. أما مردخاي، فكان يراعي الظروف، ويتحاشى تسليمك أعمالاً يتطلب تنفيذها وقتاً طويلاً، لئلا تختفي عنا قبل تنفيذها. تلك كانت طريقته في التعبير عن احترامه لحرية معلم المستقبل وعلمه قبل "أن يصبح مفخرة العائلة"!. وكان جارنا سليمان، الهارب من سيفوريس، يبني له داراً واسعة بالقرب منا، إذ أثرى بتجارة الحبوب. وكانت تتضمن الدار قاعة كبرى مصمّمة لتصبح فندقاً، إذ لم يكن فندق في

الناصرة. وكان سليمان واحداً من هؤلاء الرجال الذين يتابعون مصالحهم ويحبون التباهي بنجاحاتهم. وكان قد طلب من مشغلنا تنفيذ السقوف والشرفة من خشب البلوط، وخاصة درج الطابق الثاني. وقد اعتُبر هذا العمل حدثاً هاماً في المدينة يستغرق تنفيذه وقتاً طويلاً، يستوجب إشراكك فيه. وأذكر ما قاله يوسف في ذلك اليوم:

- يحتاج المرء في هذه المهنة إلى رفيق يعاون برأسه، وليس بذراعه حسب.

وكان مردخاي، بالرغم من رغبته في اتخاذك شريكاً له في العمل، قد احتفظ بالقيادة لنفسه، وذلك لإتاحة الفرصة أمامك للصعود إلى أورشليم ساعة تشاء، دون أن يرغمك بالبقاء معه.

وهكذا كان السلام يسود بيننا ظاهرياً، وكان الصمت يدعم هذا السلام، إلى يوم كسرتَ هذا الصمت أنت نفسك في إحدى أماسي السبت، إذ كان مردخاي يتكلم عن تكوين المجمع، ويمتدح أعمار أعضائه وخبراتهم، لاسيما منذ دخول عدد كبير من الفريسيين فيه. فاعترضت واستشهدت بسفر أيوب:

- لم تعد الحكمة عند الشيوخ!

من حسن الحظ أن صوتك لم يسمع، لأنك كنت في الظل عندما تكلمت، وكأنك تخاطب نفسك. أما أنا فوضعت إصبعي على شفتيّ، وسمحت لنفسي بهذه الحركة كي أُفهمك بأن تتحكم بلسانك، فأعطيتني إشارة الموافقة وسكتّ.

ولاحظت نضوجك مرة بعد أخرى، كلما عدت إلى البيت: ورأيت ذلك في بريق عينيك حتى في أيام الشتاء الداكنة، وفي لحيتك الناشئة، وخط فمك المعبر عن ابتسامة جديدة، وفي حركة كتفيك العفوية.. ولربما في قامتك التي طالت بوصتين أخريين. وكان حديثك يزداد حزماً.. أجل، إن الحكمة ليست عند الشيوخ بالضرورة. كم مرة تذكرت احتدامك في أورشليم وكلامك عندما وجدناك في وسط العلماء، إذ قلت:

- عليّ أن أكون في خدمة أبي.

لقد كنت تشعر، مذ ذاك، بأبوّة القدوس تحميك، وكان هذا الشعور ينمو لديك باطراد كما لاحظت. ولم تكن هذه الحميمية معه عقيدة تعلمها، بل قناعة راسخة يشعر بها من يسمعك. وكان سحر شخصيتك يكتسب قوة ونوراً من تلك القناعة، سحر جذب إليك لاحقاً عدداً كبيراً من المؤمنين. وتحوّلت قوة المقاومة التي أثارها هذا السحر آنئذ في الأسرة، إلى قوة جذب إضافية فيما بعد. أما أنا، فكان جهلي يستنير بنور

جديد، هو ذاته النور الذي أنار قلب خطيبة يوسف الشابة، قديماً. لقد بقي قنديلي مفتقراً إلى الزيت دوماً، كعذراء وكأم وكأرملة. ولكني لدى سماعي إياك ورؤيتي لك، ازدادت قناعتي بأن الأزلي الذي يستوي على عرشه في الأعالي العصية يمكنه أن يختفي أيضاً في أعماقنا، ويطيب له أن يُستقبل فيها. وهكذا تمت بفضلك، يا ولدي، وحدة رائعة بين العالم العلوي والعالم الباطني في أعماقي.

إذ ذاك استشففت في قلبك حاجة لم يستطع كتبة أورشليم أن يلبوها. وكانت توجيهاتهم المتلّمسة حول تطبيقات الشريعة لا تخالف الفهم العلمي الدقيق حسب، بل تصب في اتجاه تعطيل القاعدة الذهبية التي هي أن يحب المرء الله في عمق ذاته. ولم ترتح الى مشاحنات العلماء حول الحلال والحرام، مثل إباحة أو عدم إباحة أكل بيضة بيضت يوم السبت، أو خلافاتهم الحامية حول أتفه المواضيع، مثل سكب الماء المتبقي في إناء ترشحت منه بعض القطرات في إناء ملوث آخر، مما يشكل، في عرفهم، صلة واصلة بينهما. إن الفرح الناجم عن الطاعة للآب ينبع من نبع آخر لا ينضب.

لقد كان غيابك في تلك الليالي الشتوية الطويلة يؤلم حبي وينعشه في آن معاً، مثل الريح الباردة التي تنفخ في الجمر المستعر. وكنت أتسلق الأكمة التي وراء الدار، كلما سمح المناخ بذلك، فأراقب النسيم الذي يلفح السفح. وكانت معالم جبل الكرمل تلوح في المغيب، وترتسم في الشرق خطوط جبل طابور الدائرية. وكانت الحشائش المنبسطة مطرزة بالحجارة البيضاء، تجاورها الزيتونات الخجلى بعقدها. وبقيت في ذهني صورة الناصرة كما رسمها خيالي يوم كنت تائهة على طرقات مصر: دائرة شَطَرَها إلى قسمين مقلعُ البناء في مدخل القرية.. قرية تضّم بضعة أبنية حجرية يكاد ارتفاعها لا يعلو كثيراً فوق شجيرات السرو الفتية.. مساكن الوثنيين بعدد أصابع اليد، لحسن الحظ. وكنت أعلل النفس بأنك هكذا كنت تنظر إلى مدينتنا الصغيرة أنت أيضاً. لقد كنا كلانا نملك الصورة ذاتها عنها، أنت في فكرك، وأنا بعيني.

[...]

وعوّدتُ نفسي على غيابك، كلما علمت بأنك في أورشليم، ولم يكن من الصعب تخيل حضورك في المدينة، أو عند لعازر، وكانت تردني أخبارك على أجنحة الطير، أو حين تعود إلينا من وقت لآخر. ولم يترسخ قلقي حولك في الواقع إلا فيما بعد، حين تركت الدراسة، وتباعدتْ زياراتك. أليس هذا هو قلق الأمهات كافة في هذه

الظروف المضطربة التي نعيشها؟ إن سكين إبراهيم تدمي قلوبنا نحن الأمهات وليس غيرنا!

لقد مرت سنوات عدة منذ موت أبيك وأول غياب لك، بعد أن تزودت بكل شيء من أساتذتك واكتسبت علمهم وأساليبهم. لقد وزنت بميزانك ما أعطوك، وما كان ينقصهم، وشعرتَ بشيء إضافي آخر يجتذبك، ولم تجده في ظل الهيكل. لقد كان ثمة دوماً صوت ساذج أو فضولي يناديني في النبع، أو في السوق ويسألني أين أنت؟ وكانوا يريدونني أن أعرف كل شاردة أو واردة عن الطرق التي تسلكها، أو المحطات التي تتوقف فيها، أو اللقاءات التي تعقدها مع الناس.

– إنها تدّعي الجهل. بلى إنها تعرف، ولكنها تحجم عن القول.

غالباً ما أوّلوا صمتي على هذا النحو. آه! من الصمت. إنها لفضيلة مجهولة، حقاً! ولطالما وصفوني بالجاهلة أو البلهاء، أو بأوصاف أخرى تنعكس على الوجوه أو في الكلمات كلما أجبت بشرود إلى مثل هذه الأسئلة:

– ما هي أخبار يسوع؟ متى سيعود؟ ماذا قال لك عندما غادرك؟

أو يستخلصون قائلين:

– إن شاء الله، لم يحدث له سوء؟!

وكان جوابي قاطعاً على هذا السؤال الأخير فقط، ولكن باقتضاب.. بهزّة كتف سريعة مثلاً، فيكفوا عن الإشفاق عليّ، فيتحولون إلى المزح معي:

– على كل حال.. مريم مرتاحة لهذا الحال.. لقد غادرها ابنها، وهي أرملة وحيدة.. ولم يبق لها مَنْ يضايقها.

بلى، غالباً ما تضايقت من وحدتي. ولكن الضيق أو الألم ليسا مأساة، وكنت مقتنعة من أن المأساة لن تنال مني.

لقد كان الفضول الذي تثيره جيئاتك ومغادراتك إلى ومن الناصرة، سبب انزعاج ومشاحنات في البيت. وإذا لم تؤذني هذه الحال شخصياً، فالأسرة كانت تتضايق منها وتنظر إلينا كلينا بعين الملامة: أنت.. لأنك تضعها في حالة حرج، وأنا.. لأني أدافع عنك. وكان أكثرهم ثقلاً في تعليقاته شمعون الذي ظل يحرث الحقل الذي ورثناه. قلما تكلمت عن هذا الصبي الذي يخفي الطيبة تحت رداء هجوميته. فلقد كان يطلق شحنات عنفه في أخاديد الأرض، ويحاول كبتها على قدر الإمكان تحت سقف الدار. لقد كنت

عالمة بجاذبية الغيارى عليه، وغالباً ما حدثني عن ميله إلى الالتحاق بهم، وبدا له ان تحرير إسرائيل قضية تلائم طبيعته، وإن هذه القضية تتفق ومتطلبات الدين. وكم لحقت به في الحقل، حاملة إليه بعض الفطائر لغدائه، وأجلس بقربه في الشمس. وكان يجتر بعض كلمات ثم يسكت، فأقرأ الارتياح على وجهه المربع الأضلاع... لقد حلمتُ بأن تستعدل أمورنا لأتمكن من شراء نير وزوج من الثيران كي يشتغل ويحرث، فلا يبقى ينظر عن بعد إلى الحقل المجاور بعين الفلاح الغيور الذي يطمع في توسيع أرضه. وكان ينقاد إليّ عندما أناقشه في الموضوع. وفكرت بالاحتفاظ به معنا بهذا الشكل، قائلة في نفسي: سيعقّله الزواج وينسى نزعاته الهجومية.

[...].

ما إن أنجز جارنا بناء فندقه حتى غص بالزبائن. ولكن وجهاء القرية رفعوا أصواتهم بالاحتجاج والاتهام بالشكوك، بتحريض من رئيس المجمع. ذلك أن مثل هذه المؤسسات تكون عادة ملتقى الغرباء من عابري السبيل، والعسكريين أثناء خدمتهم أو في أجازاتهم، والعتالين العاطلين، والبطالين الطفرانين؛ وهؤلاء كلهم يترعون إلى الرذيلة، ويشجعون على الكفر، وينبئون بالمآسي، ويشوّهون الأخبار، مما يجعلهم حقاً غير مرغوب فيهم. وكان يبلغ ضجيجهم وعربدتهم، في بعض الأماسي، حتى وسط البلدة. وأخذ الندم مردخاي لأنه هو الذي أنجز أعمال النجارة في هذا المبنى. ولكنه صرّح قائلاً:

– ومع ذلك فقد نقدوا لي نقداً ممتازاً. ولا أظن أحداً من أهالي الناصرة كان سيدفع لي مثل هذا المبلغ المحترم، من دون رفّة عين؟! فبفضل هذا المال استطعنا إيفاء ديوننا، ودفع تكاليف دراسة يوسي في أورشليم، وتوسيع حقل شمعون، وتحديث أدوات عملنا.

ولم يكن هذا المكان الشرير، كما وصفته العوائل التقية، مسرحاً للحفلات الصاخبة حيث يسود السكر، حسب؛ بل كان ملتقى تُطرح فيه الآراء المختلفة والنشرات الإخبارية القادمة من شتى زوايا القطر. ولم يكن التمييز سهلاً بين الإشاعات البالغة الغرابة أو الصادقة، وبين الثرثرات أو الخبرات الحقيقية. وبالرغم من عدم ارتياد أي يهودي يحترم هويته لهذا الفندق السيء الصيت، فقد كان الجميع يعرفون كل شيء عنه وعما يقال فيه. وكان الأطفال يمزحون في ما بينهم بما يصل إلى أسماعهم من أصدائه، ويقارنون بين مصادر معلوماتهم. وكان مردخاي يوبخهم، قائلاً: "في زماننا لم نكن نهتم لأخبار غيرنا، وكانت حياة الأسرة وأخبار القرية تكفينا، فلا ننظر إلى أبعد

منها". لذا عوّض عن مشاركته بمضاعفة حرصه على ممارسة الصوم، وتطبيق قواعد الشريعة، وتلاوة الوصايا العشر، كمن يعيد إلى الله دَيناً عن المال الذي اكتسبه، أو يظهر للجميع أن أسرته لا تقبل التلوّث بما تفرزه حناجر هؤلاء الكفرة، حتى لو ساهموا في قوته اليومي.

إلى جانب ذلك كله كنت أصغي إلى ما يقال. وهكذا علمت أن الإمبراطور أغسطس قد مات، وأن العرش أُعطي لطيباريوس ابنه بالتبني. ونقل يعقوب ضاحكاً نص الكتابة التي نحتت حديثاً على نصب في قيصرية، وهي مرفأ على البحر الكبير، منه تنطلق السفن إلى روما: "كرمت العناية الإلهية الحياة البشرية وزينتها بمنحنا أغسطس، وغمرته بالفضائل، وجعلت منه محسناً إلى الناس، ومخلّصاً لنا ولمن يأتي من بعدنا، فيضع حداً للحروب، و به يستتب النظام".

– هل كتبوا حقاً: "مخلّصنا"؟.. الروماني محسن إلى الناس؟.. يا للمهزلة!

وأوضح يعقوب ان روما أنشأت منصب الوالي بسبب مللها من الحروب الأهلية. وفيما بقي شمعون صامتاً، انبرى مردخاي ينبئ بالاضطرابات القادمة من جراء ذلك حتماً، آجلاً أم عاجلاً. ففي خيال الرومان لا يمكن للجمهورية أن تتحرر من المآسي التي طالما غرقت فيها، والإمبراطورية قادرة أن تنجب اضطرابات أخرى جديدة.

– لقد عرفنا ثمن الاضطهادات، ودفعنا ثمناً أكبر للسلام الذي فرضه هيرودس. من تراه ينسى ذلك؟ وأنت بالذات يا مريم، ألم تهربي إلى مصر من جراء ذلك؟

أترى نيأس من البشر؟ لعمري، متى يأتينا ملكوت آخر؟

وتملكني فرح كبير لدى عودة إلياهود المفاجئة إلى الناصرة. فبعد سنوات طويلة من الغياب عاد إلى بيت آبائه القريب من بيتنا، وقرر الانضمام إلى زوجته شوشنة وأولاده الثلاثة للبدء من جديد في فلاحة الحقل العائلي، وإصلاح الحضيرة لتربية قطيع صغير، وتذوق متعة استثمار الأرض. وكان يقول:

– دورة الحياة هذه حق وعدل.

وكان إلياهود بالنسبة لي يمثل هذا التاريخ الذي عاد ليطرق بابي، وقد فتح الرب به ثغرة في سكناي.

لقد نسي أهل القرية الحظر المفروض على ذويه، و لم ينس الناس بعد المصير المروّع الذي لاقوه، مما أثار الشفقة تجاهه، وضاعف من احترامهم له. وهكذا تتغير

ذكرى الأموات في أحشاء الأحياء حتى لا تعود تعرفها. هذا بالإضافة إلى شخصية إلياهود وسيرته المثالية اللتين كانتا تفرضان الاحترام حتى لدى أقسى المتشددين. وكان الناس يعلمون أنه انسحب إلى البرية بعد أن تتلمذ للمعلمين وقطع صلته بالدراسة. وقال البعض أنهم رأوه عند الأسينيين، إلا أن أحداً لم يجرؤ على إلقاء السؤال عليه: ذلك أن أتباع هذه الجماعة يفرضون الصمت على أنفسهم، ويكرسون صوتهم لتسبحة الأزلي، وإذا ما ترك أحد الأخوّة، فيبقى شحيح الكلام، لا يشهر أسرارهم.

وكان ذلك الشتاء قارساً، وسقط الثلج. وكان الفرسخان اللذان يفصلان بيتنا عن بيت إلياهود، هما المسافة الوحيدة التي أسمح لنفسي قطعها. فكنت أدفع الباب برفق، وأجلس قرب الموقد، قبالة شوشنة، وأساعدها في جرش الحنطة، وتصفية العدس من الشوائب. وكنت أختار ساعة ما قبل الغروب لأذهب عندهم، إذ كان ينتابني شعور بالانقباض والعزلة في مثل ذلك الوقت. لم تكن أفكاري لتتبدد في بيت إلياهود، ولكنها كانت تأخذ لوناً آخر، لون الأسرة التي شهدت ألعاب طفولتنا. لم تكن شوشنة من مواليد الناصرة، بل ترعرعت في اليهودية. فكنت أسرد لها تاريخ مدينتنا الصغيرة، وتقاليد أسرنا، وهكذا تلملم رواسب من طفولة زوجها. وكانت تستأنس بقصص مقالبه التي ارويها عنه، وبالرعب الذي يجمد أوصالي إذ كان يحدثني عن الشياطين. لقد عاشت شوشنة الأحداث معي، و لم يستطع مردخاي وأستير أن يمنحاني هذا الانتباه الذي تثيره ذكرياتي الحميمة، بالرغم من علاقتهما الشديدة بي. وكان إلياهود، لدى عودته إلى البيت، يوجه نحوي نظرة تدلّ عن تواطؤ الطفولة، إذ يكتشف مواضيع أحاديثنا حتى من دون ابتسامة زوجته المعبرة.

لقد كان يعلم، دون عناء، أن همي الوحيد يتمحور حول هذا الابن الذي يعود للبيت بعد غيابات متباعدة أكثر فأكثر، شاحب الوجه، محمر العينين من السهر، وهو صامت لا ينبس ببنت شفة. فأترك غرفتي لألقى عيوناً مغرورقة بالدموع:

- ماذا جرى؟

فيأتيني جواب مبهم منك يصدمني. إذ ما أن تأتي حتى تغادرنا على عجل. أين؟ لا أحد يعرف.

- لقد ترك يسوع كل شيء في الدكان من دون إنجاز.

فيجيب يعقوب:

- كنت أتوقع ذلك. ألم تلاحظوا نظراته البعيدة؟

فيضيف شمعون بقوله:

- إنه يبدو دوماً غائب التفكير.

فكان يمزح يهوذا قائلاً:

- ان لنا نبياً في البيت. فهو يأوي إلى الصحراء ويتصل مع النساك.. اللهم إلا إذا كان من رجال المقاومة أو من جماعة الغيارى!

وكان إلياهود يخبرني بكل ما يعلم أو يسمع عنه.

- يسوع لا يأوي إلى الصحراء بصورة دائمة. بل قد رآه الناس في أماكن عدّة. على سواحل كينيريث؟ في كفرناحوم عند شمعون بن يونا؟ هذه الأخبار كانت تبعث فيّ الطمأنينة، إذ أعرف انك تأكل جيداً في هذه الأسرة. فلقد أدّعى البعض أنهم التقوا بك على طرقات مصر. فأجيب: "انه يعرف شعابها". ثم يتملكني القلق حين أسمع أنهم رأوك في المدن العشر، وفي صور، وفي صيدا، وحتى عند السامريين. من ترى يعتني بك عند هؤلاء السامريين الأشرار؟ فيهدئ روعي إلياهود بقوله:

- لا تخافي، فالعلي يحميه، وله أصدقاء في كل مكان.

كم تقت إلى مشاركتك أتعابك يا يسوع، أما أفراحك فيكفيني أن آخذ علماً بها. فكنت أحاول إتّباع خط أسفارك، ورحلاتك الدائمة التي تقودك بعيداً عنا. هل أردت، يا ترى، إحصاء مآسي الأمة، والاستماع إلى الشكاوى والنداءات وهتافات الغضب الصاعدة من هنا وهناك؟ هل تعمل على إيقاظ هذا الشعب اليهودي الذي يسحقه مجلس الشيوخ في روما، ويسيطر عليه بالرعب والقوة والفساد الإداري والفرقة؟ هل تقود حرباً سرية ضد الشر بمسيراتك وعوداتك وانسحاباتك نحو وإلى ومن هذه المدن البعيدة؟

لقد سمعتك يوماً تتكلم مع إخوتك قائلاً:

- الأزلي هو ملكنا الوحيد، وعلى إسرائيل، إذا ما أراد أن يتفرغ لخدمته، أن يتخلى عن القيصر الذي يسود علينا بحسب هواه.

فتساءلت: كيف ينبغي التصرف بحسب الشريعة؟ أبالسيف أم بالحيلة، أم بالتحمل؟ وطالما تناقش أبوك أمامك عن هذه المسألة. وكذلك فعل أبي مع أصدقائه، وظل يتساءل عن الجواب حتى موته. كل يهودي يحوم حول هذا السؤال في أحاديثه بمرارة، ويهذي به في لياليه، ويستيقظ في اليوم التالي معه، ويغذي به الدم الذي يورثه لأبنائه. وكانت الشبيبة قد وجدت جوابه بحمل السلاح في الجبال وحرب العصابات، أما رجال الشريعة فيناقشونه في المجامع من وراء منصاتهم. وكان شمعون يهتف:

- إذا أراد أخونا إنقاذنا من الوثنيين، فليلحق بالأنصار ويقاتل معهم.

فيعترض يهوذا قائلاً:

- يسوع يحب السلام. فلقد قال لي: "إذا أخذ أحد ثوبك، فأعطه رداءك أيضاً. إذا ضربك أحد على خدك الأيسر، فأدر له الأيمن أيضاً".

- لن نتخلص من المحتل بيد متراخية. فالأزلي لم يتقاعس عندما قرر خلاص أجدادنا، إذ أغرق جيش فرعون. أين يا ترى كتب أن تحب عدوك؟

- جاء في سفر اللاويين: "لا تحمل حقداً على أخيك، لا تنتقم أو تحمل ضغينة على بني شعبك. أحبب قريبك كنفسك".

- الروماني ليس أخاً لي.

- ان من يعمل الخير هو أقوى من الشرير، لأن الخير يحميه. حين تسود الرحمة عندنا، سيعترف جميع البشر في كل الأرض بأن الله هو الإله الوحيد وسينظرون إليه، ولن يكون مِنْ بَعْدُ إلا شعب واحد للرب.

يا ليتك هنا يا يسوع لتقول رأيك في الموضوع، وماذا ينبغي أن يقال. إن إخوتك يريدون فهمك، وليس ملامتك. فلو مددت لهم خدّك، لما ضربوك.

وكانت تقول والدتي إن دور النساء ليس هو أن تجادلن، بل أن تخدمن. وتقول أيضاً: من شأن النساء أن تَعْقُدن زواجهن وفقاً للقانون، لا أن تشرّعنه. ولكن الأمر هنا يتعلق بابني...

لقد كنا على أبواب الربيع، وكانت الطبيعة على وشك منح ثمارها، وقد تزينت التلال بقطعان الغنم. وكان إلياهود يسرد تعليم يشوع بن سيراخ كما نقله إلينا ابنه بقوله: "اغفر لقريبك الظلم الذي اقترفه، وإذا صليت، فستُغفر خطاياك. إذا غضب المرء ضد صاحبه، كيف تراه يطلب إلى الرب شفاءه؟ فكر في آخرتك، وستكف عن البغضاء...".

ودخل صموئيل صديقنا وقال وهو يترع معطفه:

- السلام معكم!

الفصل الثالث عشر

يوحنا ابن إليشباع

أخذ الناس، في اليهودية وحتى في الجليل، يتكلمون في تلك الأيام عن يوحنا ابن إليشباع. وأطلقوا عليه لقب المعمدان، لأنه كان يغسل أخطاء الخطأة وينبيء بمجيء المسيح. وكان يمارس رسالته قرب أريحا، وهي أول مدينة استولى عليها بنو إسرائيل، عند المكان الذي تأمل فيه موسى أرض الميعاد قبل موته.

لم يكن يوحنا كهؤلاء الوعاظ الذين تهوي شهرتهم كأوراق الخريف، بل كانت الجماهير تهرع إليه لتستمع إلى كلماته وتحتفظ بها في عمق الذاكرة. أنا لم أستغرب ذلك، إذ استذكرت تقوى والده زكريا والآية التي رافقت مولده. وكان اسمه صدى لأيام شبابي، عندما كنا كلانا ننتظر طفلينا. لقد عشنا قريبتين من بعضنا قبل أن تفرقنا الحياة، كما تفعل أحياناً من دون أن تبوح بأسبابها. لقد تأخرت في ردّ آخر زيارة قامت بها إليشباع لنا في الجليل، بعد ذهاب يوحنا إلى قمران ، وانقطاع يسوع عن أورشليم، وكم لمت نفسي لقرار ذهابي عندها بعد فوات الأوان. فلقد التقيتُها في البيت المخصص لأرامل الكهنة حيث كانت قد انقطعت، وانحنيت على سرير ضمّ جسداً نحيلاً مدنفاً ووجهاً لم يعد له سوى بضعة ثوان من الحياة. أظنها عرفتني، إذ رأيتها تبتسم لحظة، وكأنها تذكرت شيئاً، ثم أغمضت عينيها. كان زوجها قد توفي منذ زمن، ولم يكن ابنها بقربها، فذرفتْ دمعة: هل تراها كانت تشعر بعزلتها؟ واغرورقت عيناي أنا أيضاً. وتذكرت ان آخر مرة بكينا فيها سوية كانت في وفاة يوسف. ومكثت بالقرب من الجثمان لأقوم بالطقوس اللازمة للميت، وكان ذلك من واجباتي أنا.

التقى إلياهود بيوحنا في أوائل شبابه، في أورشليم، وكنت اجهل ذلك، ففاجأني الخبر الذي أطلعني عليه حقاً. كما أطلعني على ارتباطهما معاً بصداقة، بالرغم من اختلاف اعمارهما، فالتقت براءة الواحد بخبرة الثاني. هل ترى أرشد إلياهود يوحنا كما يرشد المعلم تلميذه؟ [...]

لم أستطيع سماع اسم يوحنا من دون التفكير بيسوع، فابن إليشباع وابني كلاهما مختاران لرسالة خاصة:

– من يترك سقف بيته، ويتخلّى عن أسرته، وتحول عفته دون إقامة أسرة خاصة به: هذا يدعى متجرداً، لا هارباً. فكل شيء يعطى للإنسان الذي يضع ثقته في القدير، ولا شيء أقوى أو أعظم من أن يتوّحد المرء مع الذي هو الكائن.

هكذا كان يتكلم إلياهود. فأقول لشوشنة:

– ومع ذلك فقد تزوجك.

– لقد تزوجني بعد هذا الكلام بوقت طويل، طويل جداً. وفعلاً قد استغرب ذويّ عندما طلب يدي، حيث ترك الصحراء من دون إعلان نذوره.

فسألت إلياهود:

– لماذا الصحراء؟

– لأن الصحراء معبَر. وقد أراد الله أن يجتاز شعبه هذه الأرض القاحلة الموحشة أولاً، قبل أن يدخل الأرض التي تسيل لبناً وعسلاً. في الصحراء أعطاه شريعته، وفيها أخضعه للتجربة، وقاس أمانته، ولكنه في الصحراء أيضاً أقاته بالمنّ.

وكان إلياهود يشرح لي أسباب تصحر الأراضي الخصبة. فالله الذي خلق وديااناً لتقوم فيها أشجار الزيتون والكروم، قد سمح أن تجف قشرة الأرض في مناطق أخرى، فيكتشف الإنسان تفاهته، وتسحقه الحرارة، وتقسّي عوده برودة الليالي. أمامه يرتقي الجمود والصمت كعمودَي رواق عملاق يلاشيان الإنسان ويُخضعانه لروح الله السيد. إن أريكة التراب الممتدة عند أقدام أورشليم تفتح الطريق أمامه، وتبقى الصحراء قريبة من مسكن الاسم الجليل.

وبقدر ما كان إلياهود يسترسل في الحديث، بقدر ذلك كان يدفعني إلى خارج ذاتي، فأرى يسوع من خلال صورة يوحنا، شاخصاً نحو السماء، وقد جفّ ريقه، متجاهلاً الجوع والعطش والزمن نفسه، متهالك القوى ومغموراً بألحاظ الله التي تحرق أبصاره.

وكان يوحنا يعظ ويعمد في نهر الأردن، عند كعب جبل نابو. وكان قد ترك الدير، هو أيضاً، قبل أن تكبله نذوره، وانعتق من قانون لو تبعه، لربما حدّ من انطلاقة دعوته الأساسية لشدة قساوته. فاستعاض عن سلطة معلم الأخوية بالحرية التي لقيها لدى الجماهير: هذه الجماهير التي تهرع للاستماع إليه، وللتوبة، والاغتسال في النهر، وللصلاة.

- كيف تغسل المياه الخطايا؟

- الماء يغسل الجسد كما تطهر الندامة النفس. والعمليتان تسيران جنباً إلى جنب ولا تفترقان.

من أفكار إلياهود وقصصه وتوجيهاته نسجت لي وسادة أسند إليها رأسي. وفي أحلامي ترقبت عودة النسيبين، ورأيت يسوع يرشد يوحنا على طريق الناصرة. وفجأة انفتح الباب ودخل فتياي الكبيران. يا للفرح العارم! فقبّلتُهما، وقدّمت لهما ألذ ما عندي من ماء لإرواء عطشهما، وغسلت أرجلهما في الوعاء الكبير. لقد اقبلا من الصحراء، وقد سارا طويلاً، ورتّلا المزامير طوال الطريق معاً، وكانا سعيدين منتشيين، ككل أقرانهما في مثل سنّهما. وكانا قد دعيا الشعب في القرى التي اجتازاها إلى التوبة، وأعلنا قرب الأزمنة الأخيرة والمجيء الوشيك للمسيح.

فقلت:

- يا يوحنا، لَكَانت أمك فخورة بك لو...

واخبرني إلياهود بأنه ذاهب في الأيام القادمة إلى بيت عربا، حيث يعظ يوحنا، وفي نيّته ان يطلع ابنه داود على المغائر التي يأوي إليها يوحنا. ولكن لم يكن ذلك الدافع الوحيد لرحلة العزيز إلياهود، وإنما قد خطط لهذه الرحلة من اجلي كي ينقل إليّ ما يقال عن يوحنا، ولربما عن ابني أيضاً.

وحسبت الأيام لعودته ومعرفة ساعة وصوله، فصعدت إلى السطح أراقب الطريق. وارتجت نفسي عندما لمحته من بعيد. وبالكاد تركت له الوقت لربط حماره وتقبيل أولاده حتى كنت عندهم، لأعرف كل شيء عن رحلته، من دون اهتمام بتتالي الأحداث.

لقد قابل يسوع الذي هو بصحة جيدة، كما رأى يوحنا أيضاً. ولما حاول الاقتراب منهما، عانى من كثافة الجموع حولهما، ولاحظ حركة محمومة شبيهة بحركة النمل على شواطئ النهر في ذلك المكان حيث يسيل الماء غزيراً. وتفرّق الذين اقتبلوا

العماد وأخذ آخرون محلهم، وكان يوحنا يعظ ويحرّض. وتلا البعض آيات داود القائلة: "أشفق عليّ يا رب بحسب أمانتك. أمح مآثمي بحسب رحمتك. أغسل خطيئتي بمياه غزيرة، وطهرني من خطيئتي". وكان آخرون يتضرعون إلى الرب قائلين: "يا رب أصغ إلى تضرعاتي. لقد اضطهدني العدو، واسكنني في ديجور الظلام كالأموات. لقد انطفأت روحي فيّ، فأسرعْ وخلّصني من بؤسي. أهلْكْ خصومي لأني عبدك".

كان كثير من المعتمدين يودون لو أن يوحنا هو المسيح، ويحثونه على إعلان ذاته، ولكن يوحنا كان يفنّدهم بقوة، ويكرر عليهم بأنه ليس المسيح، وبأن آخر سيأتي بعده، أما هو فليس سوى سابق أمامه.

- أنا أعمدكم بالماء والتوبة، أما الذي سيأتي بعدي فسيعمدكم بالروح القدس.. بيده الرفش، لينقي بيدره، ويأخذ الحنطة ليخزنها في الأهراء، أما الزؤان، فيحرقه في نار لا تطفأ.

وكان يسوع قد اقتبل العماد عندما وصل إلياهود إلى النهر. فأسّر لي إلياهود:

- تخيّلي كيف أن الروح قد اختطفه.

- ليكن هذا الروح عليه نسيماً مهدئاً، وليس عاصفة تقتلع.

- يا ليتك رأيته يا مريم! إن الضياء الذي غمر محياه كان شبيهاً بما كان عليه آدم قبل الخطيئة. ما سمعه لم يكن مجرد دعوة، بل امتلكه الروح امتلاكاً.

لم أضع خطاي على حوافي النهر التي دكّتها أحذية التائبين، ولا رأيت انفتاح السماء ساعة عماده، ولكن أحشائي ارتجت فيّ لحظة قبوله، ومن تلك الساعة لم يعد يحيا من أجل الله حسب، بل به يحيا.

يشكل ذراع الأردن الذي يجري سريعاً وسلسبيلاً في هذا المكان، بين أشجار الطرفاء والصفصاف، ذراعاً منبسطاً واسعاً رقيق المياه، قد يكون هو الذي عبره يشوع للدخول إلى أرض كنعان. لقد زرت المكان كحاجّة، ولازال تلاميذ يوحنا يعمدون فيه. أما في الليل، فينسحب الحجاج من السواحل، وتبقى أنوار المخيمات تضيء نهر الحياة الذي انسكب فيه أمل شعبنا. وفي صمت الليل تتحرك نسوة، جماعات جماعات، وأبصارهن نحو الأرض، بين القصب العملاق والنباتات المتكسرة تحت الأقدام، بحثاً عن البقايا والفضلات التي تتركها الجموع على الأرض عادة. ما الفائدة؟ أليس ان الشمس والماء سيطهران المكان سريعاً، وسينشق النهار ليستقبل عمادات جديدة؟... ليكن القدوس مباركاً!

- طوبى لإليشباع التي توارى جسدها، وقد أنجب يوحنا. قلت ذلك أمام إلياهود، فأجابني:

- بل طوبى لك يا مريم لأنك أنجبت يسوع! إن المعمدان نبي جديد، وهو إلى جانب ابنك، وابنك إلى جانبه.

ماذا كان جواب الكهنة والكتبة لدى سماعهم يوحنا يعلن غضب الله الآتي قريباً؟

- الفأس جاهزة لقطع الشجرة.

ماذا جال في خاطر رئيس ربع الجليل وبيريه أمام عدد المعتمدين الذي يزداد كل يوم؟ وما موقف بيلاطس البنطي الذي يمسك حياة كل يهودي بين يديه؟ هل يمكن أن يكون ثمة مملكتان، مملكتهم ومملكة الله؟ الخير والشر ينموان سوية كما تنمو الحنطة والزؤان، ولكن الحصاد قريب، وسيحرق الرب الزؤان، كما قال.

وكنت أسأل، ولا أكف عن السؤال حول الإشاعات التي تبلغ سمعي، وما يقوله رئيس المجمع، وما تتناقله العجائز في السوق، أو الفتيات عند العين، وما يتبادله الشاربون في الفندق من أحاديث. لقد كنت أحفظ كل ذلك في قلبي. وسألت ابن إلياهود، الذي رافق والده إلى عبر الأردن. لقد كان أكبر سناً من يسوع بقليل، وكان يسافر كثيراً لحساب صائغ يشتغل عنده، ويتكلم اللغة اليونانية، وقد نزل حتى مصر، واستحمّ في مياه الجسر، وكان أكثر دراية مني في نظرته اليقظة إلى ما تحمله الأيام القادمة.

وعلى خلاف والده، الذي يخشى تلوّث كمال التوراة الجامد بمسحة غريبة تفرضها وحدة الإمبراطورية، كان داود يعتبر أن أفضل طريقة لحماية الشريعة ليس أن تبني سوراً حولها كما يريد الكتبة، بل أن تضاعف غيرتك في خدمة القدوس، بغية تعجيل مجيء الزمن الذي يحتفظ الرب بموعده بين يديه. وكان يؤكد أن لا قيام للشعب، في الانحطاط الذي وصل إليه، إلا بمعجزة؛ وإن إعادة جنة عدن إلى حالتها الأولى، ستسبقها آلام قاسية تفرض نفسها على المفسدين فرضاً. بعد ذلك كله سيترل روح الرب على الشعب المتجدد ليقيم معه عهداً جديداً.

وكان ابن إلياهود يسحرني أكثر من ابن زَبْدَيْ في قابلياته القصصية. ففي الحقيقة لم يكن يسرد الأحداث، بل يرى من خلالها. وكنت، ككل امرأة تربت في جهل الآداب، أعجب بالناس المثقفين. وكنت أتحجج بألف ذريعة كي آتي واستمع إلى داود

أثناء تواجده في الناصرة، وكان يفتح لي الباب مبتسماً ويقدم لي كرسياً للجلوس إذ يعلم هدف زيارتي... وكنت أكن احتراماً كبيراً له، بالرغم من صغر سنه بالنسبة إليّ. وبقيت الأحداث التي أثّرت فيّ محفورة في ذاكرتي، وبوسعي، حتى اليوم، أن أردد ما قاله لي:

– يخال للمرء ان جداول من المياه تشق طريقها في باطن الأرض، فهناك أناس في كل مكان يتوقون إلى مجيء المخلص القادر أن يسحق الشر. المختونون المشتتون على البحر الكبير ينشرون الإيمان بالأوحد في كل الأرض، ويبشرون بتحقيق مخططه على الخليقة، كما جاء في كشف الأنبياء.

إني آسفة لانقطاع أخبار داود عني. فلقد كان يقول بأن يوحنا الداعية الرهيب بالعدل، ويسوع الوديع الحنون كانا واقفين في الصفوف الأولى أمام باب الملكوت. وكانت حكمته تستدعي ثقتي، ومشروعه يبعث فيّ البهجة.

وبينما كنت أغزل في الغرفة دخل يهوذا، فعرفته في ضياء الباب المفتوح نصفه، فبادرني لاهثاً:

– لقد ألقي القبض على يوحنا المعمدان.

وتفرست بوجهه المتعب، وهو لا يجسر النظر إليّ. ومضت برهة من الزمن تخيّلنا فيها جميع الاحتمالات، قبل أن يستولي علينا اليقين باحتمال واحد، مستبقين النهاية:

– لقد أدانه هيرودس أنطيباس. فالذي جذب الشعب إليه يرعب الأقوياء.

– كيف ننقذ يوحنا؟

– لم يخرج أحد حياً من قلعة ماكيرونت. أنطيباس لم يصدر عفواً على أحد أبداً.

– أنا خائفة على يسوع.

ولم يجب يهوذا بشيء.

– هل تظن أنه سيواصل رسالة المعمدان؟ لا شيء يوقفه، لو قرّر ذلك!

– لا شيء.

يا آدوناي إلهي، لقد صليت كي يخدم ولدانا مجدك، وأنت الذي ألهمتني هذا الطموح. يوحنا أوقف، وكانت الحياة أمامه، وكان يخدم أحكامك. "أعدوا طرق الرب، لتكن الدروب مستقيمة". لقد لبس الوبر، وتغذى من الجراد، وضحى بالملذات والراحة والزواج. ويسوع، هو أيضاً مثل يوحنا، يبشر بالتوبة والحب. مثله يبشر بالخلاص من الشر الذي يضرب العالم. يوحنا ويسوع، يا توأمين مباركين، هل أستمر أتخيلكما متحدين معاً، منذ الآن فصاعداً؟... يا رب، أتضرع إليك، لا أن تعمل بمشيئتي، بل أن أقبل مشيئتك.

القسم الثالث

الفصل الرابع عشر

مراحل حياتي

مراحل حياتي!

الآن صرت أحسب مراحل حياتي، مع ما فيها من وقفات وتكسّرات، من صعود وهبوط.. في مصير سال من دون تمزقات عندما كنت أحياه، وبقي موحّدا كالنسيج المتماسك. هذا النسيج لم يني يلف ولدي، ولقد تحدثت عنه حتى قبل مولده، كمن يمسك بين يديه حزمة من السعادة، لا أقوى على إخفائها، ولقد بشرت به في السر. إني أعلم أن النظرة الداخلية التي ألقيها علينا كلينا هي نظرة رضى حميم. وهذا الرضى مصدره تصوري يسوع راكعاً ومستنداً إلى ركبتّي، وهو يصغي إليّ ويحدّق فيّ بعينيه المشغوفتين. لقد تألمت كثيراً من غياباته عندما ترك الدار، فصرت أستعيض عن الوقت الضائع وأملأ الأخدود الذي خلته، ردحاً من الزمن، عائقاً يفصلنا، لولا تمسكنا ببعض التقاليد الثابتة. لقد أحببت يسوع كل ساعة كما أحبني هو.

في نظرتي إلى الأيام السالفة أبديتُ اهتماماً واسعاً بفتاة الناصرة، وبصديقاتي، بوالدي ووالدتي، وبأقربائنا. وكان عذباً على قلبي أن أحيي ذكرى رجال ونساء من ذلك الجيل وامتدح فضائلهم. لقد شكل هؤلاء حلقة حول ابني، وشهدوا أسرارنا السعيدة، وأفراحنا الصامتة، وهمومنا الناشئة. والآن سأتطرق إلى الضفاف الخطرة من مسيرته البشرية، وقد ارتوت من دموعي ومن دمه.

لم أعرف القنوط، فالله كان حاضراً دوماً إلى جانبي. ولكن القلق طالما رافقني، وتبعتني العزلة كالظل أحياناً، فكان عزائي أن أقبل كل شيء من الرب. ولكن، أيحق لي أن أفتخر بشيء؟ ترى، هل أنا التي ذهبت نحو الرب، أم هو الذي أتى إليّ؟

وإذا ما ذكرت ابني حتى الآن بدافع من حناني الوالدي، فسأذكره من الآن فصاعداً في علاقته مع جماعة تلاميذه، التي من واجبها أن تعلن شأن كلامه. فلا يحق لي البتة أبداً أن أشوّه وجه المسيح بدوافع مشاعري، أو بثروة من نزوات فقدان الذاكرة. الوقت ثمين، وكل شيء في هذا العالم ينهار حواليّ، وإني لأرى الخرائب التي تسبق ظهور الملكوت.

لقد عرفت أن يسوع، حتى من دون رفقة يوحنا، سيستمر في مسيرته في الطريق التي رسمها لكلمته كي تجذب الجماهير إليه. لم يكن يعظ في رمال الصحراء، ولا حول المياه الثقيلة لبحر الملح، بل فضّل أرض كفرناحوم الضاحكة. وكان مستمعوه من الرجال البسطاء والشجعان، ومن الصيادين الذين يلقون شباكهم مهما كان الجو، من هؤلاء الجليليين الأُصلاء، من أقرباء عائلتنا. إن الرب يفعل ما يشاء.

لقد كانت نداءات الخطر تخفت لديّ كلما عاد ابني إليّ، وكنت في الوقت عينه، أتابع أخباره، فتطمئن نفسي وترتاح. لقد امتنعت عن إخطاره بحضوري، ولم أسمح لدقات قلبي أن ترغمه إلى الإلتفات إليّ. كما أحجَمَ إخوته ومردخاي نفسه، عن استعادة العلاقة معه لئلا يتسبب ذلك بمشاكل له. ولكن تحفظي لم يكن خالياً من اليقظة عليه. فلقد وجدت دوماً بائعاً ما ليخترق الحاجز الضعيف الذي يفصلنا، فيشعر بالسعادة عندما ينقل إليّ شيئاً من أخباره. وكنت أطّلع يوم السبت على ما فعل أو قال يسوع أثناء الأسبوع. فلقد كان يتكلم بعد الصلاة الطقسية في المجمع، كما تسمح به عاداتنا إذ يُدعى كل مؤمن يرغب في الحديث، وكان يكمل أحاديثه في الخارج، في الهواء الطلق، وتحيط به الجماهير حتى ضفاف البحيرة، فالأمسيات في فصل الصيف عليلة للمسامّرات القلبية، تحت أنظار النجوم. وكنت أتخيلني، كل ليلة، استمع إلى صوت يسوع في نبرته العذبة التي تشنف الآذان، حتى وإن أطبقت جفوني من النعاس، وقد يرتفع صوته ليهزّ أركان البيت. لقد كنت أعرف خطّ أفكاره، وأشعر بحرارة رفاقه الذين اتخذوا اسم التلاميذ منذ وقت مبكر. وكنت أصلي إلى الرب الذي يملك على دواخل قلوبنا وخارجها أن يرمق عائلتنا بعطفه، لا ليهبها نعماً ملموسة، بل بالأحرى كي يشعر كل واحد من أعضائها بارتباطه مع الآخر في الأمانة.

وابتسم مردخاي وهو يمر على لحيته بأصابعه:

– لو عاد يسوع إلى المشغل، لاستقبلتُه بترحاب.

فقلت في نفسي: أخيراً! العمّ يفكر بابن أخيه، فهو لم يطرده من ذاكرته، ولا دفعه خارج سقفه. إن كلمات قليلة تكفي لإنعاش نفسي القلقة دوماً، ولكن المستعدة دائماً لتجديد رجائها. ومنذ عدة أسابيع، كانت أستير قد عفتني من الأعمال التي تتعب الكلى مثل تنظيف الأرضيات والأواني، ولم تفعل ذلك لمجرد كونها أصغر مني سنّاً. وكان يعقوب وشمعون ويهوذا أنفسهم، كل على طريقته، لا يظهرون انزعاجهم من سير الأمور على هذا المنوال. إذ صاروا يطلقون تعليقاتهم على ما يقال عن يسوع من دون استهزاء، وكانوا، في اعتقادي، يندهشون من قابليته في جذب هذا العدد الغفير من الأصدقاء حوله.

أما في الناصرة، فالعجين لازال يتخمر في المعجن، والزقاق يعج بالأصوات المألوفة: صياح العتالين، مطرقة الحداد، مرور القطعان النازلة من المراعي، وصخب الصبية العائدين من المدرسة. إن الرتابة شيء مقدس في بلد متألم مثل بلدنا، والسلام الذي يغمرني بالصلاة، لم يكن ليختنق فيّ، بل وجد مأواه الآمن. لقد كان يسوع في كفرناحوم عند آل زَبْدَيْ أو يونا كما لو كان في بيته الخاص. ولربما تذكر رحلتنا، عندما ذهبت به إلى بيت راعوث، بُعيد عودتنا من مصر، فلقد نمنا يومذاك في بيت يونا، وتعشينا تحت عرزال زَبْدَيْ. واليوم قد أصبح شمعون وأندراوس، ويوحنا ويعقوب رجالاً، واتخذهم يسوع مرافقين يعتمد عليهم وغيارى، ليتبارك القدوس! إن ما تخيلته كان في محله، فلقد أوحى لي الملاك بأن ابني سيعود يوماً إلى هذا العالم الصغير الذي سيصير كبيراً. وقد جاء هذا اليوم الآن.

وكان داود ابن إلياهود، كما قلت، احد هؤلاء المسافرين الذين يزودوني بالأخبار، واستمع إليه بارتياح. ولقد سمع كلاماً عن يسوع في صيدا، حيث تواجد مؤخراً:

– لقد أُعطي ابنُك سلطاناً. أجل، إنه يتكلم بطلاقة، ولكن أتظنينه يجذب الناس بهذا العدد لو لم يجترح آيات؟

فرددت وراءه: دون اجتراح آيات؟ أجل!

– إنه يخرج الشياطين، ويشفي المرضى. أوَ تكونين، أنت أمه، آخر من يعلم؟ ألا تُستَثْنَين من القاعدة العامة؟

المغمدان لم يجر الأشفية، ولا طرد الروح النجس. يسوع، إذن، أقوى منه. ولكن هل يدعو ذلك إلى مزيد من الرجاء، أم إلى شك أكبر فيه؟

لم أكن لأتخيل المأساة التي تُنسَج في الخفاء، ولم يزعج نومي أي توقع. وها هو يسوع يعود إلينا فجأة، وسط الليل، من دون سابق إنذار، متحدياً الشياطين الذين يتجولون على الطرقات. فلقد سمعنا أحداً يطرق الباب الذي يغلقه مردخاي كل مساء بالمفتاح. وكان الطارق هو، ابني، فدخل متدثراً بثوبه، ورأسه ملفوف بعمامته. وكان الهواء بارداً في الناصرة، عشية تلك الأيام المقدسة. أضأت السراج، وأخذت الإناء لأغسل رجليه، ثم نفخت في الحطب لأنعش الموقد. يا لسعادتي إذ ألمسه، وأطعمه، وأتذوق فرح رؤيته هنا في البيت، واشعر به ملكي... ابني، نبيي، مسيحي... ولاح لي البيت صغيراً، مكتظاً بما فيه، من دون نظام، وغيّرت وضع البساط لأعد له فراشاً للنوم [...] لم تكن عيناي تريان سواه... يا ولدي، هل يجوز أن أحبك إلى هذا الحد؟

كيف وصلنا إلى هذا الحد؟ فلقد كنا، نحن أعضاء العائلة والجيران، مجتمعين في المجمع صباح ذلك السبت، وكانت عودة يسوع حديث الجميع. فلقد بلغ خبره كافة الأقاليم، وقال يوسي مازحاً بأن خبره اجتاز التلال والوديان كمشعل مربوط بذيل ثعلب. وادّعى خبثاء آخرون انه لم يصعد إلى الناصرة، وبأنه يحتقر مسقط رأسه منذ أن صار الناس ينادونه رابي، وتتنافس مجامع الجليل في التشرف بالاستماع إليه. على كل حال، دعاه الخازن في مجمع الناصرة لقراءة الباراشا، أثناء الصلاة. وكانت عيون الجماعة شاخصة إليه وقلوبهم تترقبه بقلق عندما صعد المنصة وفتح السفر. واقشعر بدني عندما سمعته يقرأ نص ذلك اليوم من سفر أشعيا، في كلمات شرحت فكرة النبي بوضوح تام:

– روح الرب عليّ، لأنه مسحني لأبشر المساكين، وأعلن التخلية للمأسورين، والبصر للعميان.

وكانت نبرة صوته تهز السامعين. وأعاد السفر، دون اهتمام بردة فعلهم، وأضاف بصوت أكثر قوة، وأعلن:

– اليوم تحقق هذا الكلام الذي تسمعونه مني.

وكنت أراقب كل شيء من المكان المخصص للنساء. فاستولت الدهشة على جميع السامعين، أعقبها الاستنكار، كعاصفة في بحيرة. وحاولت أن أبقى هادئة، لظني أن مكان الصلاة هذا سيمنع تطور الأمور إلى الشغب. وخاب ظني، عندما صرخت زوجة الخازن بجانبي:

– إنه يحسب نفسه المسيح!

فعلا اللغط.

- مسيح؟ أين هم جنوده وسلاحه؟

وصرخ آخرون بغضب:

- ما قيمة المعجزات التي يستغل بها المؤمنين؟ ماذا ينتظر ليجترح مثلها أمامنا؟

وما عتّم أن اختلط الخبث بالمعارضة.

- سترون. ان عاقبة هذا الكفر ستقع علينا.

وأضافوا الاستهزاء إلى كل ذلك:

- أليس هو ابن يوسف النجار؟ أليس هو أخ شمعون، ويعقوب، ويوسي؟ أليست أسرته تعيش بيننا؟

أنا أعرف كيف يواجه ابني التهديد. فأجاب بتحدٍّ:

- لا يكرم نبي في وطنه، وأهله يحتقرونه. كان في إسرائيل، في زمن إيليا، أرامل كثيرات، عندما انحبست السماء ثلاث سنين وستة أشهر، وصارت مجاعة كبيرة، ومع ذلك لم يرسل إيليا سوى إلى أرملة ساربتة، في كورة صيدا.

واسترسل، دون أن يهتم بالضجة التي أحدثها بكلامه:

- لقد كان برص كثيرون في إسرائيل، في زمن النبي اليشاع، ومع ذلك لم يرسل إلا إلى نعمان السوري ليتطهر.

فثارت ثائرة الجمع، وهجم الذين كانوا واقفين في الخارج لقلة المكان، إلى الداخل، واصطدموا بالمؤمنين الذين أرادوا الخروج. وصاحوا: يا للمجدّف! يا للكافر! يا للمشعوذ! يا للمجنون! وكاد يسقط يسوع تحت الأرجل في الزحمة. فهَمَمْتُ لنجدته، ولكن النساء اللواتي يحطن بي، أمسكنني من حزامي، ولم يتسنى لي سوى أن أراهم يدفعونه إلى الخارج، حتى وصلوا به إلى منحدر الصخرة ليلقوا به في الوادي. وقد عرفتُ ذلك من يعقوب، فيما بعد. وأصابني الهلع إذ ذاك.

- هذا غير ممكن، فيسوع لا يثير الحقد، بل بالعكس يبشر بالرحمة، ويقوي الإيمان بإعلان تحقيق الموعد.

وما إن تأكدت أنه بحالة جيدة، حتى صرت أفكر في انه أغضب من دون أن يقنع، وضرب بقوة وبسرعة قرويين غير مهيئين لاستقبال البشرى بهذه السهولة.

أجل، ولكن هؤلاء الناس الذين يشاركونا الطعام، أرادوا قتل ابني. وصرفت قسماً من الليل في إعداد الفطائر، وقد قضيت على كمية العسل الاحتياطية. وكنت

كمن يترقب قدومه، وكانت عودته إلى البيت، بالنسبة لي، أشبه بالسعادة التي يشعر بها المرء لدى قدوم العام الجديد. فقلت: لم ينس قريته، فهنا تمت اكتشافات طفولته، هنا عشّش طائر الأبرص الذي يبتلع بقايا الخبز، هنا ترقد الألعاب التي صنعها أبوه من الخشب. وكنت، في غيابه، قد أخفيت مطرقته المفضلة، واحتفظت بمصراعه الشبيه برجل القطة، ورفعت الناي الذي استخدمه، وقلت: لن يمسّه أحد بأذى.

وسرعان ما لاحظت التغيير الذي طرأ عليه، وقد أكد لي الزمن هذا التغيير. لقد كنت آمل أن يقترب مني، ويفتح لي صدره قليلاً، ويسند قلقي بعد القبض على ابن خالته، على الأقل. لاشك أن تحفظه في محله، وهو منسجم مع التقليد، إذ كنت مجرد امرأة، لا يحق لها السؤال، ولو فعلت، لما استوجب عليه إجابتها بالضرورة. هناك صمت لابد منه في العائلة. من جانب آخر: على الحب أن يكون خافتاً.

إني لا أدعي الأمانة لهذا المبدأ، فلقد دفعني حبي في ساعات كوابيسي إلى تحدّيه بأسوأ سؤال: "يا ابني، أتحبني؟". لقد ألقيت هذا السؤال لدى رؤيتي إياه لا يبالي بي، وكأني لا استحق أن أعرف شيئاً عنه، أو أن أفهم، بينما كنت أحترق شوقاً إليه. ولطالما تخيلته يريد قول شيء لي، ولكنه لم ينبس ببنت شفة حتى في ساعة النهوض من النوم.

تأخر الوقت بعد انتهاء الصلاة، وأخذت الأمور منحى آخر، وأوشك الشر أن يقع.

"آدوناي، يا ربي، لقد أبعدت عن ابني حتى اليوم المخاطر التي تلاحق الحَمَل، ابن السنة، وتركتَه يكبر في القامة والجمال. لقد ظننت انه نال جميع المواهب، وبما انه افتُدي بحسب الشريعة، فسيقبل أن يأخذ دور الابن البكر في العائلة، ومن أجل شعبه. وإذا ما قررت أن تجعل من عبدك سيداً، وتفتح الطريق الملوكي أمامه على خطى داود جدّنا، أسكنه تحت حمى جناحيك، ومن رحمتك اجعل له ترساً. خلّص مَن رسالته أن يخلّص. لا تخف من السهام التي تصوَّب إليك في النهار، ولا ترتعب من الشياطين التي تفترس في الليل".

وفي صباح اليوم التالي تقاطر النصراويون بخمول نحو المجمع، زرافات ووحدانا، وكان ذلك اليوم يوم الغفران العظيم. وصلت أسرتنا إلى المجمع من دوني، إذ استصعبت الانضمام إلى هؤلاء الذين لاحقوا ابني. وصرت أتابع التبركات من زاوية شفاهي، بلا تحمس من البيت الفارغ حيث مكثت، وأذكر أنني فتحت الباب الخارجي على مصراعيه، مستنشقة الهواء النقي الباردة وأنا حيرى.

وترك المؤمنون أحذيتهم في حافة الشارع الفارغ ليدخلوا إلى الصلاة حفاة. وكان هذا الطقس التكفيري إلزامياً على الجميع، وقد خضعت له أستير نفسها بالرغم من المسمار الذي أنغرز في رجلها. ولقد أعنتها، لدى عودتها، في تنظيف الجرح مما تبقى من قشرته. وبما إني ضحيت بالرتبة الطقسية، فلقد عزمت على الذهاب إلى العين لجلب الماء، إذ اعتدت التعويض عن اهمالاتي بفعل إرادة مقصود. فالغسولات الطقسية مطلوبة في الأيام التالية ليوم الغفران، بعد أن كانت محذورة في بدء أعمال التوبة.

ولكن ما شأني والجرار والينابيع في يوم الأيام هذا الذي يتوقف فيه الزمن؟ فمصيرنا يتقرر اليوم في محكمة القاضي الأعظم. إنه يزن كلٍ واحد منا، وميزانه عدل. وإذا أصدر حكمه على البشر من دون رحمته، لأدانهم جميعاً؛ ولكنه يصدر حكمه بعد إغداق رحمته، وهكذا يرفع وجه التائب نحوه، وهو على علم بعدد المختارين. وشعرت بعدم الارتياح، فأجهشت في البكاء، ولكن دموعي التي هزتني أدفأت قلبي. فناديت بصوت جهوري: :آدوناي، يا ربي، لا يحسن اليوم، ولا في أي يوم آخر، أن يلتمس المرء شيئاً لذاته، ومع ذلك، رحماك، أذكر أمتك. أنت وحدك تستطيع أن تنهضني من التراب الذي أتمرغ فيه. أعطني قوة الآباء الأقدمين، أنا ابنتهم. لقد كانت كلاهم أكثر صلابة من أعمدة الهيكل، وقد مدّت شجرة الأجيال جذورها عميقاً، وقاومت العواصف فانتصرت عليها. لتسندنا هذه الشجرة، أنا وابني يسوع، فنحن من أعضائها".

وعادت الحياة إلى طبيعتها في الناصرة، بعد أن تطهرت بالتوبة، وأخذ الناس يتهيأون لعيد المظال، بجمع أكداس الأغصان في أطراف المدينة، وفكرت أنا في تخصيص ركن لتكديس أغصان اللبلاب والأرز.

وكانت أستير منشغلة بشؤونها، ومردخاي قافل على نفسه في المشغل، لا يخرج إلا لتناول الطعام. وكان يدمدم، بين لقمة وأخرى:

– ومع ذلك لا شيء يستدعي القلق. إذا كان ابنك هو المسيح، فَلْيصبحْ عظيم الكهنة أو ملكاً، ويحظى إذ ذاك بالحماية، ويكون فخراً للعشيرة. وإذا لم يكن كذلك، قد يكون مجرد نبي قد خلت من قبله الأنبياء، ممن اعتدنا عليهم.

لم يأخذ مردخاي ثقافته على أيدي المعلمين، ولكنه كان يستذوق الأقوال المأثورة التي تبدأ بعبارة: "واحدة من أثنتين...". فبعد أن جرحني، حاول مداواتي.. وهكذا تنقشع السماء، فلا يعود يسوع في خطر.. لذا تابع حديثه، وهو مرتاح إلى أقواله:

– اعترفي يا مريم، بأن الأفضل لابنك أن يقبل بموقع أدنى. فالمشغل يحتاج إلى أيد عاملة. إن الطموح شراب مسكر، وإذا أفرط المرء في الشرب، يرى الشخص شخصين...

ونسيت ألمي مع الزمن. فلقد أخبرني إلياهود بأن يسوع قد هرب من الناصرة وذهب لأخذ قسط من الراحة عند صديقه لعازر، وإنه سعيد هناك. ومع ذلك، تحاشيت الخروج إلى الشارع أو السوق، لئلا أتعرض لمن يرثي لحالي، أو يسمعني تعليقاته. فهناك أناس يحسنون اللعب بالكلمات، كما يلعبون بالنبال التي لا تخطئ أهدافها.

وحدث يوماً، بينما كنت خارجة من بيتنا بتحفظ، أن رأيتني وجهاً لوجه مع رجال من أسرتنا على عتبة الدار، لست أدري كيف! فأنذرني وجه مردخاي بخطب جلل قبل أن يتفوه بأية كلمة: موت يوحنا المعمدان قد لا يفاجئ أحداً! فالجميع على يقين من أن اعتقاله لن ينتهي إلا بموته: الخبر وصل تواً إلى الناصرة! ولكن لم يتصور أحد بشاعة الجريمة التي ارتكبها هيرودس. فلقد نالت هيروديا زوجة هيرودس أنطيباس التي أخذها منتهكاً المحارم، أن يُقطع رأس المعمدان، ويُسلَم على طبق فضي إبان الوليمة المقامة لابنتها سالومي، و لم يكن رئيس الربع يرفض لها شيئاً.

فعلّق إلياهود:

– لقد سمعت هيروديا كلمات الحرم التي نطق بها المعمدان، فانتقم قلبها الذي أعماه الغضب. ان ما يحقد عليه الخاطئ ليس الخطيئة في ذاتها، بل الذي يشي بها.

فعبرت شوشنة عن قلقها:

– من أغلق عيون يوحنا؟ هل دفنت جثته؟ هل اهتم أحد بغسل جسده؟

– من حسن حظ إليشباع أنها ليست حية. وإلا لمنعوها حتى من أخذ رفات ابنها.

فقال مردخاي:

– سنحفظ حالة الحزن مدة سبعة أيام.

إني أثني عليك الآن يا مردخاي، وقد انضممت إلى آبائك، لأنك تكلمت يومذاك عن يوحنا المعمدان كما توصينا تقاليدنا وكما يحكم به قلبك، مع انك لم تكن قريباً منه، لا بالنسابة ولا بالدعوة. أما أنت يا يعقوب، وقد صرت تحمل اليوم لقب الرسول الغيور للبشرى السارة، لازال صدى صوتك المتكسر في أذنيّ وهو يرنم آيات المزمور القائل: "لقد اضطهدوه دون هوادة، لأنه فضح خطايا الملك؛ وعليه افترى العملاء في أبواب البلاط. لقد أصبح أضحوكة الندماء في وليمة العظماء". وأنت يا شمعون، فقد ناديت بدعوات البارّ المتألم: "لتغمر المياه الغزيرة معذبيه، لتكن موائدهم لهم فخاً، ولتبق بيوتهم خراباً". وغطى مردخاي رأسه، وأحنى عنقه، ورددنا وراءه: "سيمسح الرب كل دمعة من الأعين، وسيرفع هامة شعبه".

الفصل الخامس عشر

العاصفة

لم تخمد الضجة التي أثارها مقتل المعمدان. فلقد اهتز البلد كله لهذه الجريمة، وقرأ كثيرون في رسالته الحقيقة التي نادى بها الأنبياء. أما عندنا، فقد لفّ الوجوم وجوهنا كلما ذكرنا هذا الاستشهاد، لأننا بذكر اسم يوحنا كنا نفكر بيسوع. ليس صحيحاً أن الخوف أو الألم يوحدان الأُسر دوماً، فمن المصائب ما يفرق. ولمت نفسي على صلاتي من أجل الأحياء، بينما كان عليّ أن أبكي من أجل الأموات. فلقد كانت العاصفة تهدد المركب القوي، أي بيتنا، وكان مردخاي يخشى الغرق، لأن الدفة فلتت من بين يديه.

وقررت أن لا أظهر في المجمع من بَعدُ. أجل، لقد أحببت أن أصلي وحدي منذ زمن طويل، فامتنعت عن استقبال أحد. لقد أصبح البيت لا يطاق بسببي، ولم أعد أتذوق أي عمل أقوم به. وكانت نظرة أستير غير المشجعة تذكرني، دون انقطاع، بحالتي البائسة، هي التي أخذت مسؤولية الإصلاحات على عاتقها. وكان الأولاد، لدى عودتهم من أعمالهم، يجدونني متوترة الأعصاب، زائغة العيون. ولكنهم لا ينبسون ببنت شفة، لا هم ولا مردخاي. [...].

لقد قُتل يوحنا لأنه فضح زواج المحارم الذي أرتكبه رئيس الربع، فلم تتحمل الزوجة المجرمة أن يبقى يوحنا حياً. أما يسوع، فلم يفعل شيئاً من هذا القبيل، بل يكتفي بتعليم الفاتحة: "اسمع يا إسرائيل، إن الأزلي واحد هو". ويضيف إلى هذه الوصية وصية

ثانية: "وتحب قريبك كنفسك". إنه لا يثير الجماهير، ولباسه مثل سائر الناس، ويصوم بحسب الشريعة، ويستمع إلى الآخرين بقدر ما يعظهم.

وقاطعني يعقوب وفمه ممتلئ بالطعام:

– كانت حدود البحر عذراء في السابق، وليست ملك أحد، أما اليوم فقد استولى عليه الأمميون ليبنوا مدينة جديدة على سواحله ويسموها طبريـة على اسم طيباريوس إمبراطور روما. وسيقيمون فيها حمامات، وميدان خيل، ومسرحاً، وقاعة للمجلس، وتماثيل.. مما يروق للوثنيين، ونستنكره نحن. هذه هي الأزمنة التي نعيشها، والتي تغرّبنا عن ذاتنا.

– كفرناحوم هي مدينتنا، وأفهم لماذا يرتاح إليها أخوك. ولربما هو الآن في منزل يونا...

تبعنا الطريق نزولاً إلى بحيرة الماء الأزرق الذي يلتمع بين التلال، وقد أيقض ذلك المنظر فيّ، من جديد، ذكريات طفولتي لما كان والدي يشدّ على يدي، فيحميني من كل شيء: من الحصاة المتدحرجة، ومن الحجرة الزالقة تحت الأرجل؛ من قاطع الطرق الذي يعترض الدرب، ومن الرعد الذي يباغت. وبينما كنت أجترّ ذكرياتي، استرعوا انتباهي الى ما يشبه تطوافاً بمحاذاة الماء يتجه نحو كفرناحوم على ما يبدو. فلمحت جمعاً من العرج، والعميان الذين يتساندون بالأكتاف، والمرضى المحمولين على الحمالات. وميزت هتافات باللغة اليونانية، والآرامية، وبلغات أخرى لم أفهمها. ودفعني يعقوب بمرفقه وأشار بإصبعه إلى رجل يركض عبر الحقول وثوبه بين أسنانه، فعرفت فيه صديق صموئيل الذي يوكل أهل الناصرة رسائلهم إليه. لا بد انه يحمل رسالة عاجلة جداً. وتأكد لي ذلك، إذ وصلنا إلى محاذاة الموكب، فسألت أول امرأة صادفتها:

– ما الأمر؟ إلى أين يذهب كل هؤلاء؟

– ماذا؟ ألم تسمعي عن النبي، النبي الناصري؟ إنه ليس نبياً كالآخرين، إنه المسيح. ساعديني، أرجوك، إن أرجلي لا تحملني، ولكنه سيشفيني. ما هو مرضك أنت؟.. إذا سألته سيشفيك.

لم أكن أنا التي أمسكت بذراع المرأة لأسندها، بل يعقوب أمسك بذراعي. وهكذا سرنا كلانا حاجّين بين صفوف الحجاج الآخرين للقاء الابن الذي أنا ولدتُه، وربيتُه في بيت أبيه النجار. وتضخم موكب الجماهير على الساحل بجمع من سكان قرى

السواحل القادمين بقواربهم. وفتح لي يعقوب الطريق بأكتافه، وإلا لما وصلنا قبل هبوط الظلام!

واستعجلت قافلتنا الخطى، فلاحت أول بيوت كفرناحوم. وإذا بأربعة يحملون سريراً ويفتحون الطريق أمامهم بالهراوات. ورفعوا حملهم فوق الرؤوس، وفي نيتهم أن يفعلوا المستحيل. فعلا الصياح بالاحتجاج، غير أنهم لم يأبهوا بأحد، بل تقدموا، ثم تسلقوا جدار الدار، وتأرجح السرير، حتى كاد الرجل يتزلق من مكانه، ولكنهم بلغوا السطح، حتى نقبوه! وتناقلوا اسم يسوع، فقلت: إذن ابني هنا؟ وكان الرجل المحمول مقعداً أتو به إليه ليشفيه. فشعرت بنفسي كالغصن اليابس قد جرفه نهر الأردن، فهتف يعقوب بالناس أن النبي أخوه، وأنني أمه، ولنا الحق في أن نقترب منه. ولكن الجماهير سدت الطريق إليه. وفجأة سمعت ضجيجاً، ففهمت ما حدث.. إذ رأيت رجلاً بأسماله، يجري ويقفز، وهو حامل سريره على كتفه. فصرخ الجمهور:

- لقد شفي. أنظروا إليه. إنه يركض!

إنه يركض. لقد شفي. من يكون ابني هذا؟!

قال زَبْدَيْ:

- هكذا الأمر كل يوم. فيسوع رهينة المدينة، ولم يعد أحد يستطيع رؤيته. ارتاحي عندنا يا مريم وتناولي الطعام معنا. غدا سنراه.

سنراه؟ كيف؟ هذا الابن الذي يفترسه حماس الجماهير، هذا الابن الذي شفى المقعد، لم استطع أن أمسّه، ولا حتى أن أنظر إليه، مع أنني والدته! فبدت لي فكرة الاحتفاظ به في دكان أبيه في الناصرة فكرة في غير محلها أبدا. فإذا كان إسرائيل مربوطاً على سريره، وكان على ابني أن يتقدم ويحرره، فهل يسعني أنا أن أعاكس إرادة القدوس في أن يأخذه مني ويعطيه للشعب الذي يحتاج إليه؟

واجتاحني الضعف في الليل ونالني سلطان الخبيث حين صوّر لي وجه إليشباع مغرورقاً في الدموع، ورأس يوحنا مضرجاً بدمائه. فاستولى عليّ الخوف، كما استولى على رجل الله أيوب:

- أخاف شيئاً واحداً، وها قد حدث لي. ما توقعته وقع عليّ.

فانتبه زَبْدَيْ وقال:

- على يسوع أن يحتاط لنفسه.

- هل هو مهدد؟
- لا أظن، ولكن..
- هل رأيت جواسيس من جماعة أنطيباس حواليه؟
- كيف يمكننا معرفة ذلك في هذه الزحمة؟

[...]

- نحن فخورون باستقبال ابنك في ديارنا يا مريم. أرأيت كيف هتفوا بحياته؟

كان المتكلم زَبْدَيْ. ثم التفت إلى ابنه يعقوب، فقال:

- ما رأيك بذلك كله؟

وكانت النار التي تلفح القدر، تزيد من قساوة الأخاديد الثلاثة التي تنخر جبين يعقوب عندما يكون مهموماً.

- إن الأزلي يجترح الآيات على يد الأنبياء منذ قديم الزمان. وللفريسيين أنفسهم مثل هذه القدرة. ولكن ...

- ما معنى: ولكن...

- ولكن هذه المرة، الذي يجترح الآيات هو أخي!

وكان من المفيد أن تهتز قناعات يعقوب، فاعترف زَبْدَيْ قائلاً:

- يفعل الأزلي ما يشاء بأولادي أيضاً.

فصححتْ سالومي العبارة بقولها:

- بل قل بأولادنا!

- لم يعد يعقوب ويوحنا يلقيان الشباك منذ زمن بعيد. أجل إنهما صبيان هادئان، ولكنهما يفقدان عقليهما عند حضور المعلم، ولا يعود يوجد سواه بالنسبة لهما، فينصتان إلى كلامه كالكلاب الأمينة، ويتبعانه، ليس في هذا الساحل من البحيرة حسب، بل في الساحل الآخر أيضاً، ولقد رآهما البعض حتى في جراسا. ولم تعد السفينة تفيد سوى للعبور إلى الطرف الآخر، أما الصيد فاقرأ عليه السلام...

فتنهد زَبْدَيْ وقال: إن الصيد هو باب رزقنا، فلا ينبغي أن نتركه من دون سبب كاف.

- ولكن يا مريم، إن ابنك يملك سحراً خاصاً.. وإلا فلست أفهمه. لقد سمع أندراوس ابن يونا النداء أولاً، فقدم له أخاه شمعون، وسرعان ما هتف كلاهما بأنهما

اكتشفا المسيح. واستعجل الخطى في اتباعهما كل من فيليبس الصيداوي ونثنائيل القاني، ذلك ان الأنباء تجري أسرع من الأرانب حول المياه. ومن بعدهما جاء يوحنا ابني الـذي حذا حذوهما. ان يوحنا لم يرغب في البحر أبداً، والعاصفة ترعبه. لقد صُنع رأسه مـن مادة أفضل من ذراعيه، ولم أفكر في الاعتماد عليه في نطاق المهنة. أما يعقـوب، فلقـد كان أملي أن يتسلم تجارتنا، لأنه قوي العضلات وله دراية في إدارة الأعمال. ولكنه هو أيضاً انطلق وراء الآخرين. لا بأس، فهو أيضاً قد وهبتُه ليسوع بطيبة خاطر. لقد قال لي رئيس المجمع قبل أيام: "أولادك لن يصلحوا الشباك من بعد، ولكنهم قد يقطعون أوصال تلك التي يلقيها الكفرة أمام أرجلنا".

حدجتني سالومي بعينيها وهي تستمع إلى زوجها. فلقد رفض يوحنا الـزواج الذي كانت قد رتبته له، وفيما ظلت تذكر ذلك، لم يدخل في قناعتها أبداً ان تفضـيله إتباع يسوع سيجديه نفعاً. يا للمسكينة! لأنها لم تجسر فتح فمها في هذا الموضوع، لئلا يسدّه زَبْدَيْ الذي يخنق تنهداتها حال صدورها. وشعرت أنها تصبّ جام غضبها علـيّ، فأتخذت حذري، واحتطت لأسئلتها، وأنا أعدّ أجوبتي مسبقاً:

- يسوع يقول كذا وكذا عن الملكوت. هل تعرفين شيئاً عن هذا الملكـوت يا مريم؟

- كلا، يا سالومي.

- ألم تفكري بذلك؟

- بلى، يا سالومي، ولكني جاهلة حقاً!

- أنا أكثر جهلاً منك. ولكني حسبت انك تعلمت شيئاً منه، لكونك والدته.

- بالأحرى، إقرأي ما يقوله الأنبياء: إنهم ينبئون بالسلام، وإن من السـيوف ستصنع مناجل للحصاد، وإن الشعوب ستأتي إلى أورشليم.

- لن يكون حرب من بعد؟ سيغادر الرومان بلادنا؟ بل انظري كيف يـزداد ثراؤهم على أكتافنا، وكيف تتضاعف الضرائب، وكيف يتشكى جميع الناس..

- سيحب اليهود والوثنيون بعضهم بعضاً، كما يحب ابني أولادك، وكما أحب القدوس، تبارك اسمه، أبوينا الأولين.

لقد أمسكت سالومي لسانها، خلاف العادة، وكانت هذه التضـحية ثقيلـة عليها. ولكنها تمنت أن يستقر بنوها في البلد، ويتزوجوا فيها من فتيات مـن عـائلات غنية، وأن ينجبوا عدداً كبيراً من الأبناء وتزداد ثروتهم. ولم يكن هذا ما قدمه يسوع لهم...

وفكرت.. ترى ماذا قدمتُ لسالومي في محنتها؟ لقد توقعتْ مني اعترافاً بشيء، ولم أعطها شيئاً، لقد انتظرتْ أن أستفزّها، ولكني رفضت. أما عن الأسئلة حول ابني، فلم أكن أملك أي جواب أبداً. أنا أعرف التوراة التي علمني إياها أبي السماوي، ومن مزاميرها أستقي الصراخ الذي يبعث الطمأنينة في القلب، كما تعلمت من والدتي. ولكني عاجزة عن الحديث عن يسوع عندما يسألونني، وأشعر بملاك يضع يده على فمي ويضبب رؤيتي كلما هممت بالحديث عنه.

ومع ذلك كان عليّ أن أستقبل زوجة شمعون وأندراوس ونسوة أخريات، وزوجات خطأة قد أصبحوا تلاميذ لابني. لقد كن ينتظرنني في فناء الدار، وكنت أكثر منهن خجلاً، بالرغم من كوني أكبر منهن سناً، فدعوتهن إلى الدخول، وجلسنا على الحصيرة التي بسطتها سالومي على شكل دائرة صغيرة. وكنّ متشحات بإزار الأعياد، وقد خفضن أوجههن حياءً بصمت. ثم بدأن يتحدثن سوية عن همومهن. فلقد ترك أزواجهن سفنهم وشباكهم ليتبعوا النبي:

- لم نهتم للأمر في البداية، وكنا نفكر أنهم لن يتأخروا في العودة إلى البيت، بل كنا ننتظر أن يعودوا أفضل مما ذهبوا، كما حدث للتائبين الذين قصدوا المعمدان ونالوا العماد على يده: هؤلاء، لم نر أناساً أكثر انكباباً على العمل منهم. أما الآن، فقد هجرنا أزواجنا، وتجاهلونا.

وتحدثن عن وحدتهنّ وفقرهن، وعن الإهمال الذي أصاب الأولاد، والشكوك الذي وقع في العوائل. لقد كانت قلوبهن تبحث عن التعزية لدى قلبي.

ثم انقلب الحديث إلى بكاء، فبكيتُ معهم، لا شفقةً حسب، بل لأني أنا أيضاً أتألم مثلهن. لقد أحجمت عن الكشف عما أخفيتُه عن كل أحد، ولم أبح به لأحد، ولا حتى ليعقوب، بل تعمدت ألا أبوح ليعقوب بما سمعته من شاهد عيان، أن يسوع عندما علم بأننا في الجمهور، لم يقم بأية خطوة نحونا، بل أعلن لسامعيه:

- من هم أمي وأخوتي؟ إن من يسمع كلمة الآب ويطبقها هو أمي وأختي وأخي.

لقد آلمتني هذه الكلمة عندما نقلت إليّ. فلقد كانت بثقل التضحية التي يطلبها منا العلي. وقد نقلت إلي أقوال أكثر قساوة نسبت إلى يسوع، مثل: "من أحب أباً، أو أماً، أو زوجة أكثر مني، فلا يستحقني". هل كان ابني يعلم أن لا أحد يعزّه أكثر مني في هذا العالم، أنا والدته التي أبعدها عن طريقه، بقوله:

- يا امرأة، مالي ولك؟

لقد أبعد يسوع نفسه عن الجذع العائلي باسم الحب الذي يبشر به، وجرح الأغصان الخارجة عن هذا الجذع. ان الآب يقتلع من يدعوهم إليه ويمتلكهم لوحده، وليس لأحد الحق في التعويض. هذا ما قلته لتلك النسوة البائسات اللواتي حملن بؤسهن إليّ كسلّة مثقلة بالهموم. لست أدري إذا ما أفلحتُ في إيقاظ الثقة لديهن، أو على الأقل في إدخال التعزية إلى قلوبهن.

لربما أعدت الثقة إلى المتزوجات منهنّ حديثاً، إذ لازال الوقت أمامهن بعدُ للتفاؤل، أما سالومي....؟ لقد ردّد مردخاي يوماً أمامها:

- إن يسوع، بخلاف يوحنا المعمدان، عندما يتخذ تلميذاً، لا يقبل أن يتقاسمه أحد، ولا يعوض شيئاً لأسرته.

ثم نقل قولاً لأبيني:

- منذ الآن فصاعداً، إذا وجد في بيت خمسة أشخاص، فثلاثة يتخاصمون مع أثنين، واثنان مع ثلاثة...

لذا لم أستطع التكلم مع تلك النسوة عن الصبر، و لم أجسر على ذلك بسبب سالومي.

الفصل السادس عشر

العَوَز ولا الدَين

[...]

ومنذ ظهور النجمة الأولى للسبت، أتشح مردخاي بوشاح الصلاة، وأنشد عرفانه بجميل الأزلي:

– لقد عرفنا الجفاف، وليس الجوع؛ لقد عرفنا العوز وليس الدَين؛ أيّ من بناتنا لم تُبَع كعبدة، ولا من أبنائنا مَن مات بالسيف؟

ثم أضاف:

– يا مريم، إذا استمررتِ تندبين حظك لأسخطتِ الرب. فاحمر وجهي حياء، وخجلت من أن يهتم بحالتي النفسية.

ليكن اسم الرب مباركاً يا آدوناي ربي، أنت الذي تنبت الشعير وتقوت به العصافير. وفي منتصف شهر آذار رُزقتْ، كل من يائيل، امرأة يعقوب، وتامار امرأة شمعون، المتزوجتين حديثاً، بابن، ودعيا باسم يوسف وناتان. وكانت تلك فرصة لأفراح خاصة بمناسبة اليوم الثامن والثالث والثلاثين، إذ قدمت الوالدتان سوية ضحية التطهير. وقد افتدي البكران بثمن حَمَلَين اشتراهما الأخوان من راع له علاقة طيبة مع تجار الغنم في أورشليم. وبعد بضعة أيام حظيت عائلة قليوفا الجد السعيد، بحفيد أيضاً بركةً من الرب. وهكذا دخل الأطفال الثلاثة في جماعة أبينا إبراهيم، في الوقت الذي أصبحتُ فيه موضوع عثرة بسبب المآخذ القوية التي اتهم بها البعض ابني. فصليت قائلة: "آدوناي،

ربي، لا تحرمني من الحظيرة التي نشأت فيها، وأشفق عليّ، أنا التي أشعر بأني مسؤولة عن الجميع". فقبل ثلاثين عاماً، وقفت بباب نيكانور، محمرّة الخدين خجلاً، وأنا أنتظر دوري للتطهير: وبسبب فقرنا لم نستطع شراء خروف، بل ساومنا البائع، أنا ويوسف، لشراء زوجَي حمام، انتقلا من كفيّ إلى يدي الكاهن. وأتذكر كم كانت سعادتي عظيمة عندما قدمت طفلي، ابني الوحيد في كل شيء، تلك الخليقة الرائعة والهدية التي جاءت ثمرة لابتسامتي... لعمري أتراني تلك المرأة نفسها؟ أنا التي تطرق السنون بابها، أهتف مع موسى: "العبء ثقيل". كيف أقرأ هذه العلامات المكتوبة في السماء: أسرة منقسمة، وابن مرفوض؟

[...]

فقال لي إلياهود:

– هل فهمت ما معنى الزمن؟ انه هو الذي يمنعنا عن التملك. فإذا كان معنا أو ضدنا، فسرعان ما يسحب من أيادينا ما أعطانا إياه، ولكنه يمسك بيدنا ويجتاز بنا العالم الذي يفصلنا عن الله. لذا أرجوك ألا تتشكي، بل اعتني بالأولاد، واقبلي ما يحدث لك.

وعادت الأيام الجميلة بدورانها الثابت حول الشمس، تغلق قلادة السنة. وكنت أتردد إلى بيت إلياهود لأسمع كلامه الذي يزيدني ثباتاً. واستعدت تذوق الرجاء، بالرغم من ميلي المزعج والمرتبط بسني وطبيعتي، بسبب ماض ظننته قد انتهى. فلقد شعرت بأن حياتي، وإن لم تكن من صنع يديّ تماماً، هي مشاركة حقيقية في تجديد العالم، هذا المشروع الذي فتح ابني دربه نحو اكتماله. وذبت في المصير الذي ابتدأ تنفيذه، كما كنت قد ذبت في جمهور كفرناحوم، ولكن ذوباني، هذه المرة، كان هدوءاً واستسلاماً للحركة ذاتها. وكان هذا التبدل ثمرة النعمة التي أغدقها الربيع على تلالنا، ونتيجة لنصائح إلياهود، وامتداداً لبهجة أحفادنا المتجددة، وصدى للانسجام الذي جهدتْ أسرتنا في الحفاظ عليه، مهما كلف الأمر.

وكنت أتردد عند راعوث لعدة أسباب، منها الصداقة التي تدفعني نحوها، والشعور بالحاجة لفتح قلبي لها، ومنها الإحساس برسالة كلفني أخوها لنقلها إليها والالتقاء بها. وهكذا كنت أناديها كلما مررت بجوار بيتها، فكان ينفتح الباب لأرى من خلاله الأثاث والأخشاب والأسرّة المكدسة في الفناء، وبقايا الطعام، والأشياء المبعثرة من دون نظام. وما إن عرفت راعوث صوتي حتى هرعت إليّ ومكنستها بيدها مع إناء

الأوساخ، وهي تضحك بملء شدقيها. وأسرعت الخادمة الي مساعدتها في رفع الغطـــاء الطيني وإعطائها إياه، ثم اختفت، فبقينا كلتانا وحدنا في الفناء.

– أراك تفركين الآنية وتنظفين.. مع ان عيد الفصح لازال بعيداً. ألعلّ أبـــرص نام عندكم؟

– لقد جاءنا ابنك البارحة مساء، وتعشى معنا، وقضى الليلة عندنا.

يسوع عند لاوي جابي ضرائب! تصوري دهشتي. يا لخباثة راعوث إذ أصابت الهدف تماماً!

– أرجوك، لا تزعجي!

– أنا أيضاً تحت سقفك يا راعوث.. وزوجك مختون.

ثم تعانقنا.

ووصفت لي راعوث كيف كان البيت ممتلئاً، والبرهان هذه الفوضى القائمة في المنزل، وكيف لم يستطع المدعوون دخول البيت، بل دخل بالأحرى من دعوا أنفســـهم بأنفسهم، مع هرجهم في الخارج، حتى اندفعوا نحو الباب وكادوا يخلعونه من مكانـــه. وتتكرر المسرحية كلما سمعت الجماهير بقدوم يسوع، في بيت صيدا كما في كفرناحوم، وقد تحققتُ ذلك بأم عيني.

و لم تدع الشمس التي بسطت خيوطها الأخيرة على الجدار الحجري راعـــوث تنتهي من تنظيف الدار قبل سقوط الليل، واسترسلت في سرد الوقائع بالتفصيل دون أن أطلب ذلك إليها.

– تصوري القاعة: أصناف عديدة من الناس المعروفين والمجهولين دخلـــوا إلى صحن الدار، وصاروا يطوفون حول المائدة متفحصين استعدادات العشاء، ومســـجلين بعيونهم عدد المتكئين ومراتبهم الاجتماعية. وكان من بينهم فريق من الفضوليين الـــذين تكتشفينهم من وجوههم الواجمة، ومن صنّاع الأخبار، وموزعي الأحكام والأدانـــات على الناس، وبعض معلمي الشريعة، وخاصة من الدسّاسين من عملاء الفريسيين. لقـــد جاؤوا لإقحام يسوع، بحسب توقعاتي. لقد كانت الفرصة سانحة، ولكن يسوع وضعهم في حدهم وأعادهم إلى أماكنهم التي ليست في المقدمة، وذلك بأسلوب التحدي والثبات الذي نعرفه عنه. فلقد جاء في أقواله، مثلاً: "ليس الأصحاء بحاجـــة إلى طبيـــب، بـــل المرضى". وإنما قال ذلك جواباً لاعتراضهم على تناوله الطعام في بيت عشار؟

– ألم يشعر زوجك بالمهانة؟

– متّى؟ لقد كان فخوراً بأن يدخل يسوع بيته. أظن أنه يفكر في اعتزال الجباية وترك مهنته.

– وماذا يفعل بعد ذلك؟

– سيتبع يسوع.. بكل بساطة!

هذا الرجل أيضاً، لاوي المدعو متى، العشار، زوج أخت إلياهود، زوج راعوث.. هو أيضاً؟! وشعرت ببرودة المساء على كتفيّ، مع موعد صلاة الغروب.

واستأنفت راعوث قصة العشاء: مغامرة، تحدّ، نصف كارثة. لحم الجدي؟ لم يكف للآكلين!.. السمك؟ لقد اشتعل! أما الخدمة، فقد قامت بها النسوة، دون أن يعرف أحد من هي مسؤولة عن ماذا!

– على كل حال انتهى كل شيء على خير، بالرغم من وجود الفريسيين والزواني!

– الزواني؟ من أين أتين؟

– من مجدل. إحداهن، اسمها مريم، أقبلت ورائحة العطر والياسمين تفوح منها. حاجباها مفحمان بالكحل، وشفتاها زرقاوان بالوشم، والحلي تغطي قوامها، ثم تترع حلاها وتلقي بها عند أقدام ابنك. لقد ألقت الدهشة في الجمع. وعيناها لم تكونا سوى له!

– هل تلت أولئك النسوة صلاة التبريكات معكم؟

– أرى ما يقلقك! اطمئني، لقد طبّقنا الشريعة، وحملت إناء الغسولات أنا بنفسي، وقد غسل يسوع يديه، وكذلك فعل تلاميذه.

– إذن، حسناً فعل ابني بتناوله الطعام عندكم.

ثم تابعتُ، وأنا أنوي التركيزعلى كلماتي:

– كثيرون يعرفون، يا راعوث، أن زوجك ليس عشاراً كسائر العشارين. إنه رجل بار. ولكن إذا ترك وظيفته، فكيف ستعيشين أنت وأطفالك؟ هلمي واسكني معنا..

– لن يصيبني الهم. فأخي إلياهود يفتح لي بيته، وراحيل تستقبلني في بابل.

[...]

– لا يمكن للمرء أن يجترح كل هذه الآيات من دون أن يثير سخط الناكرين، ولا يمكن فضح الشر دون قيام أعداء. غير أن غالبية الشعب هي مع الرابي. حتى في القصر، كثيرون يؤيدونه.

– في القصر؟ ماذا يقولون عنه؟

وتوقفت هلدا، زوجة كوزي، خازن هيرودس، قليلاً، ثم أردفت، وهي مهتمة بنقل الحقيقة:

– حسب الأشخاص.. فهيرودس أنطيباس نفسه يتساءل إذا لم يكن يسوع هو المعمدان قائماً من بين الأموات. إنه لا يجد النوم، لأن جرمه يلاحقه. ويظن آخرون أنه إيليا عائداً. بينما يعتقد أولئك الذين شهدوا قيامة فتاة كفرناحوم بأنه قدوس الله، وأنا من هؤلاء. يا ليتك رأيت حماس الجماهير وهي تتدافع للمس الفتاة الميتة، أو بالأحرى الحية، وهي تهتف: "نحن شهود للآيات التي يجترحها"! أنا متأكدة من أن الرابي لا يفصح باسمه الحقيقي ويتركه سرياً بسبب الرومان. لقد أوحى اسمه ليوحنا المعمدان، ومن معتقله في قلعة ماكيرونت، استطاع أن يبعث إليه رسولاً يسأله: "هل أنت الآتي؟". فأجابه: "قولوا ليوحنا: العميان يبصرون، والصم يسمعون، والبرص يتطهرون، والموتى يقومون، والبشرى السارة تعلن للفقراء".

– البشرى السارة للفقراء... أجل، ما أجمل ذلك!

– إنها كلمات الكتاب عن المسيح. لقد أعلن الرابي بنفسه عن ذاته في قيصرية فيليبس أمام شمعون الذي لم يمسك لسانه. ثم، تذكروا نبوة إرميا النبي القائل: "ها إنها تأتي أيام سأقيم فيها لداود برعماً صالحاً يملك كالملك، وسيكون حكيماً، ويمارس الحق والعدل في البلاد، ويكون اسمه "الله، عدلنا". ما معنى اسم ابنك يا مريم؟ اسم يسوع معناه: "الله يخلّص". فإذا كان مخلصاً، فهو عادل إذن. ونحن نعلم أيضاً أن أسرتك تنحدر من سلالة الملك داود.

– ان زرع داود يشبه رمل البحر غزارة.

لو لم أتملّك نفسي لضممتُ هلدا بين ذراعيّ.

– وإذا بايعه الشعب ملكاً؟

– هلدا، وماذا إذن عن هيرودس أنطيباس، أنت يا زوجة خازنه؟

فنظرت إليّ برفّة عين أوّلتُها بمعنى "الحق معك". ولكنها استطردت، بعد برهة صمت، وتجرأت وقالت:

– يا للغرابة! أنت أمُه ولا تعرفين أن ابنَك هو قدوسُ الله؟

وهزتني الكلمة كصفعة في وسط خدي، فتملكني الخجل، وأجبتها:

– علمتني والدتي ان المسيح سيهبط من الغيوم.

كان جوابي دفاعاً هشاً، و لم تجبني هلدا بشيء، بل رأيت غيمة داكنة من الحزن تمر على عينيها. وحاولت افتداء نفسي بحركة من القلب، فوضعت يدي على يدها، قائلة:

- هذا الرابي.. نحن اثنتان على الأقل، ممن يحبونه!...

فتجلت أساريرها بابتسامة تنّم عن النصر، وهكذا سجلت خطوة إلى أمام في العلاقة التي كاد ينفرط عقدها بيننا بسببي أنا. لقد كانت هلدا تستحق اكتشاف أن ترددات لم تكن سوى من باب الفطنة، وان تحفظي كان من الخجل، وارتباكي من التأثر. ودخلت علينا فجأة عبدة همست بشيء في أذنيها، لربما إنذار ما! فجمعت أذيالها بسرعة وطارت عني كما حطّت، واختفى عني طيفها.

سَرت الحركة لتعزيل السوق، وجمع الحمالون بضاعتهم، وفرغت الساحة بلمح البصر، و لم يبق سوى الجوالين يطوفون المكان: أما أنا فهرعت مسرعة نحو يعقوب، وقد فَقَدَ أعصابه لتأخري. لقد تحاشى أن يسألني عن لقائي، وتملكني الرضا عن كوني لم أقل شيئاً. وإلا لعجزت عن البوح له بأني رأيت في شخص هلدا توأماً لدانيال الذي نجا من جب الأسود: يا لك من ملعونة يا مدينة قيصرية!

ونادى يعقوب مكارياً. كم حماراً ركبتُ خلال أربعين سنة من عمري! لم يكن الحمار الذي ركبته يومذاك فتياً، فكان يعقوب يستحث المسكين بإلحاح كي يسرع الخطى، فأهتز أنا من على ظهره مثل جراب من الجوز، وتهتز معه أفكاري: يسوع إيليا؟! يسوع المعمدان؟! يوحنا المسيح؟!... واختلطت الشخوص والأدوار في فكري كما يحدث في الأحلام. هناك همّان وحيدان يربطان ما بين عناصر هذا المزيج الفوضوي، وكلاهما مرتبطان بواقع حاليّ: كيف أرغم السماء كي تتيح لي أن ألتقي بابني؛ وإذا ما عرف الشعب فيه منتظَر إسرائيل، حسب تأكيدات هلدا، فماذا تحمل له الأيام القادمة؟ وشعرت بصعقة في أحشائي. والتفتُ إلى المرأة التي اجتازت أمامي وطفلها الممتلئ عافية يتأرجح على ظهرها، فحسدتُه على غفوته السعيدة.

الفصل السابع عشر

زمن الحج

لم يكن ذلك لقائي الأخير مع هلدا. فلقد اقترب زمن الحج، إذ اعتدت على المشاركة فيه كل عام، و لم أشأ التغيب عنه هذا العام أيضاً. فانضممت إلى أستير ومردخاي اللذين قررا القيام به. وهكذا التقيت بهلدا ثانية، كما توقعت، يومين بعد وصولنا إلى أورشليم.

لمحت هودجها في مدخل الهيكل، وإذا بها تزيح الحجاب، بوحي خفي ما، فتشير إليّ بإتباعها. فأخذني العجب من نفسي، وأنا محاطة بكتيبة من العبيد ومتجهة نحو رواق النساء من دون سماع أية كلمة هزء من تلك التي اعتاد جنود قيضر رشقها بسماجة على المارة، حين يكثفون الحراسة في الهيكل.

– لقد جئت إلى أورشليم، فهل لك علم باحتمال وجود ابني فيها؟

– لا أظن، فلقد أقنعوه أن لا يُظهر نفسه. إن ما يكرز به يثير الكهنة والفريسيين أشد الإثارة، وهم يشتعلون غيرة ليمسكوه في خطأ.

وسحبتني هلدا إلى مكان مخصص لضيوف القصر، بعد إتمام الذبيحة والتبريك، وكانت دبورة برفقتي. وتعذر علينا وضع رجل أمام أخرى في سيرنا بسبب زحمة الحجاج، وذلك بالرغم من حماية اللاويين الذين يفتحون الطريق أمامنا. وكانت حمّى الحجيج المعدية تغطي على أصوات النفير الداعية كل واحد إلى الخشوع. ولما وصلنا إلى الجناح الخاص حيث أمسينا لوحدنا، خلعتْ هلدا خمارها بحركة سريعة تود أن تقول فيها: "لم يعد بيني وبينك تحفظ ولا سوء تفاهم، ويمكننا التحدث بحرية عن رابينا

الحبيب". وقدمتُ لها دبورة: قريبة وصديقة وأرملة حالياً، عَرفتْ يسوع طفلاً رضيعاً على طرقات مصر. واستسلمتُ لتجربة سماع الإطراء ليسوع ابني، هذا الابن الذي صار موضوع أعجاب أو مذمة، وقد أتيح لي الآن أن أكشف عما يضمه قلبي.

يقال أن الحقيقة تبهر. لربما: أما بالنسبة لي، فالحقيقة عقيدة مضمخة بشيء من السر دائماً. إنها كذلك من جذورها الأساسية، لأنها قادمة من أعماقي. وهي لا تكشف النقاب عن ذاتها، إلا بمشاركة خارجية تتجاوب معها وتستقبلها برقة. هكذا كانت هلدا تختار النبرة والكلمات التي توافق خجلي. فتحدثت عن معجزات ابني، وأعطت إحصائية دقيقة عنها، وفقاً لما تتطلبه هذه السن من الدقة في نقل ما يبهر العينين. وأشارت إلى أن يسوع كثّر الخبزات والسمك لإطعام جمهور تلاميذه الجائعين، وقد نسب الكتاب مثل هذه المعجزة ذاتها إلى النبي إيليا الذي عاش في زمن الملك آخاب. فهممت بدوري إطلاعها على شيء ما.

– اسمعي يا هلدا. سأقص عليك معجزته الأولى. هذه المعجزة أفضلّها لأن شهودها قليلون، ولأن ابني صنعها على طلبي في بداية رسالته، حين لم يكن يتحدث عنه أحد تقريباً. لقد كنا سوية في حفلة عرس، في قانا، قرب الناصرة، ولاحظت أن الخمر قد نفذت في منتصف الوليمة. فأخبرت يسوع وتوجهت إلى الخدام وقلت لهم بأن ينفّذوا ما يأمرهم به. لقد أدهشتني مبادرتي فيما بعد، لأن اتفاق رأينا أنا وابني قلما يحتاج إلى تعبير خارجي. إضافة إلى أني بصفتي امرأة، لا يحسن لي التدخل في قراراته، حتى البسيطة. ولكني تجاوزت العرف في ذلك اليوم، لأننا كنا ضيوف صديق علينا انتشاله من ورطته. وتصرف يسوع كما توقعت، إذ طلب إلى الخدام أن يملأوا الأجاجين الكبيرة ماء، وكانت تسَع كل واحدة مطرين أو ثلاثة، وهي معدة للغسول الطقسية. أطاع الخدم الأوامر، فقال لهم يسوع: "استقوا الآن". وأخذت الدهشة رئيس الوليمة عندما ذاق، فأبدى إعجابه أمام العريس، إذ تُقدَّم الخمر الجيدة عادة في البداية، والأقل جودة إذا سكروا، أما أنت فقد فعلت عكس ذلك، إذ أبقيت الأفضل جودة في الأخير". وخُتِمَ العرس بالأفراح العارمة والدبكات. هذه هي القصة، وقد رويتها لك، لأني ظننت أنها تعجبك.

لَم أقل لهلدا بأني توقفت في قانا، قبل أيام، والتقيت بالزوجين الشابين. فلقد نجح الزوجان بسرعة وطوّرا قدراتهما، حيث ترك لهما أحد أعمامهما ثروة. وكانت دارهما تستحمّ في الشمس الغاربة، مما ساعدهما على الاقتصاد في خشب الموقد، فالمناخ

قارس جداً في قانا عندما يلفح الهواء جبين حبرون قادماً من البحر. وكانت بعض النعاج تمر من خلال أحد السياجات. وكان موضوع الحديث في ذلك المساء، كيف جنّ جنون الأب عندما اكتشف نفاذ الخمر، وما كانت دهشته أمام الجرار التي عادت فامتلأت مرة أخرى. وكان أصدقائي الجدد يعبرون عن تقوى بريئة تجاه ابني. وكانوا يدعونه قـــدوس الله، ويحيطونني بكل تجلّة، بعد أن نالوا الكثير على يده. وشعرت بحيوية شبابه عنـــدما غادرته فجر اليوم التالي عائدة إلى الناصرة، وسكرت بهذه الخمرة الجديدة التي لم أشربها بعد.

فقالت هلدا:

– كم اجترح من معجزات! لم نعد نستطيع عدّ الممسوسين الذين نجّاهم، وكم من كلام ناب قيل في حقه! لقد وصل البعض إلى القول بأنه ببعلزبوب يخرج الشياطين.

فقاطعتُها:

– الشياطين.. كيف يخرجهم؟

– ما بك؟.. بكلمات من فمه!...

– هذا أفضل! ليس النبي ساحراً، وهو لا يفعل شيئاً يخالف الشريعة. هل مسّ بيده الرجل ذا الذراع اليابسة الذي شفاه يوم السبت؟

فأشارت نفياً بحركة رأسها، حيث كانت على علم بالممنوعات، واستطردت:

– تعرفين إنه جاء ليكمل الشريعة، لا ليبطلها.

وكان وجهها يعبّر عن فكرها كما تفعل شفتاها. ثم استأنفت حديثها:

– قلت لك ان الذين يريدون أن يصطادوه بخطأ، لم يفلحوا، لذا فهم حانقون عليه. إليك هذا المثل: يتصل الموضوع بتلاميذه ولكن الأمر سيان: لقد ألقوا اللوم عليهم لأنهم قطعوا سنبلاً في يوم سبت وتغذوا منه، إذ كانوا جائعين. ولكنهم فركوا الســـنبل بأصابعهم، وليس بأيديهم كما تسمح به الشريعة. فأخذ الرابي يدافع عنهم أمام الكتبـــة والمعلمين، وذكّرهم بقصة الملك داود التي تقول بأنه أضطر لإطعام رفاقه إلى أخذ خبـــز التقدمة المعدّ للقرابين.

لقد كانت هلدا بكلماتها تسكب البلسم، قطرة فقطرة، على الجرح الذي يترف منه دمي الفاسد، هذا الجرح الراكز في اللاوعي من ذاتي والذي يشكل نقطة الضـــعف عندي، إذ كنت أظن أن تألمي بسبب يسوع مردّه هجرانه لبيت آبائه. في الحقيقة خفت ألا يهجر شريعة أجداده نفسها أيضاً، وأن يكفّ عن البقاء يهودياً صالحاً على نموذج من سبقه منهم. فلقد كانت الشكوك التي تحوم حول حركاته وأقواله مؤامرة يحوكها أولئك الذين يرومون سلخه عن وسط شعبه، كيف ترى ينسلخ المسيح عن جماعته؟

– هلدا، لقد سمعت انك تساعدين ابني في السر. قبل أيام تسلّم كيساً مملوءاً من النقود، وأنا واثقة من انه جاء منك. أنا نفسي أقلق عليه عندما أفكر به وهو يجوب الطرقات مع تلاميذه من دون موردٍ. وهنا لست أتكلم كأم المسيح، بل كوالدة يسوع.

ووضعت هلدا يدها على يدي برفق.

– إنه لأصعب على غني أن يدخل ملكوت السموات مما أن يدخل جمل في خرم الإبرة. هذا ما أعلنه. وهذا ما أفكر به غالباً، أنا التي أعيش في البلاط. لو استطعت لما اكتفيت بالقليل الذي أسنده به، بل لتركت كل أموالي وتبعته. لربما سأفعل ذلك يوماً... وسأكون سعيدة!

فتنهدت وقالت:

– يفعل الرجال ما يشاؤون، لا نحن. من غير الممكن أن أترك بيتي وعائلتي. أجل، هناك نساء تلقين مهمات استثنائية مثل دبورة النبية التي انخرطت في جيش باراق، ويائيل التي غرست خنجرها في قلب سيسرا، وأستير... ولكن ذلك كان في الأيام الغابرة، ونحن بعيدون عن تلك الأزمنة.

وخطرت ببالي فجأة مريم المجدلية التي حضرت الوليمة في بيت لاوي، وفكرت بمثيلاتها، ومنهن الخاطئات اللواتي يتكلم عنهن الكتاب المقدس مثل تامار وراحاب وبتشبع.

– هل تعرفين مريم المجدلية؟

– الزانية؟ لقد سمعت أنها خلعت حلاها بعد سماعها المعلم. النساء اللواتي يبعن أنفسهن هن أكثر سخاء منا...

– إنه لم يأت للصديقين، بل للخطأة...

وفاجأت نفسي استخدم كلمات ابني، وأدافع عن الزواني. فتمتمتْ هلدا:

– رابي لا يشفي الأجساد حسب، بل النفوس أيضاً.

سيحنو رابي على نفسها أيضاً. أنا واثقة من ذلك.

وبعد مغادرة هلدا، نظرت إلى دبورة التي شهدت اللقاء بصمت، فقالت:

– كان عليك أن تكلميها عن نذر الناصرة، وعن الصوم والتوبة، وهذه أمور في متناول الجميع، رجالاً ونساء. تذكري حنة ابنة فنوئيل التي التقيت بها في الهيكل، في مناسبة فدية ابنك. لقد عاشت حياة الصلاة والتوبة و لم تبتعد عن الهيكل، وكانوا يلقبونها بالنبية. لقد كانت كبيرة السن جداً وأرملة. أرملة مثلك ومثلي.

– لم أفكر في ذلك. إنها لا زالت نَظِرَة الفكر وغامرة في الحب... دبورة لا تتركي يدي، فأنا وأنت ننتمي إلى الأيام السالفة. ثمة أشياء كثيرة لم نعد نفهمها. هل ترانا في الزمن الأخير؟

كان لدبورة أصحاب في المدينة يستقبلونها للمبيت، أما أنا فتوجهت إلى النزل القريب حيث كان ينزل والديّ عادة. فلقد كنت في عمر يحب الناس فيه العودة إلى الأماكن الآمنة التي تصعد بهم إلى جذورهم. وهكذا يوحي لي وجه صاحبة النزل العجوز بوجه والدتي التقية، وحماس والدي، وصوت يوسف وهو يشرح لي أعمال صيانة الهيكل، كما يعيدني إلى صورة يسوع الصبي الرقيق وهو يستلم الحجاب "الذي يقيه من عين الحسود". هذه العجوز تقول لي مبتسمة بأن لها دوماً مكاناً صغيراً يأويني. وما إن اجتزت عتبة النزل، في ذلك اليوم، حتى رأيت شمعون في حديث ناشط، وسط الفناء، مع رجل بدين خشن الملامح. لماذا صعد شمعون إلى أورشليم؟ إنه لم يخبرني بهذه الرحلة. ولكن، يا لغبائي، إذ حسبت ان على الأولاد أن يقدموا لي دوماً تقارير عن أعمالهم! وعندما لمحني شمعون جاء إليّ، وبادرني:

– انظري يا أماه إلى الرجل الذي أتكلم معه. إنه برأبا. تذكري اسمه، ولكن لا تقولي شيئاً عنه أبداً. إنه أحد مسؤولي المقاومة.

لقد كنت أعرف ما هي أفكار شمعون، وحقده ضد الرومان، وعقيدته الجهادية، وتحمسه لطرد المحتل بالحديد والنار. فاستدللت ان برأبا هو من الغيارى أيضاً فاستطرد شمعون قائلاً:

– حقاً إن برأبا لا يخطئ. فعبوديتنا وإذلالنا لا يطاقان. وليس اليهود مدينين لقيصر بشيء: الله وحده سيدهم. ترى ما معنى مجيء الملكوت المحرر، أو العهد الجديد، إذا لم نعمل شيئاً لاستعجال قدومه؟ يا لسذاجة من يدعو الناس إلى أن يحبوا بعضهم البعض! إنّ جَمْعَ المؤمنين صفاً واحداً وتسليحهم ضد الكفار: هذا هو واجب الوطنيين.

من السهل فهم هذا الموقف، لذا كان شمعون ينحي باللائمة على مواقف يسوع.

– يسوع يكرز، ويتكلم، ويدين، ويسامح. ولكن ما هي النتيجة؟ مجرد ريح! إنه لم ينجح سوى في أمر واحد وهو أن الكهنة أبغضوه، والرومان شككوا فيه، والمحافظين لعنوه، وكذلك فعل الأغنياء والأقوياء، وقريباً سيقيم الدنيا كلها ضده، وحتى قبضة الحالمين هؤلاء الذين يتبعونه الآن لا يعطيهم وسائل الجهاد ولا طعمه. لا تحتاج الأمة إلى تضحيات لا فائدة منها. يجب أن يكون له، كما يقول برأبا، جنود شجعان، وفرسان يعرفون اقتحام الجماهير وغرس خناجرهم في ظهور الأعداء... وبرأي برأبا ليس يسوع من هؤلاء الفرسان، وإذا ما هلك يوماً، فسيكون هلاكه لقاء لا شيء.. مجرد هباء!

في الحقيقة، لم تهمني نصائح شمعون وزملائه الغيارى، إنما شيء واحد بقي في ذهني: الحقد الذي يترصد ابني. إن القلق يعصر القلب أكثر من الخطر نفسه. فضاق نَفَسي، ونشف دمي في رأسي، كما سبق لي مراراً. كم أنحى أبي باللائمة على أمي بقوله: "أنت مجبولة من الحب والخوف فقط". ترى ماذا كان سيقوله عني؟ أي ماء جار، أي مجرى يغسل لي نفسي من الخوف الذي يسمها، كما وسم أجدادي الذين أورثوني إياه؟ لماذا زاد شمعون من ضعفي؟ ولماذا يضاعف يسوع نفسه قلقي وعذابي؟ لم يعد يوسف هنا ورائي ليهزأ مني برقة، ويعزيني بحكمته. "يا مريم، إنك أم بكل معنى الكلمة...".

هل حقاً توقعت مثل هذا الابن؟ إن وظيفتنا نحن النساء هي أن ننجب بحسب الوصية القائلة: "كنّ ولودات، واملأن الأرض". لقد ارتبكت عندما اختار لي والديّ يوسف زوجاً كي تتواصل الحلقة التي تجعل منا شعباً مثالياً، لأني لم أكن مستعدة للزواج. ولكن الرب افتقدني، وعندما نظرت إلى بطني، قلت: "الولد الذي سيخرج من رحمي، سأدعوه يسوع، أي الذي يخلّص". وما إن وضعوه بين ذراعي حتى همْتُ بالنظر إليه، وكنت أحفظ كل شيء عنه: لون عينيه، طريقة إمساكه بإصبعي أو بنهدي، رغبته، يومذاك، في الأخذ والامتلاك. وما عتم أن لحق بابن خالتة يوحنا الذي يكبره بستة أشهر. كنت أراقب نومه وأقول في نفسي: "إليشباع على صواب بقولها إنه سيكون ابناً حقيقياً لداود". وتملكني الخوف برؤيته يكبر حين كان الجليل يحترق: "من يدري إذا لم يسر، فيما بعد، على خطى حزقيا المتمرد، ويأخذ قيادة الانتفاضة ضد المحتلين الأوباش، متحملاً التبعة كلها". وناجيت القدوس قائلة: "يا أيها السيد، هل هذه مشيئتك؟ هل ستسلّح ذراع أبنائك لنصرة قضيتك في هذه الأيام العصيبة، أيام الفرقة والمآسي؟ ألا تكفي الذبائح التي تراق دماؤها كل يوم على مذابحك؟ عفواً يا إلهي. قد تكون بحاجة إلى دموعي، تسكب من أجل خطايانا، لتنضّم إلى جداول الدموع التي تذرفها مآقي الأمهات لغسل آثام العالم، وآثام شعبنا وتجاوزاته وسقطاته، وآثام الوثنيين الذين يقمعوننا لفرض أصنامهم علينا... يا أيها الضياء، يا أيها الرجاء، لتتأرجح مرساة الولد الذي ستنقذه من المياه الهائجة كما أنقذت موسى من مياه النيل...!".

الفصل الثامن عشر

بيت لحم

قبلت إغراء دبورة عندما وجهت إلي الدعوة لزيارتها في بيت لحم، وكذلك دعوة يعقوب الذي وافانا من الناصرة قبل مدة وجيزة. وأعادتني رفاهية هذه الدار، كما في كل زيارة، إلى دهشة زيارتي الأولى لها، يوم غادرت المغارة حيث وضعت يسوع ودخلت هذا البيت، مترددة خجلة، وقد حسبته حينها قصراً واسعاً. كان هيرودس (وكيف لا أذكر صورته؟) يرعب البلد، وكنت أرتعد منه كالعصفور أمام الباشق، ولكن، لحسن الحظ، فتحت عشيرة حماي أذرعها الحامية لاستقبالي.

أما اليوم، فقد تغيرت الظروف، وفي اقتراب الأعياد، حيث تضطرب مدينة أورشليم بحمى الحجاج، أحسّ الجميع بشيء من القرف المقرون بعلامات الإنذار المبهمة والفوضى، تثيرها عوامل وأسباب مختلفة، ولكنها تفعل فعلها في الجماهير بصورة مثيرة ومتداخلة. فهذه النوبات الجنونية لرئيس الربع، ومزاجيات الوالي الروماني، وقمع العسكريين، ووشايات الشرطة، وأحكام الكهنة المسبقة، ومنافسات المتطرفين: هذه العناصر مجتمعة تهدد صفاء سمائنا، فرأيت في منزل دبورة الخيمة الآمنة.

وكان بين المدعوين صموئيل، رفيق والدي العجوز، الذي قاوم كل الشتاءات، ماداً جذوره في الأعماق، كأحد الآباء الأولين. وعندما لمحته في الصالة، كان منشغلاً في حديث مع رجل بلباس حريري، قيل لي بأنه يدعى نيقوديمس. وكان نيقوديمس هذا عضواً في المجمع الأعلى، ويملك هكتارات واسعة من الأراضي. وقيل ان أهراءه كانت

واسعة جداً ومليئة بأنواع المحاصيل، وبأنه يعمل في تجارة الخشب والخمور، بكلمة واحدة بأنه رجل غني. وقد ظهر ذلك جلياً من الهودج الذي ينتظره، والعبيد الذين جاؤوا يطلبون سطلاً لسقي الحصان. فقلت لدبورة:

- لا أجسر على التحدث مع صموئيل، فهو يبدو مأخوذاً بحديثه.

- لك الحق. ان الأشخاص الكبيري السن لا يحبون المقاطعة. فها قد مضت ساعة منذ بدأ نقاشه مع نيقوديمس.

- عماذا يتناقشون؟

- أظنهم يتناقشون حول ابنك يسوع.

- لا شك أن صموئيل يؤيد ابني، فهو صديق للعائلة.

لم تجبني دبورة، بل اختفت في الجمع، وفكرتُ أنها منشغلة بواجبات الضيافة: والضيافة قاعدة مألوفة في بيت فريسي، ومنذ وفاة هيفار، صارت تهتم بكل شيء. تقدمت من صالة الاستقبال بحجة المساهمة في خدمة الضيوف، وأنصتُّ إلى صموئيل من دون أن يلاحظني أحد. وإذا به يرفع نبرة صوته، فيتراقص إناء اللبن الحامض في يديه وقد بلّل لحيته وهو يشرب. وصرخ بوجه محدثه:

- ان إيذاء الخصم مخالف للشريعة. لا أحد يستطيع اتهامي بالتعصب، فأنا جليلي، وكنت دوماً منفتحاً للأفكار الجديدة، وقد لامني على ذلك هيئة العلماء. ومع ذلك فأنا لا أقبل أن تلوَّث سمعتنا. إني لا أجسر على ذكر الكلام الذي نقله لي عنه أناس جديرون بالثقة: فهو ينعتنا بالكذابين، والمرائين، وبصفات أقبح من هذه. ان البرص والزواني يجدون حظوة في عينيه، أما الفريسيون فمصيرهم جهنم!.

لم يعد لي شك انه كان يتكلم عن يسوع.

- فوق كل شيء لا أرى هدف هذه الإثارة، ولا الفائدة التي يجنيها من هذه المواقف. كلا، يا نيقوديمس، لا تقل لي عكس ذلك. إنه يخطئ المرمى.

- لنتجنب سوء التفاهم. ان من يفضحهم ويدينهم الرابي هم الفريسيون السيئون.

- والكتبة؟

- الكتبة السيئون.

واستوى الرجلان في وضع المجابهة، بعد أن كانا متكئين في وضع الاستلقاء. فقال نيقوديمس:

– أتنسى المثل الشعبي القائل بأن ثمة سبعة أصناف من الفريسيين: الفريسي الذي يحمل استحقاقاته على ذراعيه عارضاً إياها أمام الناس؛ والفريسي الذي يسرع الخطى بحجة متابعة واجباته دون تأخير؛ والفريسي الذي يسير مغمض العينين لئلا ينظر إلى امرأة، فيصطدم بالحائط الذي أمامه؛ والفريسي الذي يمشي مطوياً على ذاته باسم الحشمة؛ والفريسي الذي يمارس الشريعة ويحصي الاستحقاقات التي تعد بها؛ والفريسي الذي يمارس الصلاح خوفاً من العقاب؛ والسابع، وهو الفريسي الصالح، مثلي ومثلك. اني أذكرك بهذا المثل لتحديد ذاكرتك. فاقبل مني يا صموئيل ان يسوع ليس أول من يتهجم على حزبنا.

ولان صموئيل أول الأمر. فقال:

– أجل، ولكنك لن تقارن بين مثل للتندر، وإن كان قاسياً، وبين المسبّات التي يتلفظ بها ابن يوسف. عندما أفكر بأجداده اليهود القدامى!... حتى مريم والدته، إنها امرأة تقية ومغمورة...

فالتصقت بالحائط. واستأنف صموئيل:

– قل لي يا نيقوديمس، أين كان سيكون هذا الشعب ذو الرقاب القاسية لو لم يجابه التحدي الذي واجهه بعد الجلاء هؤلاء المعلمون الذين يسخر منهم يسوع؟ تذكر ان قورش سمح بإعادة بناء الدولة وعودة مجلوّينا... وكانت أورشليم لا تزال خراباً. ومن هيكل سليمان لم يبقَ سوى حجارة متآكلة...

فتنهد نيقوديمس، واستند إلى المائدة، لأنه شعر ان خطاب صموئيل سيطول، وبأنه قد شرع بالفقرة المفضلة.

– لقد عقد يهود كثيرون زيجات مختلطة في بابل، وقدموا الضحايا للأصنام. والذين بقوا منا في البلاد كانوا فلاحين سذجاً، وقد فقدوا الإيمان بالواحد الأحد. فأهملت الشريعة. ماذا فعل عزرا، أول الكتبة؟ لقد جمع حواليه كل الضعاف بقوة التوراة، وأسس مدرسة لتثقيف رجال الدين، قوامها سبعون عضواً، ليؤمّنوا مستقبل الأجيال القادمة، وبذلك أصبح جَدّاً لكل من هيللّيل وشمعي وجملائيل. وبعده جاء كاتب آخر ناهض المعتقدات الباطلة والجهل، وأنشأ تقليد القراءات الشعبية، وجمع الأسفار في كتاب واحد. مثل هؤلاء الرجال يعتبرون مجداً للأمة. ان هؤلاء الذين يعتبرهم البعض جهلة ومعتدّين بأنفسهم لم يتقهقروا أمام سيف أنطيوخس الكافر. وقد جابهوا ألكسندر جانيه، ونالوا الاستشهاد، وعلق عدد منهم على الصلبان. إن كتبتنا وفريسيينا، هذه القبور المكلسة كما يصفها يسوع، هم أحفاد أولئك.

لقد نال مني الخجل، وتجمدتُ في مكاني فضولاً لمعرفة المزيد.

- لا أحد يعارضك يا صموئيل، فنحن مدينون تماماً لهؤلاء الأبطال. فلقد أضرم وهج تضحياتهم إيمان آبائنا.

- ويستمر عمل هؤلاء الفريسيين أمامنا حتى اليوم دون كلل. لقد أسسوا مجموعات من التطهريين كي يتدربوا بصورة أفضل على حفظ الشريعة. فلا أحد مثلهم يمارس الصلاح.

واستخلص صموئيل خطابه بصوت أجش:

- أجل، إني لا أفهم يسوع هذا حقاً. وأنت يا نيقوديمس، بصفتك عضواً في المجمع الأعظم، ومطّلعاً على معلومات واسعة، ألم تسمع بعلاقته مع الأسينيين الملاعين؟ إذا كان قد فعل ذلك، فكل شيء يتّضح تفسيره.

ففكرت ان متاعبي لم تنته بعد. وكان أقسى ما سمعت عندما أثار صموئيل ذكرى والدي، وقال بأنه قد اعتَبر يسوع ابنَه الخاص، وطالما أراد توجيهه، ليجعل منه عالماً، وهو يريد الآن إنقاذه. إنقاذه؟ يا لها من كلمة خطيرة! إذن ابني في خطر!

- كل يوم تتلقى الشرطة شكاوى عليه... من الإكليروس، ومن تجار الهيكل، والكتبة، والعلماء، وغيرهم.. لقد هاجم الجميع! في البداية لم يُعره بيلاطس انتباهاً، ولكنه قد يفقد صبره في النهاية. أما قيافا فيخشى غضب الوالي، ويخاف أن يطال غضبه عموم البلاد. فالتهم الموجهة إلى يسوع، زوراً أو حقاً، هي انه مشاغب، وكافر، ومحتقر للقوانين، وعدو روما، ورئيس عصابة من المجاهدين الصعاليك. أضف إلى ذلك أنه يثير الريف، ومعروف أن الجليليين يركبون رؤوسهم. ولكن حذار أن يدخل أورشليم ويستغل مناسبة الحج فيزج الجمهور في التمرد، لأن القمع سيكون الجواب المباشر، ومن دون رحمة.

واستأنف صموئيل حديثه عندما رأى يعقوب مقبلاً:

- أرجوك، أجبره، أنت أو أحد إخوتك، على الاختفاء مؤقتاً.

- إنه ا لآن في أفرائيم، في عبر الأردن.

وانتبه صموئيل إلى حركتي عندما هممت بالابتعاد، فناداني:

- مريم، هل كنت هنا أنت أيضاً؟ إني إنما تكلمت بما سمعتِ بدافع ألمي العميق.

فقال نيقوديمس:

– ما يتهمون به يسوع يجب أن يُفحَص كلمة كلمة، وحركة حركة. فالشريعة تمنع الحكم على أحد من دون سماعه. والحال ان يسوع لا يؤذي أية مؤسسة من مؤسساتنا. انه يريد تغيير قلب الإنسان، وهذا شيء لا يستوجب الإدانة. لقد ذهبت إليه سراً، وبوسعي أن أقول حقاً: لا أحد تكلم مثله.

وما أن غادر نيقوديمس القاعة حتى تعلقتُ بثوب صموئيل وارتميتُ على أقدامه.

– صموئيل، سلام عليك. أنا عارفة بأنك تريد خيرنا، فأرجوك ألا تقف ضد ابني. انه قد اقتبل معمودية يوحنا والروح يسكن فيه. تذكر الأنبياء الذين سبقوه، تذكر عنف أشعيا، وهوشع، وإرميا، وحزقيال... إنه يبشر بالملكوت، ولا يهدد أحداً. شفتاه لا تضطرمان بجمرة النار، بل بكلمات الحب. كل ما ينسب إليه من أقوال ضد الكتبة والعلماء مشوَّه، أنا متأكدة من ذلك، فأرجوك يا صموئيل، أكد لي، وقل لي بأنه ليس في خطر.

أهضني بهدوء، فتخيلت انه يفكر في والدي الذي كان صديقه، وداعب شعري وقال:

– ليكن التوازن مرشداً لابنك، وستطول أيامه.

وكان يتكلم كمن يريد التعبير عن شعور من يعاني من اللامبالاة به.

لقد كانت معلومات يعقوب دقيقة، فقد تصرف يسوع بحكمة عندما التجأ إلى أفرائيم، فتنفستُ الصعداء. أما دبورة فكانت في حركة دائمة، وتستفحص باستمرار احتياطيها من المؤونة، وقد استخدمت عبداً معتوقاً جديداً، وهي تدرّبه على عمله، وترددتُ في إطلاعها على همومي. وتكفلت بالاهتمام بالأولاد وتسليتهم [...].

وجاء الحدث الذي هزّ أركان البيت على حين غرة: قيامة لعازر، شقيق مرتا ومريم. وإليكم الرواية: تمرّض لعازر، وساءت حالته. ولم يستطع يسوع زيارة صديقه المريض، لأنه كان في أفرائيم. ومات لعازر. ولما علمت مرتا أن يسوع قادم، وقد توجه إلى بيت عنيا، خرجت إلى لقائه وارتمت على قدميه: "رابي، لو كنت هنا، لبقي أخي في الحياة. وها ثلاثة أيام منذ أن وضِعَ في القبر". وذهب يسوع إلى بيت الميت الذي ملأه الجيران والساكنون في تلك المنطقة بنحيبهم، لأن لعازر كان معروفاً وموضع احترام عند

الجميع. فطلب إليهم يسوع أن يقودوه حيث وُضِعَ جسده، وقال لهم: " لا تبكوا، إنه لم يمت، بل قد رقد فقط". وعندما وصل إلى المكان أمر قائلاً: "لعازر، انهض". فنهض لعازر، وخلع لفائفه وكفنه بتؤدة. وأخذ التعجب الحاضرين، وأعلنوا أن يسوع هو قدوس الله حقاً.

وكان الصغار يستمعون إلى القصة باندهاش. فلقد ألقت هذه المعجزة نوراً جديداً على الأعاجيب الواردة في الكتاب، سيما وأنها تَمَّتْ في قرية قريبة، وعلى يد رجل يعرفونه، ويكاد يكون من أقربائهم. وقالت طفلة وهي تداعب قطتها الصغيرة بين ذراعيها:

- إذا ماتت قطتي، فسأدعو إليها الرابي.

ثم سألت:

- هل رابي يحب الأطفال؟

- يحبهم كثيراً. ففي أحد الأيام، بينما كان يعظ، اقترب منه عدد منهم، فأراد بعض التلاميذ طردهم، ولكنه وبخهم قائلاً: "دعوا الأطفال يأتون إليّ، فإن ملكوت السموات لهؤلاء وأمثالهم".

- فلماذا، إذن، ليس له أطفال؟

- لأنه ليس متزوجاً.

- ولماذا ليس متزوجاً؟

- لأن الله أوكل إليه العناية بالآخرين، بالفقراء، والأيتام، والذين لا شيء لهم يأكلونه...

الفصل التاسع عشر

الأطفال

لقد كانت مرافقة الأطفال دواء لتخوفاتي دوماً. فعندما يكون الصغار نائمين، أحاول الاستمتاع بالهدوء الذي أناله منهم، ولكن سرعان ما يتبدد هذا الهدوء قبل أن يأتيني النعاس. فنظرت إلى سماء أورشليم من نافذتي، واستسلمت للتفكير: هل سيتبع يسوع نصائح صموئيل، فيغيب عن الفصح؟ وإذا فعل ذلك معناه أنه سيتروي في بقعة ما، ولن أعود أراه. أم هل سيقتحم شباكهم، بالرغم من كل شيء، ويصعد إلى أروقة الهيكل ليشارك في الحج؟ وترددت أي البديلين أختار! وهممت باللحاق به عندما أخبروني بأنه شوهد تحت الأروقة، وانه تكلم مع الشعب. ولكن أحداً لم يتقدم لمرافقتي، وشعرت بأنهم يخفون عليّ شيئاً.

فأنقذني إلياهود من شكوكي، وكان قادماً توّه من الناصرة حيث ترك امرأته في البيت، وعلمت انه جاء خصيصاً من أجلي:

– اطمئني، الجميع بصحة جيدة: شوشنة، والأولاد، والعائلة كلها، وحتى يسوع.

فتنفست الصعداء، فأضاف:

– وجئت لأرافقك.

– إلى أورشليم؟

– نعم سأرافقك إلى أورشليم، ولكن قبل ذلك علينا المرور ببيت عنيا لأن مرتا ومريم تودان تكريمك بعد الذي فعله ابنك لأخويهما. أنا متأكد من أنك سترتاحين في هذا البيت الذي نزل فيه يسوع طويلاً، ولربما يعود إليه ثانية قبل السبت.

فاقتنعت بهذه البراهين وقررت القبول بالذهاب إلى بيت عنيا.

وكانوا يستعدّون للعيد الكبير في نشوة قيامة لعازر. وكانت مرتا، في همتها المعتادة، تنظف دون توقف؛ أما مريم، فكانت تُعدُّ الأَسرّة والحصران لاستقبال الحجاج الآتين من الناصرة، وَبلَغَنا أن عددهم سيكون كبيراً هذه السنة. فقد أعلن مردخاي أنه قادم مع أستير، وأخبر قليوفا وميريام أنهما مقبلان، مع احتمال صعود والدي شمعون-بطرس ويوحنا من كفرناحوم. وهكذا لن أكون وحدي.

ترى هل سأرى لعازر؟ لأني سمعتُ أنه هرب تخلصاً من تهديد تلقاه بالقتل. لعازر القائم من القبر مهدَّد؟ لماذا؟

- لأنه شاهد حي إلى جانب يسوع. اعلمي أن أعداء ابنك قرروا التخلص منه، وقد عَلِمَ بذلك. لا تقولي ذلك لأحد: إنه في أورشليم. لن يعرفه أحد من زحمة الجماهير، ولكنه سيعتلن في وضح النهار متما مَلَك. وستكون تلك قيامة ثانية!

ابني مَلَكٌ؟... لم تكن مرتا تمزح، ولا كانت هلدا تمزح. "أنا أم ملك!". ورفّ قلبي بلحن مزمار رقيق على هذا الإعلان الذي يكتسب بعداً جديداً، وألقاني في دهشة ما بعدها دهشة، وكأنه يقول لي: "من الآن فصاعداً لن تعودي مريم التي من الناصرة". وغمرتني شقيقتا لعازر بمظاهر الترحيب، تعبيراً عن محبتهما وعرفانهما تجاه ما عمل لهما ابني، وتعبيراً عن التكريم الذي أرادتا تقديمه لمقامي. وكانت مريم، في حماسها وحركتها الدائمة، لا تني تقول لي:

- الموعد قريب. سيتم غداً. أنت أم المخلص. [...]

وكان حضور يسوع قد ألهب المدينة كلها، في داخل أسوار بيت عنيا وخارجها. وفيما بقي العميان قاعدين في زواياهم، كان الناس في الشارع العام يسيرون مرفوعي الرأس، وقلت لعمري كيف تتجسّم الحقيقة عندما تنتقل من لسان إلى لسان! وأخذت القصة لوناً جديداً، وتفاصيل مضاعفة في النبع. فلقد سمعت ان خاطئة دخلت بيت سمعان الأبرص، وأخذت كيلة من عطر الناردين الخالص والغالي الثمن من قارورة رخامية، وسكبته على رأس يسوع وهو بين المتكئين، وأخرى دهنت أقدام الرابي ومسحتهما بشعرها. فنشطت الألسن الشريرة وهتفت: يا للشكوك! وانبرى تلميذ آخر وأبدى امتعاضه من هذا الهدر. أما يسوع فأعلن:

- الفقراء عندكم دائماً، أما أنا فلن أكون عندكم دائماً.

- ألم تكوني أنت تلك الخاطئة، يا مريم؟

لم تجب مريم.

وقد نسبوا إلى يسوع إضافته هذا القول:

- بسكبها العطر على جسدي، استبقت هذه المرأة يوم دفني. ترى ماذا عنى بذلك؟

- إنه تعبير مجازي. فالذي يقيم الموتى لا يخاف من الموت. فلقد أكد لي، أنا ذاتي: "أنا القيامة والحياة!"، فأجبته: "أؤمن بأنك المسيح".

وفي غياب الرجال عن البيت، أطلقنا العنان لقلوبنا تتكلم من فيضها، وكان حديثنا مزيجاً من الرجاء والخوف. وكانت مرتا تتكلم كثيراً وتقاطع أختها مريم.

- عددهم كبير حول يسوع: اثنا عشر. فهذا سمعان وأخوه أندراوس، يعقوب وأخوه يوحنا ابنا زَبْدَيْ، وفيليبس، وبرتلماوس، ومتى، وتوما، ويعقوب، ويهوذا، وشمعون القناني، ويهوذا الأسخريوطي. أظن أني لم أنس أحداً. ولقد جاؤوا عندنا مرات عديدة للطعام، سوية، أو بالتناوب، بحسب الظروف. وكما ترين، أضع الموائد التي ترينها مفككة في الفناء، وإذا ما أرادوا قضاء الليل عندنا أخرج البِسط من المخزن. وبالمناسبة، يهوذا هو الذي غضب عليّ لأني هدرت العطر.

- علمت أنك أنت التي سكبته.

- نعم، أنا سكبته. لقد أطعمنا كل أبناء القرية في تلك الأمسية، وشحّ مخزوننا، لذا لم يبق لنا إلا القليل لنقدمه لك.

ففكرت في نفسي: "منذ متى لم أتناول الطعام مع ابني؟ لربما منذ حادثة قانا...". فقالت بنبرة من الزهو:

- كل ما يحدث اليوم مكتوب في سفر الأنبياء. اسردي لنا شيئاً من الكتابات المقدسة، أنت يا أم المخلص، يا من حصلت على تعليم أكثر منا.

- أنا.. متعلمة؟ بعد إستعدادات السبت، وأعمال الأسبوع، أجد نفسي متعبة وعاجزة عن الذهاب إلى المجمع. أجل، كان والدي في السابق يشرح لنا قراءة النهار في البيت، أما اليوم...

وكانت خيوط الفجر الأولى توقظ بيت عنيا كل يوم قبل أورشليم، ومع الضياء الأول، كنت أذهب إلى العين أغسل يديّ ووجهي، وكان الحوض شبه فارغ من الناس، لأن الحجاج قد استنفذوا كمية الماء. ولولا إبكارنا إلى النبع لما وجدنا شيئاً لملء

جرارنا. وكان التعب قد أخذ مني قواي، و لم تكن مرتا ومريم أوفر حظاً مني. وكانت الحركة تدب في القرية شيئاً فشيئاً.

وبينما كنا نأخذ قسطاً من الراحة، سمعنا فجأة صوت أقدام تجري في الشارع، يتبعها خبب خيل، ففتح الباب، وإذا بأقرباء لنا من الناصرة، والهلع باد على وجوههم.. ولمحت يهوذا، وشمعون، ومردخاي، وأستير، وميريام، وقليوفا.

- يسوع يدخل أورشليم على هتافات هوشعنا!

فهمت كل شيء! ثم تتالت أقوال متقطعة غير مفهومة:

- وقد ركب أتاناً.

- هيأها له أبناء القرية.

- الشعب يستقبله بأبهة، ملوّحاً بأغصان النخيل.

- يدعونه "ابن داود، ومرسل الله".

- لقد أرادوا ذلك، وقد توصلوا إليه!

"ماذا تقولين لو بايَعُه الشعب مَلكاً؟". لازلت أذكر كلمات هلدا التي ملأتني اعتزازاً وخوفاً ورجاء.. والتي أيقضت فيّ جميع النبوات الواردة في الكتاب، أيضاً...

- يهوذا، اهرع إلى المجمع، واطلب أن يفتحوا لك نص الهاقاديش، أي التقديسات.

- أمي، هل فقدت رشدك؟

- افتح ملفات الشريعة وأنظر إذا كتب فيها أن المسيح يدخل أورشليم راكباً ظهر حمارة...

الفصل العشرون

المسحاء الدجالون.. وهرب التلاميذ

[...]

كان المسحاء الدجالون، والأنبياء الكذابون كثرة في بلادنا، وكانوا يقضّون مضجعي. ومنهم هؤلاء الذين سرد لي صموئيل صديقنا أسماءهم إبان الانتفاضة الكبرى، والآخر الذي ادعى، من جبل الزيتون، هدم أسوار أورشليم، وهؤلاء الرعاة الذين يعلنون أنفسهم ملوكاً في الجبال، وعشرات، بل مئات آخرون. وداهمتهم موجة عاتية من القمع شتّت أتباعهم، وزجّوا هم أنفسهم في تلابيب الموت. "كلا، لا يمكن لابني أن يقارن بهم".

- هل تُراه ينجح؟

كان سؤالي البائس، بل سؤالي المجنون يستوجب جواباً. ولرؤية حقيقة ما حوالي، يكفي أن أخفض نظري... فلقد كنت أتحرك في الغرفة جيئة وذهاباً، وأبكي دون تحفظ، قائلة لنفسي: لن يسمح الرومان أبداً بتتويج ملك بويع من دونهم. وموقف المجمع؟ وأنطيباس في الجليل؟ وعظيم الكهنة قيافا، ألن يشي؟ وبيلاطس ألا يضرب حتى الموت؟ "يا أبا آبائنا إحم ابنك، ومباركَك، وصُنْهُ من مزاجية الجمهور". واختلطت أصوات هوشعنا في أذنيّ مع هيجان الجمع، وأرجعت لجج الموت صدى مخاوفي. لربما قد حان موعد وصوله!

- مرتا، هناك طارق على الباب.

– هدئي من روعك يا مريم. إنه كلب يعوي على القمر.

– القمر نائم، والوقت نهار. ألا تسمعين الصياح؟ أين هم أقرباؤنا القادمون من الناصرة، أبناء يونا وزَبْدَيْ؟

– إنهم في الخارج يهتفون ليسوع.

– إن وجهك يقول عكس ما تقوله شفتاك. دعوني أذهب إلى أورشليم.

وانتظرتْ شقيقتا لعازر أن يصدر القرار من زعيم الأسرة، رجل الدار. ولكن مردخاي رفض:

– كلا. قد تتحطمين على الرصيف من كثرة الازدحام، والشرطة منتشرون في كل مكان. ثم إن السدر بعد خمسة أيام، فلا حاجة للاستعجال.

– الحق مع مردخاي، يا مريم.. وأنت متعبة.

فسقطْتُ على قدمي مردخاي: لم يسحب شقيقه يوسف يديه عني عندما احتجت إلى عونه، و لم يتردد من اجتياز الصحراء لتأمين الحماية ليسوع الطفل. واليوم مثل البارحة يتربص الأقوياء للوثوب على ابني....

وقُرع الباب، ودُفع بعنف، فهرول مردخاي، وإذا بيعقوب يدخل متشنجاً. فدعوناه للجلوس وقد انقطعت أنفاسنا أمامه. أما هو فبدا مرتاحاً للقاء أصحابه، ولكن الاحتفال انقلب وبالاً، وهرب التلاميذ، واختفى يسوع...

"أنصت يا ابن البشر. إني مرسلك إلى بني إسرائيل، إلى قوم تمردوا عليّ. لا تخف من مماحكاتهم. إنك وسط أناس يناقضون أنفسهم، إنك تمشي مع عقارب. ولن يسمعوك، لأنهم لا يريدون سماعي". وبلغ الصراخ الرواق، وسمع صوت الكهنة واللاويين ينادون: "سنوصد أبواب الهيكل قبل فوات الأوان".

أيها الأغبياء، أيها الجبناء، أيها الخوافون، أيها الصمّ، اتركوا عصيّكم، افرشوا ثيابكم أمام مقدم المخلص. أنتم يا من تعلمتم من الأنبياء، يا من تعلّمون في المجامع، يا من ذَبُلَتْ عيونكم في قراءة النصوص المقدسة، افتحوا سر هذا اللغز: سيأتي راكباً جحشاً ابن أتان، حماراً لم يركبه أحد. ويكون اسمه يسوع، أي الذي يخلّص. إنه لن يأتي ليهلككم، بل ليربحكم للعهد. واعلموا انه لحم من لحمي، ولا اختلاف في خديثه.

– رابي افرض الصمت على أتباعك.

– أقول لكم: إن سكت هؤلاء، فستنطق الحجارة نفسها.

يا أورشليم لماذا تجهلين هذا اليوم الذي أعطي لك؟... ستأتي عليكِ أيام يحاصرونك، وينصبون آلات الحرب حواليك، والعوارض والمجانيق، ويحفرون الخنادق حواليك ليزعزعوا أسوارك. وستكونين سبب عار بين الأمم التي تحيط بك، وموضوع هزء وخزي...

وعندما بلغ ابني رواق الهيكل صنع سوطاً من حبال وقلّب موائد الصيارفة ودفع تجار الحيوانات، وركل أصحاب الإبل على مرأى من الحجاج المندهشين.

- والآن؟

- الأفضل أن يبقى ملجأه مجهولاً، فالفطنة سيدة الأحكام.

وأوصانا يعقوب بعدم الظهور وبالتحلي بالثقة.

ألم يكن الإيمان ترس إبراهيم؟.. فتسلحت به.

- لن يحدث أي سوء لابني. ففي غمرة خوفي، هبطت به إلى صفوف العامة، بينما يرفع الخطر من شأن الذي تطيعه السماء والأرض. فلقد سار على الماء، وهدّأ العاصفة، وكثّر الخبز والسمك، وأمر الشياطين، وغفر الخطايا، وأقام لعازر، وابنة يائير وابن أرملة نائين قبله. وإذا اختفى عن العيان، فتلك خطة وحساب من قبل الآب ليظهر مجده. أما الدخول إلى أورشليم، فلقد أراده استجابة لرغبة هذا الشعب البسيط، حيث لا يستطيع أن يرفض شيئاً للفقراء.

فأيّد يعقوب ذلك بقوله:

- بعد غد سيأكل الاثنا عشر الخروف الفصحي معه، لأنه سيحتفل بالسدر قبلنا. ولانشغال أهل الهيكل وقلعة أنطونيا بالعيد لن يستطيعوا ملاحقته.

فقال مردخاي العارف بالحسابات:

- لاشك أن يسوع يتبع التقويم الذي يقسم السنة إلى أربعة أقسام، ويتكون كل قسم من ٩١ يوماً. الشريعة تبيح ذلك، وتسمح لليهود القادمين من بعيد أن يحتفلوا بالعيد متأخراً.

إن الشريعة تقمع من دون أن تسحق، وتقود من دون أن تُبعد. إنها نير، ولكنه نير الحكمة الذي أعطى الخالق مهمازه بيد موسى، ولم يأت ابني ليبطلها. ولقد رأيت في مصادفة الفصح هذه السنة مع يوم السبت علامة فأل.

وبلغ يعقوب هدفه بتهدئتي. فأمطرته بوابل توصياتي عندما غادرنا، وكأنه يبحر إلى أواخر الدنيا. كما زودته مرتا بقارورة مليئة خمراً ممزوجة ماءً، بالرغم من غزارة المياه

في العيون، وعذوبة نسيم نيسان العليل. وأحطت بجوانب هلعي، لأتخلص منه وأحطمه تماماً. فلقد تأكد أن يسوع سيحتفل بالفصح مع أصدقائه في مكان آمن أجهلهُ، ومن الفطنة أن يبقى سرياً. ولولا ثقل الجسد، لَغَلَبَ إيماني مخاوفي.

يعرف الجميع بستان الأرملة الذي يقوم قبالة أورشليم وفيه معصرة الزيتون. لقد كانت المغارة الموجودة فيه مكاناً للقاءات ابني مع تلاميذه عادة. ومن هذه المغارة يعانق الناظر بعينيه روعة المدينة والهيكل، ويمتد ببصره إلى قلعة أنطونيا، وهي قصر مبني من الحجر والرخام، يتواجد فيه الوالي وجنوده على أهبة الاستعداد لقمع كل حركة تمرد. ولكن موقع الكهف يتيح لدوريات الشرطة أيضاً أن تنال من اللائذين به دون إمكانية الإفلات أبداً لقد رأيت في التجاء يسوع إلى هذا المكان تحدياً لخصومه، إلا إذا تعمد في اللجوء إليه كي يتمكنوا من اكتشافه وإلقاء القبض عليه. وفي حالة القبض عليه، سيحيلونه إلى المحكمة، وسيضطر المجمع إلى تبرئة ساحته، ولكن الوالي سيقتنع ببراءته بفضل تدخل جماعة خائفي الله، وزوجته التي تحمينا. الهيكل؟ لقد حرره من سماسرته مدفوعاً بالاحترام الذي يكنّه له. الشعب الذي نادى باسمه؟ مجرد قبضة من الأصدقاء الذين تضخم عددهم بتهافت الفضوليين الذين يقتحمون حوافي الحشود دائماً. فيا لبعد ذلك عما تعنيه كلمة الانتفاضة! لقد كانت الجسمانية تروق ليسوع، ولم ينس حجّه الأول عندما وقف وسط هذا البستان عينه، وأنشد مع مربيه نشيد المراقي. لست أدري ما الذي يرقّ له قلبي في هذه الذكريات: أهي دهشة الطفل أمام مدينة أورشليم، أم هو فرح الحاج يوسف فجر يوم الحج؟ لقد رقد يوسف في حضن إبراهيم مبكراً، ولولا ذلك لَهَرَعَ إلى نجدة ابنه. فلطالما قال: "سأقوده على الدروب الصالحة"، ولكنه ترك الفتى يرحل وحده على الطريق.

وعاد يعقوب إلى بيت عنيا قبل المغيب، وكان جائعاً، فأعدت له مرتا العشاء. وأحطنا به، وتساءلت: ترى، هل سيقودني حيث ابني؟ وضعفت مقاومة يعقوب بعد العشاء، فذهبنا سوية بعد نيل موافقة مردخاي نفسه. وكانت المشاعل تشق الليل على الرابية، في سماء داكنة معتمة، وكانت الخيم متكئة الواحدة على الأخرى، حتى لَيصعب السير بينها، إلا إذا أخذتَ طريق الوديان المكتضة بالناس وبالأوساخ. وأخذتْ جماعتنا أحد الدروب الثلاثة النازلة نحو وادي قدرون، ثم سلكنا الطريق المحاذية للمدينة، وسار مردخاي في أول القافلة سيراً حثيثاً، مبتعداً بما يوازي احتقاره للجندي الذي بادره

بالمسبّات. كما أحسست، أنا نفسي، بثقل درع الضابط على صدري عندما أمسكني بذراعيه.. هل فعل ذلك ليحميني من السقوط أم ليدفعني.. لست أدري. أما يعقوب، فقد سلبوا حزامه وكيس نقوده. وتلاقينا وجهاً لوجه فجأة، عن طريق إحدى هذه الصدف التي نرى فيها إصبع الله، مع أبناء عمومتنا الجليليين، فقبّلت خدَّي ميريام وسالومي المبلّلين. فأخبرتنا خبر اليقين أن يسوع قد ألقي القبض عليه، وقد تلقّين النبأ من أحد الأصدقاء الأمناء، الذي نصب خيمته في الجسمانية. وقد تمت العملية على يد حراس الهيكل. ويفترض أن يكون يسوع الآن عند حنّان للمحاكمة. لم يعد حنّان في وظيفة رئيس الكهنة، لأنه كان قد عزل لصالح ختنه قيافا، ولكنه لازال يحتفظ بسلطته كاملة، ولا زالوا يخضعون القضايا الكبرى لحكمه...

وكان جمع كبير قد تجمهر حول قصره المجاور لقصر قيافا. وأتذكر إني انضممت، أنا أيضاً، على الفضوليين، وعيناي مصوبتان نحو البوابة التي تنفتح بين حين وآخر، وأنهض بجسمي على أصابع قدمي، لعلي ألمح ابني في الفناء. وكانت سالومي تنقر في أذنيّ: "أنا واثقة من وجود يوحنا هنا، فهو يعرف قيافا، ولابدّ أنه التقاه". ولكني لم أر يوحنا، بل لمحت شمعون–بطرس على وهج النار في اتجاه المطابخ، وهو يصطلي بين صف الحرس والخدام. وبدا لي من بعيد في حالة دفاع وهو يلوّح بيديه وكأنه يبرر نفسه عن شيء ما. وقد علمت فيما بعد بأنهم قد عرفوا فيه أحد أتباع يسوع، وبأنه كان ينكر ذلك...

أما في حينه فقد فسرت وجوده إيجابياً، إذ افترضتُه يدافع لا محالة، عن قضية المعلم [...]

وتابع الليل جريه. وصاح الديك ثلاث مرات، ونحن لا نزال نراوح في أماكننا. وسَرَت حركة مفاجئة بين المتفرجين فجراً، فعُزِلتُ عن جماعتي، ورأيتُني على بعد أمتار من رجل موثق يمر بسرعة بين حارسين مسلحين: ابني...!

لن أعرف وقائع المناقشات التي تمت عند رئيس الكهنة، وإذا ما ذُكرت أمامي، لم أعرها سمعاً في حينه. وهبْ أن سمعتُها، ما الفائدة من معرفتها؟ ما الفائدة من الحسابات؟ إن ما قيل، وما لم يُقَل سيوزن بعيداً من هنا، في نهاية الأزمان. وأمسك يعقوب بذراعي، واجتزنا، مرة أخرى، ساحة كيست، وجسر تيروبيون، وحاذينا أسوار الهيكل حتى صالة المجلس الأعلى، وهكذا اقتفيتُ آثار أقدام ابني. إلى أين؟ عند بيلاطس حيث اقتاد الجند يسوع. وبعثت لديّ الأمل فكرة ان يسوع لم يجابه السلطة الرومانية

كلا، لا أصدّق ان ابني سيهلك بمجرد قرار من الكهنة والوجهاء ورؤساء العشائر ورجال الدين ذوي الرقاب القاسية بأنه عدوهم. والتجأت في سري إلى برهان آخر: قضاؤنا يحمي المتّهم، ففي الحالات الخطيرة كهذه لا يصوّت سوى الرجال الذين جاوزوا الأربعين، وإذا ما أدانوا، فعليهم قضاء نهار كامل في الصوم والصلاة قبل تنفيذ القرار.

واسترسلت في تفكيري بأن لا أحد من اليهود سيتنجس عشية الفصح في الدخول إلى بيت وثني. لذا خرج بيلاطس إلى مدخل القصر عندما أتوا بيسوع. ولقد حاول أن يسلم المتهم إلى حكم اليهود الثائرين الذين لم يكن يضمر لهم سوى الاحتقار. لازالت تلاحقني حتى اليوم رؤية الروماني البغيضة وهو جالس على كرسي القضاء، وكأنه الأزلي مستوياً على الغيوم. لقد أكد لي البعض انه أراد إنقاذ يسوع، ولكن الجمع الواقف عند الدرج طالب بموته. وكففت عن انتظار حق العفو عندما لم أعد أرى سوى الحقد تنفثه أفواه يهودية ضد أحد أبناء إسرائيل، الابن الأطهر، المبارك، الحمل الطاهر الذي أشار إليه يوحنا. وحدث كل هذا أمام أعين وثني من خدام القيصر. وهكذا انهار انتظار أجيال طويلة لرجاء الخلاص، رجائنا نحن أبناء هذا الشعب الخاص. ليلفّني الرب بحنانه..

وانهارت قواي...

وعندما عدت إلى رشدي، كان يعقوب منحنياً على وجهي، لا يقوى على الابتسامة. أين هم الذين هتفوا ليسوع؟ أين هو ملكي وابني؟ فالتفت و لم أر، في ذلك الصباح الفاتر، سوى شحاذين ملتَفين بأسمالهم عند أقدام السور، مع أصوات مبهمة بعيدة.

الفصل الحادي والعشرون

يا إلهي لماذا تركته؟

"يا إلهي لماذا تركته؟".

لم يعد لي، في ضعفي، سوى هذا الهتاف، وقد استللته من الكلمات الأخيرة لابني، وهو نفسه أخذها من الآية الأولى للمزمور.

"لماذا تركته؟ لقد ناداك أباه، وأحبك من كل قلبه، وكل روحه، وكّلَ نفسه. لقد فضّلك على آل بيته، وقومه، وذريته، وصار خصياً من أجل اسمك.

"لماذا أخذته من بين أيامه؟ لقد سار في سبلك، وقاد الشعب إليها. إنه لم يكتف بإعلان العدل، بل الرحمة أيضاً، لأنك أظهرت له وجهك الخفي.

"مِن أجلك صار غريباً بين إخوته. فلِمَ سلمته بيد الأشرار؟ لقد احتمل مسبات القتلة، ولم يقاوم إلى نزع قميصه عنه؛ لقد صُلِب، ورقد وحيداً في صخرة فارغة، أنت صخرته الوحيدة!

"لقد وضع آباؤنا ثقتهم بك، ونجيّتهم. لقد نادوك في معاناتهم، وخلّصتَهم، ولم تخزِهم في مرارة قلوبهم. ولقد كنتَ لابني أيضاً سيداً، وكان ملكوتك رجاءه، وقد أعلن مجيء هذا الملكوت. ترى هل غيّرت رأيكَ به؟

"منذ أن فتح رحمي، كرّستُه لك. وقد نسجتُ له أكليلاً من البراءة والمجد. اذكر ذلك يا رب! لقد كبر كحبة الخردل، صغيراً بين الصغار، ووضيعاً بين الوضعاء، ولكنك، سرعان ما أظهرت ذكاءه وقدرته. فجعلته قديراً في دراسة الشريعة، وأضأته

بقنديلك، وأضرمت كلمته بنار فمك. لقد أكلتْ غيرتُك حياته، وقدّم هذه الحياة محرقة لخلاص شعبك. في الساعة التاسعة هبط إلى عالم السفليين، فانشق حجاب المَقدِس كصوت الرعد، ولكن الصمت خيّم على الجلجلة.

"من ذا الذي سيصرخ إليك، يا أيها الأزلي آدوناي، سواي أنا أمه؟

"لِمَ لَمْ يلفظ أنفاسه عند خروجه من بطني؟ لِمَ لَمْ يصبح سقطاً لا زمن له؟ إذ ذاك، لما تألمّ، ولا انتظرت نهاية أيامي بسلام!

"ها قد جفّت دموعي أمامك، وسالت إلى آخرها على خدّي، وغادرت عينيّ. لن تنفتح من بعد على ضياء الصباح، وما شأني مع شمس لن أستطيع تحملها؟ لِمَ النظر؟ ان الستر الذي يبهر بصري، هو كفن ابني، وفيه ومعه قد دُفنتُ.

"ما أطولَك يا ليالي أورشليم! ما أكثفَك أيتها العتمة التي تلفني! لن أتوقع الشفقة، لن أحتمل المعزين.

"إني أختنق بين جدران الخزي الذي فرضوه على ابني، ويعتصر قلبي حزناً، وألمي يهدّني. أنتم يا عابري السبيل: انظروا إليه كيف صار، لقد أشبعوه ضرباً، وسمّروه، وثقبوا جسمه، وأحصوا عظامه، ثم أنزلوه عن الصليب ووضعوه بين ذراعيّ، فالتصق دمه بيديّ. لقد دعوتك أيها الرب آدوناي، وتصلّب جسمي في دعوتي إلى إيقاف القرار قبل فوات الأوان، وإعادة الحياة التي غادرته إليه. لقد غادرتْني نسمة الحياة، ولكنها لم تملأه. لقد أردتُ انتشال القدرة من يديك، أنت الذي وحدك تملكها. كدت أتمرد على قرارك، وجاهدت في داخلي. يا لَكُفْرِ دموعي!

"بقايا لحم من جسد ابني أحمل على ركبتي، من ثمرة بطني.. هذا ما فعله خبث البشر! فهم المذنبون الحقيقيون. فمن ذا الذي سيطالب بالتعويض سواي أنا والدته؟ من ذا الذي سيعوِّض لي عن التضحية التي قدمتُها بشخصه سواك أنت يا آدوناي ربي، يا من طلبت مني ذلك؟ لقد استسلم للذبح كحمل ابن سنة، هو القوي الشكيمة، والتمس المغفرة لجلاديه! فعليك، أنت، أن تظهر غضبك وتعيد العدل إلى نصابه.

"لِمَ لَمْ تفعل معه ما فعلتَه لإسحق وأنقذتَه؟ أصلحْ ما تحطّم، أرجوك أن تعيد إلى ابنك الدم الحار الذي أعطيناه إياه سوية. أنت سيد الحياة، وأنت القادر على كل شيء، ما أكثر ما وعدت به الأمناء للشريعة! لذا سأسير إلى جانبك، وستخفف الحملُ عني، كما فعلتَ مع موسى في البرية. أنا أعلم بأنك ايلوهيم، إله الأحياء الذي وعد الأمانة الدائمة بقسَمٍ لآبائنا ولداود عبده.

"من أعماق الليل صرخت إليك، فاستمع صوتي. أمِل أذنيك إلى صلاتي، لأنك إذا اغتضت من آلام أُمٍّ، وحسبت صراخ عذابها جرماً، فمن ذا الذي يقف أمامك؟ إلى رحمتك تشتاق نفسي، وفي الرجاء نحوك ترتعد نفسي!

"ما تطلبه مني كثير يا آدوناي ربي. لقد تقت إلى خدمة مجدك منذ صباي، وأنت لزمتني بكلمتي، فأحرقتْني مشيئتُك بكليتي. لقد غرقتُ في مشيئتك، كما يغرق الجدول في اتساع البحر. وها قد حان الوقت لتحملني أنت".

وما إن وضعوا الجسد في القبر حتى غاب وجه ابني عني. لقد شوَّه العذاب هذا الوجه، وغطى العرق والدم تقاسيمه، واغتالت تجاعيد الفم ابتسامته. المصلوب كان أمام عيني، وليس الشاب الذي يبعث البهجة في صفوف أصدقائه على طرقات الجليل عندما يلمحونه، فيردد الواحد للآخر: "هوذا رابي، هوذا معلمنا". أما الآن، فنحن الأحياء جالسون على بلاط دار لعازر، حيث جاؤوا بي بعد الصلب، وبسبب اقتراب موعد السبت، أعدوا حوض الماء الطقسي لنغتسل ونتطهر من لمس الميت. لقد خضعت لهذه الفريضة، ولكني وددتُ لو احتفظتُ بآثار الدم المتخثر على جسمي، وشختُ سريعاً، ومتُّ معه. وللمرة الأولى في حياتي آلمتني الشريعة وأوجعتني.

كان كل شيء يوجعني، وكنت أتنهد عندما يحين وقت النوم فأقول: "متى يأتي النهار؟"، ولدى استيقاظي أقول: "متى يأتي الليل؟". وصارت كل حركة تدفعني على الابتعاد عن ذكر هذه الفعلة النكراء. وتوسلت إلى السماء لئلا تصبّ عليّ جام غضبها. "دعني أستريح يا آدوناي ربي، فأنا لن أحيا من بعد طويلاً، وأيامي كالنسمة العابرة. ما هي الخليقة كي تلاحقها وتقمعها؟ ألا تدعني أبلع ريقي؟ أنا عدم، فأرجوك أن تهتم بابنك الذي غيبوه في عمق الصخر. أسرع، فإن الموتى لا ينتظرون. قليلاً وستبحث عنه عبثاً، ولا تجده".

لقد شعرت بالبرد، وشعرت بالحر، وكنت كالحيوان المجروح، كالنعجة التي فقدت رضيعها، وهي تحبس ثدييها المتألمين من اندفاع الحليب الذي لن يرضعه من بعد. وأحصيتُ القوم حوالي: مرتا ومريم شقيقتا القائم من القبر، آل قليوفا أبناء عمومتي الذين ازدادت علاقتي بهم منذ وفاة إليشباع، صموئيل الفريسي السيفوري الذي دفن أبي، ابنا زَبْدَيْ يعقوب ويوحنا، ويعقوب بن حلفى، يوسف الرامي ونيقوديمس، وكلاهما من

المجلس الأعلى، ورجلان صدّيقان، سمعان القيرواني الذي قدّم كتفيه وحمل خشبة الصلب، وأخيراً هلدا.

ولكن أين سمعان بطرس وأخوه أندراوس؛ أين فيليبس، وبرتلماوس، وشمعون، وتوما ماثياس، ويهوذا، ونثنائيل؟ هل هم في خطر بسبب إيمانهم؟ من حقهم أن يختفوا، ألا يكفينا قتلى؟! أما إخوة القرابة الدموية، فلقد نصحتُهم أن يمكثوا في الظل، لأن مجرد الانتماء إلى الجليل أصبح موضوع شك في ذلك المساء!

وأخذ السبت يلوح.. غير أن القنديل المشتعل لن يعطي ضياءه طالما بقي وجه الحبيب معتماً. وإذا لم يلحق بي إلى الحياة، فأنا التي سأرحل إليه في عالم الموت.

فردّ صموئيل:

- ليكن اسمه مباركاً إلى الأبد.

وأصرت ميريام أن نأكل شيئاً بعد الصيام. يا له مِنْ فصح كئيب! وقدمت لي إحداهن، كأساً لأشرب.. فعرفت فيها مريم، أخت لعازر، وشكرتها بابتسامة. فانحنت على ركبتي تقبلاهما، فاستنشقت رائحة الناردين الذي سكبته على أقدام يسوع. وكانت الكائنات قسمين في عيني: قسم الذين أحبوا ابني، وقسم الذين قاوموه.. فاخترت معسكري. وأجهش يوحنا في البكاء:

- لقد قتلوه.

وكان صوته الفتي كالمطرقة تضرب الغرفة الأليمة.

- لقد قتله الذين تعلّقوا بأهداب ثوبه. لقد رأيتهم ماسكين به، مسترحمين شفقته، ملحاحين في استدرار قدرته، غير مبالين إلا بأنفسهم، بأمراضهم، بشفائهم. أين صار هؤلاء الآن؟ من منهم أعطى شهادة حق له؟... أولئك الذين بايعوه البارحة، هم أنفسهم الذين بصقوا في وجهه، وهو يعتلن مثخناً بالجروح. تُرى، ماذا عنى الملكوت لهؤلاء الجليليين المستعبَدين لحقولهم؟ ألعلَّ الملكوت بأعينهم بستان مثمر، مسيّج ضد الغزوات والجفاف، بستان كالفردوس؟ لقد توقعوا منه حقوقاً مكتسبة من الملذات، طالما ناضلتْ من أجل الحصول عليه أجيال من الاضطهاد والندامة المدفوعة نقداً.

فاعترض يعقوب قائلاً:

- يا يوحنا، عندما اختار يسوع أورشليم ليموت فيها، إنما فعل ذلك لتتم الكتب، وليس انصياعاً لإرادة الجماهير.

وارتطمت حزمة من الريح بالباب، فصفقته لتدع منظر الأفق المحمر يلفح الأبصار. واستسلمت لغفوة، عندما انتبهت إلى مريم وهي تصب في خمرتي جرعة مهدئة من التي تعطى للمحكومين، فأيقظني النسيم العليل وصوت نيقوديمس من كابوس مزعج، حيث كنت أصرخ أمام بيلاطس دفاعاً عن براءة ابني: "تذكر جوابه للفريسيين عندما سألوه عن الضريبة: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله. ألا اسمع ما أقول!".. فخرج القضاة عن طورهم وأشاروا إليّ بأصابعهم: "إنها أم المتهم، ولا قيمة لشهادة امرأة".

واستيقظت ويدي بيد مرتا.

"عندما تجتمعون باسمي، سأكون أنا في وسطكم".

هذا وعد يسوع قبل أن يتركنا.

فقال يعقوب:

– تشجعي يا مريم. اننا لسنا وحدنا. ابنك هو هنا.

وصلى عزرا:

– ليرسل لنا الرب نورا كنورالشعلة، وقوة كقوة الجاموس.

وتخيلتني اسمع، لا صوته حسب، بل صوت أبي، وصوت يوسف، وكل أقربائي.

– لنرفع أيادينا إلى السماء، علامة ثقتنا بها، ولنهتف سوية مسلّمين الرسالة، جيلاً بعد جيل، عبر الزمن الذي يمر، لتقديس اسم الخالق، ولنهتف أمام السارافيم والاوفانيم: قدوس، قدوس، قدوس، أيها الأزلي المثلث القداسة، الأرض مملوءة من مجدك.

ما أطهر هتاف الحب حين يصعده الألم والفرح في اندفاعة شكر متساوية! لقد صُنع الغمد والسيف من معدن واحد!.. ثم بعد ذلك تلونا صيغة التقديسات الجديدة التي علمنا إياها ابني، وأغمضت عيني لأتغلغل في معانيها.

– أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك... وشددت بكل قوتي على يد مرتا. ولما وصلنا إلى فقرة:

– أغفر لنا إهاناتنا، كما نحن أيضاً نغفر لمن أهاننا...

تخيلت جسد ابني الدامي وهو يقول: "أبتاه! أغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون".

فنهض صموئيل الوقور:

- يا مريم ألتمس إليك أن تغفري لي، لأني أسأت إليك.

- متى يا صموئيل؟ أنا لا أذكر ذلك؟

- في بيت لحم.. جرحتُكِ بأقوالي. لقد أحببتُ يسوع مثل ابني، وكنت أرتعد خوفاً عليه. فلطالما قلقت مما توقعتَ وقوعه له، منذ حادثة يوحنا المعمدان.

- صموئيل، إطمئنْ، فأنا أيضاً فكرت كذلك، وما توقعته تمّ فعلاً.

واعترف نيقوديمس أيضاً قائلاً:

- أما أنا، فلقد ذهبت إلى المعلم ليلاً، وسألته سِراً، وكانت أفكاري مشوشة، وشفاهي كاذبة عندما أعلنت أمام القضاة...

و لم أدعه يكمل، بل قاطعته:

- أنت الذي أتيت بمئة مثقال من المّر واللبان، وعطّرت الجسد..!

فقال يوسف الرامي:

- أنا لم أجرؤ على إعلان نفسي، خوفاً من المجلس الذي كان سيطردني.

- ولكنك قدمت إلى القبر الذي وضع فيه...

وأدلى سمعان القيرواني قائلاً:

- عندما أوعز إليّ الروماني بحمل الخشبة، ترددت، وحاولت الهرب.

- ولكنك، مع ذلك، حملتها!

- لقد نعسنا ونمنا غير آبهين بمحنته مساء القبض عليه، بالرغم من أن المعلم ناشدنا بالسهر معه في البستان!

"يا آدوناي، يا إلهي، لاشيء في يديّ المرفوعتين، إنهما فارغتان. إملأهما أنت. إني لن أغلقهما كي أدع نعمتك تسيل فيهما، كموج دائم لا ينقطع، ويغمر هذا الموج كل الذين يكون ابني على هذه الأرض، رجالاً ونساء. فأنا أمهم، وهم أعضاء أسرتنا. أنا التي أنجبتُ هذا المعلم، رابي، وقد تركهم اليوم يتامى".

وتحطم الصمت بيننا وكأنه حجر صلد. وصار يوسف الرامي يذرع الصالة ذهاباً وإياباً وهو يتنهد:

- "مسيح – ملك"، أو "مسيح – كاهن"، "مسيح المصالحة" أو "مسيح القتال"...: لقد جمع يسوع في ذاته كل هذه الصور الكتابية. ان شخصيته هي الصفحة الأخيرة من الكتاب.

فأجاب يوحنا:

– إنها الكمال: سأستشهد بيعقوب لكشف ما سأسرده عليكم، أنتم الحاضرين هنا، وقد أحجمنا عن الحديث عنه حتى اليوم. لقد كنا برفقة المعلم على الجبل، أنا ويعقوب وسمعان–بطرس. وبينما كان يصلي تجلى وجهه، وصارت ثيابه براقة، فرفعنا أبصارنا ورأينا إلى جنبيه رجلين يتحدثان إليه، هما موسى وإيليا، وقد ظهرا له في المجد. وجاء صوت من السحابة معلناً:

"هذا هو ابني الذي اخترته. له اسمعوا".

– كيف ارتضى أن يقتلوه؟

– لقد اختبر كل مآسي البشر، ما خلا الخطيئة.

– أمدّوني بعونكم كي أبقى في الرجاء، أنتم يا إبراهيم واسحق وموسى ونعمي وعزرا والذين من بعدكم، يا زكريا وسائر أنبياء إسرائيل وحكماءه. رددوا من بعدهم، أنتم يا يوحنا، ويا يعقوب وسائر الرسل: "سيكون ملكه أبدياً، ولن يكون له انقضاء". قولوا ورددوا ما رأيتم أن ابن الإنسان، هذا الذي رأيتموه على السحاب، واشهدوا أنه هو يسوع المتجلي على الجبل.

فقالت هلدا:

– آمين.

لقد ارتد دمه، منذ الآن، على التلميذ الذي أسلمه. وكان ثمنه ثلاثين مثقالاً، أي ١٢٠ ديناراً فضة، بما يوازي ثمن حقل. وكان أمين صندوق الاثني عشر دقيقاً في حسابه، إذ ربط الكيس بحزامه. لقد كان على معرفة بأسعار التين، وأرطال الزيتون، وثمن النارديين خاصة: ألم يعترض عندما سكبته مريم: "كان الأفضل صرف هذا المبلغ للفقراء"؟ ترى ما الذي قاده إلى ارتكاب الجريمة؟ ألعلّه فعل ذلك غيرةً من سمعان الرئيس، أم من يوحنا المفضَّل؟ هل حرّكه الطمع في المناصب والزعامة، فاستسلم للحية تنفث سمَّها في قلبه؟ لقد سقط في فخ الشيطان، وابتلعته مملكة الظلمات، ولن يكون له نسل، ولا ورثة بين شعبه. إني أشفق على والدته، ويا ليت المسكينة جاءت إليّ، فأحيطها بحناني.

هل ترى كان ابنها هو السبب في ما آل إليه؟...

القسم الرابع

الفصل الثاني والعشرون

قد أقامه الله

– أيها الإسرائيليون اسمعوا ما أقول: يسوع الناصري، هذا الرجل الذي شهد له الله بالأعمال القوية التي اجترحها أمامكم؛ هذا الذي، بتدابير الأزلي، قد قتلتموه على أيدي الأمة إذ سمروه على الصليب؛ هذا نفسه قد أقامه الله. لقد حطّم قيود الموت، ورأيناه بأم أعيننا، وقد جعل الله يسوع هذا الذي صلبتموه، رباً ومسيحاً منذ الآن، كما جاء في نبوة داود: ليعلم ذلك بيت إسرائيل كله علماً يقيناً.

لم أكف عن سماع هذا البيان الذي نظمه سمعان بطرس، بالاتفاق مع الاثني عشر، وقد ألقاه في أروقة الهيكل، وفي المجامع. فلقد أعلن ابني هذا الحدث أمام شهود، طيلة الأربعين يوماً التي تراءى فيها بعد قيامته، بالروح وبالجسد. وقد تراءى في أورشليم وفي الجليل. لقد دعا توما اللامؤمن إلى لمس آثار جروحه التي التأمت، وعادت أعضاؤه المتشنجة إلى حركتها الطبيعية، وسال الدم من جديد في عروقه. لقد انتصرت الضحية على جلاديها.

حاولت ألا أضخّم ضعف الرسل بانفعالاتي، وألا أؤثّر سلباً على فرحهم بطلبي سَنَدَهم، فالزمن لن يمحو أبداً جرح السيف الذي جاز في قلبي. سيبقى الجسد يعاني من صليب ابني، ولو ابتهجت النفس بقيامته [...]

كانت جماعتنا في اليهودية تزداد عدداً، أسبوعاً بعد أسبوع، وكان التلاميذ يتمتعون بقوة الإقناع، بالرغم من أن أحداً منهم لم يتعلم في المدارس، مما لم يرق لمعلمي الشريعة أبداً. فكان سمعان بطرس يقول لهم:

- نحن، لا يمكننا السكوت عما رأينا وسمعنا.

وكان يقول "نحن"، من دون أن يكون لي حصة في ضمير الجمع هذا. فلو لم يكن في الساحة سوى أم يسوع، لبقي الشعب على جوعه، ولانحسرتْ الحقيقة في الظل. ولكني، في المقابل، نجحتُ دوماً في جذب اهتمام الأطفال. على سبيل المثال، هذا المعلم اليوناني الذي يستحق لقب الرسول أسوة ببولس. لقد عرفته صغيراً، وكان والداه من أهل أنطاكيا، وكانا من خائفي الله، يقيمان بصورة مؤقتة في أورشليم، في بيت قريب من عندنا. وتعلقت به، إذ كان يشبه أحد أبناء أخي الذي تركته في الناصرة، وكنت أتفرغ له كلما أراه يحوم حول دارنا. لم يكن يجسر أن يقترب كثيراً، لمعرفته بالحذر المفروض على دخول بيوت اليهود. وكنت أنا الذي أشير إليه بالاقتراب، فيقتعد الأرض، فنتحادث. كانت لغته الآرامية بلهجة الأطفال، وتقتصر مفرداته على ما يتعلق بالألعاب، والمراهنات الطفولية، والبطولات المزعومة، وإرعاب الزملاء. وكان يحب القصائد، فأتلو عليه ما يروق لي منها. وكان، في فضول سنّه، يلقي عليّ أسئلة مباشرة، فأحاول الإجابة عليها بشعور من له فريضة يؤديها، لعل الله ينمي في نفسه، يوماً، هذه البذرة الأولية الملقاة في تربة نفسه. ويسألني عندما أتحدث:

- هل صحيح ما تقولين؟

من الطبيعي أن ينجذب الى كل ما يمت بصلة إلى طفولة يسوع: الملك الشرير، الرعاة الطيبون مع مواشيهم، نجمة المجوس، مغارة بيت لحم التي تستضيف حماراً وثوراً. كلما كنت أختم قصة، يسألني أن أعيد تفاصيلها، ويذكرني بذلك أني، أنا أيضاً، كنت أسأل والدتي إعادة القصة ذاتها مرتين وثلاثاً، وحتى عشر مرات. يا ليت من يعيد لي حكاية الهزة الأرضية في عين كارم، وقصة نضوب العين، وهروب الماشية المرعوبة، والجفاف الذي تسبب في تشقق الأرض!

- ما شكل الملاك؟ ماذا قال لك؟

لست أدري هل تكلم باللغة اليونانية أم الآرامية؟

- لقد حيّاني كما يسلم جميع الناس: "السلام عليك يا مريم". وأضاف: "ابتهجي". أنبأني بأنه سيكون لي ولد، وطلب إليّ أن أسميه يسوع.

- أنا، ينادونني لوقا، ولكن لي عدة أسماء. هل رأيت ملائكة من قبل؟ كيف عرفت من هو؟

– لقد قدم نفسه. وما إن تكلم حتى شعرت بالسعادة، ولكني لم أجرؤ على قول ذلك لأحد. وولد طفلي بينما كنت في سفر إلى بيت لحم. ولما شعرت بدنوّ مولده، توقفت في مغارة. وتمّ كل شيء هنا. فأعطاني الرعاة غطاء، وجلبوا حليباً وجبناً. وأبصرت السماء وكل النجوم في الخارج، وكانت إحداها تلمع ببريق أكثر من غيرها، وترسل نوراً نادراً، إلى درجة أخذ العلماء المختصون بدراسة الكواكب يراقبون سيرها عن كثب. فوصلوا على ظهور جمالهم، ومعهم صناديق مليئة بالمر واللبان والذهب.

– هدايا؟

– أجل، هدايا.

– لمن؟

– للطفل يسوع. فلقد أرشدتهم النجمة إلى طريق بيت لحم، حيث كان من المفترض أن يولد المسيح بحسب الكتاب، الكتاب الذي يحكي قصة العالم وينبئ بكل شيء. وكان على العرش في تلك الأيام ملك قاسٍ اسمه هيرودس.

– من هو هذا الملك؟

– إنه آدومي. فعندما سمع من فم الفلكيين أن ملكاً صغيراً ولد، خاف على عرشه، فأصدر أوامره لجنوده كي يقتلوا جميع الأطفال الذكور من ابن سنتين فما دون، في المدن وضواحيها. فجاء الملاك وأخبرنا. وفي هذه المرة توجه إلى زوجي في الحلم. فهربنا إلى مصر مع أهلنا.

– الملك الصغير، هل كان يسوع؟ ولكنه مات على الصليب مثل عبد عندما كبر!.

– لقد مات في الخزي، ولكنه قام في المجد.

وارتسمت الحيرة في عيني صديقي الصغير.

– في تقاليدنا أيضاً يوجد إله يموت ويقوم، ويقع عيده في شهر آنثيسترون.

– سنقوم كلنا في نهاية العالم، ومن عمل الصالحات ينل الثواب، أما من عمل الشر، فسينال العقاب. أليس ذلك عدل في رأيك؟

– أجل، ذلك عدل ولكن هل توجد عدالة اليوم!

ونظرت إلى رفيقي وقد أخذته الدهشة هو نفسه لملاحظته. "هناك عدة أنواع من العدالة عند الناس، أما عند الأوحد، إله الآلهة، لا يوجد إلا عدالة واحدة".

لقد أحببت مسكننا الذي وضعه نيقوديمس تحت تصرفنا في جبل صهيون. لقد كانت هذه الدار رحبة بما يكفي لإيوائنا بصورة لائقة، غير أننا كنا في حالة تأهب دائم لاستقبال المعمدين الجدد الذين يلتمسون أحياناً ضيافة لا نستطيع رفضها. لذا كانت الدار تغصّ دوماً بالمنتمين الجدد الذين لا نتوقع معرفة أعدادهم، مما كان يثير مشاعر الشكر والفرح في الجماعة، بقدر ما يثير من الارتباك. ومع ذلك توالفنا مع ضيق المكان ومع الراحة والتعب على حدّ سواء.

وما ان استقر بنا المقام حتى قررت العمل في غسل الصوف القادم من اليهودية، وقد كنا نفتقر مثله في الناصرة، وذلك للحصول على بعض الدراهم، فلا نثقل على الميزانية العامة. وكنت أساعد في العجن وفي تثبيت الخبز في التنور، لأنهم كانوا يحظرون عليّ الأعمال الثقيلة. فقبلت ألا أذهب من بعد لجلب الماء من العين، لاعتبار ذلك عملاً لم يعد يلائم عمري. وأسند إليّ امتياز إعداد قناديل السبت، مما يقتضي تنظيفها، وتعبئتها، وخزن الزيت، وإعادة ترتيبها بعد الخدمة. لقد أحببت وظيفة حراسة النور الذي يضيء القاعة. وكنت سعيدة بأن أسند الإخوة لئلا تضعف عزيمتهم. وكانوا يتقاسمون معظم أملاكهم، وينظرون باتجاه واحد، ويتناوبون على الواجبات. وكان اتساع مهامهم لا يسمح بالاستسلام للضعف، أو الانقسام. وإذا أقبل المساء يتكئون جنباً إلى جنب، فيكسرون الخبز ويباركون الخمر، مجددين الحركات والكلمات ذاتها التي علمهم إياها معلمهم مساء عشائه الأخير معهم. لم تكن الأمسيات تطول، لأن التلاميذ ينسحبون بسرعة من جراء التعب، وأبقى وحدي في حوار سري مع الذي أضفي عليه سيماء يسوع، فتتكلم الأم مع ابنها، ويجيبها ابنها:

لقد علمت في ما بعد انه لم يدافع عن نفسه، وعندما بادره الوالي بقوله:

– هل تعلم أن لي سلطاناً أن أعفو عنك، أو أن أصلبك؟

أجابه:

– لما كان لك علي أي سلطان لو لم يُعطَ لك من علُ.

لقد ارتعد بيلاطس من عبارة "من علُ" التي تلفظ بها صانع المعجزات الباهرة. وقيل انه تذكر حلماً حلمت به زوجته وقد ناشدته ألا يمس الرابي بسوء. ولكنه ظل رهينة لكلام أعضاء المجمع: "إن أنت أطلقت سراحه، لست صديق قيصر. من أعلن نفسه ملكاً، هو مناوئ لقيصر". ولكنه حاول أن يخلّص يسوع.

– بما أن لكم عادة تمنحني الحق في إعلان عفو في زمن الفصح، فهل ترغبون في أن أطلق سراح ملك اليهود؟

فصرخ الجمهور:

– كلا! بل أطلق لنا باراباس!

باراباس المقاتل، صديق شمعون الذي كانت يداه ملطختين بالدماء، دماء الوثنيين.. لقد ارتاح الشعب. أما قيصر فقد ضمن ممارسة صلاحياته بإصدار العفو عن المتمرد، وإدانة الكافر. ما أتعس تلك الليلة!

ان للشركة التي تجمعنا حول الذكرى طعم المرارة: الدعوى، الاستشهاد، الثياب الممزقة، الرأس الممرغ في تلك الأمسية.. لم نكن نجرؤ حقاً التحديق في بعضنا البعض خوفاً من مواجهة صورة انهيارنا الشخصي في وجه الآخر. ثم كيف دفعني الروح بغتة، مع شيء من الخوف، لأجمع حواليّ القطيع المبدد من دون راع. فشدّ الأزلي حقويّ بجبروته لأرتفع فوق الظلمات التي تكتنفني. ألا يا رب لا تحسب لي ذلك ذنباً!

أراني مدفوعة إلى العودة إلى تلك الساعات التي استبقت حدث القيامة، بالرغم من أصوات هليلويا التي تطرز حدود دربنا، وتحتفل بانتصار الحياة على الموت. لقد كان رفيقي على حق حينما قال بأن لا وجود للواحد دون الآخر. علينا الموت أولاً...

لقد كنا في بيت عنيا، في بيت لعازر القائم من الموت، وكنا قد هربنا خوفاً من اليهود، إذ تركنا يسوع المدفون في القبر يتامى هائمين في أرض يحتلها الوثنيون، بعد أن نفاه منها بنو موسى. وكعلامة لذلك انشق حجاب الهيكل، مستبقاً خراب المسكن بأكمله. ترى، على أي رجاء نستند؟ من ذا الذي سينجب مخلصا لإسرائيل؟ فلقد خنق الوجهاء انتظار الشعب وكذّبوا الأنبياء عندما أنكروا المسيح – يسوع. لقد أشرقت الشمس في غير أورشليم، في الظلمات المحيطة، وأنشد المرتل آيات الخراب: "يتقدم الأجنّة من الحضن الوالدي، والوالدة لا قوّة لها للوضع". ما أبرد الطقس في شهر نيسان في تلك السنة! فلقد عجز الصوف عن بعث الحرارة في العظام. وخرج التلاميذ من مخابئ القبور المنتشرة حول المدينة، وقد أعياهم النحيب، وجاؤا ليلحقوا بنا. لقد كان مردّ كآبتهم تحطم الرجاء العارم في داخلهم.

وفي الصباح الباكر، بينما كنا جالسين على الرماد، لابسين المسوح، وصائمين، انفتح الباب بعنف ودخلت مريم المجدلية مسرعة، لاهثة، وخمارها في غير انتظام. كيف تجرأت؟ فاستوى الرجال لردعها، ولكنهم سرعان ما تراجعوا. لقد بكت عند أقدام

الصليب، وهي تستحق أن يستمعوا إليها. وكان علينا أن نبذل جهداً في فهمها، لأن الكلمات تجمدت في حنجرتها.

- لقد نهض!

فارتعش صموئيل:

- اسكتي يا امرأة. إنك مجنونة.

وكدتُ أسقط.

ثم جثت مريم وقصّت قصتها: فلقد غادرت منزلها قبل الفجر، وتزودت بالعطور التي يُطيَّب بها الموتى، وهرعت إلى القبر، فوجدته مفتوحاً.

- لم أجسر على التقدم، وإذ ذاك أبصرت رجلاً، دعاني باسمي.

- لا ترابط في قصتك.

فتدخل صموئيل:

- والجسد؟ هل أخذوه؟

واعترض يوسف:

- أنا أعرف كهفي، ويلزم رجلان على الأقل لتحريك غطائه. هل رأيت الحراس؟

- لم أر غير الرجل. لقد كان منظره كالملاك. اسألوا إذا كنت كاذبة، فلقد كانت سالومي معي.

فأشارت هذه بالنفي برأسها.

- لِمَ لَمْ تتكلمي منذ البدء؟

- .. ولقد أعلن لنا الملاك: "ان الذي تبحثان عنه هو في الجليل".

لم يسمع سمعان-بطرس ويوحنا العبارات الأخيرة، إذ صفقا الباب وراءهما وذهبا مسرعين. ونهضتُ واتكأتُ على الحائط لئلا أهوي أرضاً. فانتبهت إليّ مرتا.

- رحماكم! أشفقوا على والدته!

وخيّم صمت أكثر ثقلاً من الهرج السابق، وكانت دقات قلبي هائجة في صدري. فسندني يعقوب الذي مكث معنا. فقالت هلدا:

- لماذا صعقتكم المفاجأة؟ ألم يعلن أشعيا: "سيحطّم الموتَ إلى الأبد"؟ لعلّنا نسينا!

وتغيّر التلاميذ في ذلك الأسبوع حتى أمسوا غير ما هم: وكأنهم شُفوا بأعجوبة صاعقة غيّرت طباعهم. فتحوّلوا من حالة الغمّ الشديد إلى حالة السعادة الغامرة: يسوع جاء بيننا. فلقد تراءى للبعض ممجَّداً وملتحفاً بالنور، و تقدم إلينا في العلية والأبواب مغلقة، وكنا كثيرين. وعلى طريق أورشليم رأوه كمسافر وحيد، وعصاه بيده، ولم يعرفوه إلا وقت العشاء عندما كسر الخبز. وفي الجليل، رآه بطرس وتوما ونثنائيل ويوحنا عند البحيرة، أمام نار من القش، بينما كانوا عائدين مع خيوط الفجر الأولى في سفينتهم ولم يصيدوا شيئاً. وعلى كلمته ألقوا الشبكة، فامتلأت بمئة وثلاث وخمسين سمكة. وحده توما رفض التصديق، مؤكداً أن المسيح لا يقوم إلا في يوم الدينونة. ولكن الحقيقة تراءت له أيضاً في الآخر.

لقد زجت عودة يسوع الجميع في ساعات من الفرح العارم. مما دفع توما إلى القول:

- ليسترحْ عندنا!

والتمس يوحنا منه:

- أمكث معنا.

يا لروعة هذه الصلاة عندما تُتَمْتَمُ في آخر النهار وقد تجاوز الوقت.

"أمكث معي يا بُني. كما في الأيام السالفة، في زمن سنواتك الصامتة، لازلت تذهب، وتجيء، وتهرب، حتى أتساءل ترى أين مسكنك؟ حدّد لي المكان الذي أتأمل فيه وجه الأوحد. قُلْهُ همساً لوالدتك، لن أردّده لأحد.. وليبق سراً، كسر الاسم الجليل!

"هل تسكن بين الملائكة الذين يحملون البلاغات إلى البشر؟ لاشك أن جبرائيل يعرف طريق الناصرة، ولا يمكن أن ينساه... هل سيتم إعلان حضورك على يده، مرة أخرى؟ لقد نزلت إلى شيئول، ولاشك انك رأيت يوسف! ليعلم بأني أحييه بتواضع، وليكن أول من ينال ثوابه عندما ستأتي الساعة. هذا هو التماسي.

"هل تتذكر النجم؟ أتخيلك اخترت السكنى هناك. قد تكون هذه هي السماء. سماء صغيرة لك ولي، حيث سنعوّض أوقات غياباتك عني، حيث ستشرح لي ما لم أفهمه، يا من تلتحف السر. أنت القوي، وأنا الضعيفة؛ أنت الأوحد، وأنا شبيهة بسائر النساء، مع عاداتي، وادعائي، وبساطتي، وهواجسي، وقلقي الدائم. أترى.. أنت جالس عن يمين الآب، ولازلت أنا قلقة...

"لقد تعلمت ان الحياة تعقب الموت، وأن للألم معنى آخر، وأن كل شيء يأخذ معنىً جديداً بك. صليبك ليس مشنقة، بل شجرة فتية وقوية، تمتد أغصانها وتمتد؛ ولقد غرسها ثقل جسدك في أعماق الأرض حيث تنبع جذورها. والجلجلة لم تعد أكمة العقاب، بل قمة الألم والحب ممتزجين تماماً، لتكريم العلي الذي قرر ان تكون الأمور هكذا"

لقد عددت أربعين يوماً بعد قيامة ابني... وتسلّلت الغيمة من بين أعيننا. وارتفعت ذراعيّ لترافقاه.. وستبقيان كذلك حتى عودته.

الفصل الثالث والعشرون

إخوة وأخوات الجماعة

[...]

عندما ضربت الريح العاصفة الدار وفتحت الأبواب، كنا جميعاً، ملتفين حول بعضنا ضمن جدران البيت نحن إخوة وأخوات الجماعة، ومع الريح بلغنا لحن متموج يشبه لحن مزمار القصب، ثم تبعته فرقعة العجلات تصفع أديم الشارع. وتوجهت القافلة بصعوبة نحو الأروقة وسط جماهير الفضوليين. فنهضت بجسمي فوق المصطبة لأرى الثور ذا القرون المدرعة بالذهب، من خلال النافذة وإذا ببريق اللمع يبهر عينيّ. فلاحظ الأمر أحد التلاميذ من جماعتنا:

- العاصفة!

ولكن.. عوض زمجرة الرعد، سرى هدير كهدير الريح في الصالة وتضوّع المكان برائحة عذبة كرائحة الحقول بعد الحصاد.

وقال تلميذ آخر:

- أورشليم عبقة بروائح العطر.

فقال ثالث:

- تحتفل الحقول والمدينة معاً بعيد البواكير - الشابوعوت.

حينذاك رأينا مندهشين أنواراً مثل ألسنة نارية تستقر على رؤوسنا: هل هي علامات تستبق ما سيأتي، أم هي خاتمة لما قد تمّ؟.. يا للعجب! ريح مقدسة نازلة علينا من السماء!

وقرر الرسل أن ننطلق إلى الهيكل حال تفرق الجموع، قبل الغروب، لحضور تقدمة الضحية الأخيرة. وكشف حضورنا فريقا من خائفي الله واقفين في أعلى المدرج وأشاروا إلينا بالإصبع. هل كشف الروح لهم هويتنا، أم هو الفرح المنبعث من وجوهنا؟ وما هي إلا لحظات حتى رأيت رفاقنا، وفي مقدمتهم سمعان–بطرس، يتوجهون بالحديث إلى الحجاج القادمين من الخارج، كل فريق بلغة بلاده. وكان هناك يهود من مصر، وبلاد مابين النهرين، وكبدوكية، والبنطس، وكيليكية، واليونان، وبيسيديا، وعيلام وغيرها مما لم أعد أذكره. ليس ثمة مملكة نحن غائبون عنها، لأن الأزلي ضاعف عدد أبناء إبراهيم كرمل البحر. وعندما نفخ اللاويون بالقرن لإنباء الجمهور بغلق الأبواب، لحق التلاميذَ عدد من الحجاج، مستهزئين بهم أكثر منهم فضوليين. فعلق البعض:

– إنهم يستقون علمهم من الخمرة الحلوة التي احتسوها.

فعجّل سمعان–بطرس خطاه وأمرنا باللحاق به. وكنا نسير مبتهجين، جنباً إلى جنباً، في تلك الأزقة التي عادت إلى قذارتها. أجل لقد كنا سكارى، ولكن لا بالخمرة، بل بالنعمة!

وانسابت الأشهر بسلام، مما أتاح لنا أن نأخذ نَفَسَنا. وكانت حياتنا تسيل في شبه هدنة، وكنا في مأمن كالخلد في جحره.

وكان القنديل ينير الجماعة بوهجه الذي لم نعد نحاول إخفاءه؛ وكنا نتقاسم الخبز من دون غلق الأبواب؛ ويتشح رجالنا بالطليث ويعقدون التيفاليم على مرأى من الوثنيين من دون أن يتعرضوا لهزئهم. بل كان هؤلاء يسألون إخوتنا في الأروقة:

– من أنتم؟

– نحن تلاميذ الناصري. ونبلغكم بأنه المسيح الذي تنتظرونه.

وعندما كنا نقول ذلك، لم يكن أحد يتعقبنا ككفار.

وكانت اهتماماتنا اهتمامات منزلية، وغالبا ما كانت تجري حياتنا على وتيرة عائلية –حتى لو كنا خمسة عشر أو عشرين شخصاً في بيت نيقوديمس، إضافة إلى التلاميذ الضيوف، أو المتعاطفين الذين تستقبلهم دبورة، أو بعض الجيران الأصدقاء مع قبضة من المؤمنين المبعثرين في المدينة. كانت مشاكلنا سهلة وتجد حلولها بيسر. ولكن الأمر قد اختلف منذ أن اتسع عدد المنتمين، لاسيما بعد قدوم قوافل غير معروفة لدينا، من هؤلاء الذين اعترفوا بابني في سر قلوبهم.

وعاد إلى صفوفنا كل من يعقوب ويوسي وشمعون ويهوذا؛ وكم خفق قلبي حناناً تجاه أطفالي هؤلاء المشاكسين المتمردين في الناصرة، الذين طالما آلموني بانشقاقاتهم، فرأيتهم هنا موحَّدين. في الحقيقة لم يبق سوى يوسي الذي تردد في اقتبال العماد: فهناك رجال يصعب عليهم، أكثر من غيرهم، التنازل عن آبائهم.

لقد شاء يسوع أن يبقى عدد أسباط إسرائيل الاثني عشر كاملاً في العهد الجديد، لذا تم الحفاظ على العدد ١٢ بين الرسل، بالرغم من سقوط يهوذا. ولما كان سمعان-بطرس مترددا لدرء النقص بين برسابا ومتياس، لجأ إلى القرعة، بحسب ما تبيحه الشريعة، لسماع حكم السماء. وهكذا حل متياس محل يهوذا.

تحتاج الجماعات إلى قادة. وكان ابني قد عيّن سمعان-بطرس ليكون حجر الزاوية الذي إليه يستند البناء، لذا كان يجمع الجماعة ويرئسها كلما استوجب الأمر اتخاذ قرار هام. وكان يوزع المهام وينظم حياتنا اليومية، إضافة إلى حلّ الخلافات بين الإخوة، أو مع المختونين الآخرين. وكان بطرس يجد صعوبة كبرى في التوفيق بين الجميع، حيث تتوالى الآراء المتضاربة، ويتصادم القدماء مع الوافدين الجدد، فيقف بينهم معلناً أن هذه الخلافات لا تتعدى أن تكون مجرد سوء تفاهم، ويقدم البرهان على ذلك أحياناً. وكان يثني على حماس كل طرف في تفسير تعليم المعلم، فتخمد العاصفة.

وكان الأمر يستوجب إعادة التوازن إلى الجماعة كل يوم، ذلك ان كل عضو لم يكن ينسى احتياجاته الشخصية، مهما بلغت غيرته. لقد كنا متضامنين كأصابع اليد الواحدة، ولكن التصدّع يتسلل إلى صفوفنا من خلال مناسبة وفاة، أو مرض، أو عرس، أو غلال حقل، أو اقتطاع خشب، فيتذرع هذا أو ذاك للتملّص، أو الغياب، أو المحاججة، أو يفتح ثغرة في الالتزام بالواجب. لذا قررت هيئة الجماعة ان تنتدب سبعة شمامسة، وظيفتهم معاونة الاثني عشر في التفاصيل الإدارية، أعني أن يشرفوا على النظام، وعلى جمع الصدقات، وتوزيع الواردات، والمساكن، والتغذية، والمهام المختلفة، وإغاثة المعوزين، والمرضى، والمعاقين، والأرامل، والأيتام. لقد حفظت أسماء هؤلاء السبعة لئلا أنسى أو أهمل أحداً، وهم: فيليبس، وهو غير الرسول، بروكورس، نيكانور، طيمون، بارميناس، نيقولاس الانطاكي، واسطيفانوس، طبعاً. وما إن تسلموا مهامهم، حتى واجهوا سيلاً من المشاكل التي تتطلب حلاً، وكان عليهم أن يتنقلوا بين التنور والمطحنة، كما يقولون. وكان الجميع يلجأون إلى خدماتهم، فينوؤن تحت الإعياء والملل، ولكنهم سرعان ما ينطلقون من جديد وبشجاعة متجددة.

لقد كانت خدمة الكلمة من اختصاص الرسل، ولكن أهل كفرناحوم، مثل سمعان-بطرس وابني زَبْدَيْ، لم يتخلوا تماماً عن مهنة الصيد، وكانوا غالباً ما يعودون إلى قريتهم. لم يعترض أحد على ذلك، إذ كانوا يغذوننا بسمكهم، وينقلون إلينا أخباراً مفيدة من الجليل، حيث تركنا أصدقاء كثيرين. ونَمت في ضواحي بحيرة كينيريث جماعات فتية، لم يكن الوفاق ديدنها دوماً. فقد كان الحسد يحوم حولها كما يحوم الثعلب، وكان سمعان-بطرس يوبخ، ويقود ويسامح. لقد كنا حقاً بحاجة إلى ترسيخ قلوبنا.

وما إن قدم يعقوب إلينا حتى مدّ يداً قوية لمعاونة بطرس. فلقد بات هو ويوسي يتيمين من أبيهما قليوفا الذي سلك طريق الموتى. وكانت والدتهما، أختي ميريام وصديقتي، تسكن معنا في البيت. وبما أن أهل شمعون ويهوذا بقوا في الناصرة، فقد أصبح يعقوب زعيماً لأسرتنا في المدينة المقدسة، واكتسب شهرة وجاهاً بصفته أحد إخوة يسوع. وكان قد نال عملاً في الهيكل كنجار، فتملكني الفرح عندما علمت انه يتجول في الأماكن التي اشتغل فيها يوسف، ويعمل في تلك المخازن التي تعبق بالظلال والروائح، وتعج بألواح البلوط والأخشاب الأخرى. أما الإشراف عليها فكان في يد رجل لاوي عريق من أصل قبرصي اسمه برنابا، قد انضم إلى الجماعة بعد تقاعده؛ وكان على وشك النجاح في هداية جار له، عامل من مدينة صور، حاذق في صناعة الذهب والنحاس، بارع في نسج الحرير والقرمز والأرجوان الأحمر أو البنفسجي. فلقد استقدم هذا الرجل الثمين عائلته إلى أورشليم بعد أن استدعاه هيرودس للاستفادة من مؤهلاته. وقد كان عمّاله أنفسهم على عتبة الإيمان. وهكذا كانت كلمة ابني تتقدم بصورة مطردة.

وكان المجمع المدعو مجمع المحرّرين هو الذي يفضل الرسل الذهاب إليه في أيام السبوت، ويدعى أحياناً مجمع الإسكندرانيين، لأن اليهود المصريين يجتمعون فيه. ولكن يهوداً آخرين يلتقون فيه أيضا، مثل الصقليين والقيروانيين، وإياه يرتاد سمعان الآخر، هذا الذي ساعد يسوع في حمل صليبه على طريق الجلجلة. فلقد قامت بينه وبين الرسل علاقة صامتة لا تحتاج إلى المجاهرة.

لقد كان من الصعب جداً على هؤلاء المختونين القادمين من الخارج، والسعداء بأن يجتمعوا تحت راية الشريعة، أن يقتنعوا من أن المسيح الذي طالما انتظروه بحماس، قد قبل موت العبيد. لاشك أنهم على علم أن كل ذبيحة تعويضية تتطلب سكب دم، ولكن الصليب يشككهم. وكان يلزم وقت طويل وصبر حثيث لإقناعهم. ولم يكن سمعان

القيرواني آخر من قدم لهم شهادته، إذ كانت ذاكرته لا تزال قلقة بما رأى: تكرار سقوط المحكوم تحت ثقل الحمل، منظر الدم... أنا نفسي، لم استطع الاستماع إلى كامل القصة. ويوسف الرامي بدوره، استنكر الدعوى اللاشرعية، إذ تجرأ وقال بأن المجمع يتحمل مسؤولية الجريمة التي ارتكبت فيه. وكان البعض يصلون إلى القناعة أخيراً. وكان يعقوب، عند تعلّق الأمر به، يأخذهم إلى سمعان-بطرس ليضع يديه عليهم. وغالباً ما كان هؤلاء يشجعون الآخرين بغيرهم. ان قلب الإنسان هو كالمستودع الذي يفوق بجماله كل كائنات الخالق، وعندما توضع فيه بذرة الحقيقة، ينفتح ذات صباح كما تنفتح الزهرة لاستقبال النحلة. هذا ما حدث لاسطيفانوس، هذا الشاب الذي أعطى من ذاته قدوة للشيوخ بحماسه وتقواه. لقد كان يونانياً، وفي عمر يوحنا، وقد فكر سمعان-بطرس ويعقوب بإشراكه في مهام الرسالة.

وفي سبيل كسب ودّ موظفي الهيكل، والكهنة الكبار والصغار، ووجهاء أورشليم، الزمنا أنفسنا بإيواء الحجاج الفقراء، كلما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، في فترة الأعياد، حين تعجّ الفنادق والخانات بالناس. هكذا كان الأمر منذ زمن والديّ، بل تفاقم الأمر أكثر، ولم تحّل المشكلة بتوسيع الرقعة الشرعية للاستقبال، ولا بضمّ بيت فاجي إليها. أما غياب النظافة، والقذارة، والأمان، فلا تسل عنها!

ولكن كيف ترى نحافظ على التزاماتنا حين تكون بيوتنا ذاتها مكتظة، من سراديبها إلى أسطحتها؟ ومما زاد في الطين بلّة أن بعض التلاميذ استقدموا عائلاتهم، مثل نثنائيل ويعقوب ابن حلفى. أنا نفسي تمنيت لو لحق بنا إلياهود وشوشنة، ولكنهما كانا متعلقين بأرضهما، لا يريدان الانفصال عنها. من جانب آخر، لم يكن جمع الذهب والفضة في كيس موحد لخدمة الجماعة، أمراً هيّناً عند الجميع، مع أن مجلس الشورى قد أوصى بذلك، من دون الإلزام به. ومع هذا اعتدنا على الأمر شيئاً فشيئاً، ولم يدر في خلد أحد أن يخادع بإخفاء ما لا يريد مقاسمته، منذ اليوم الذي مات كل من حننيا وشفيرة، إذ غشّا صدق الرسل، وبذلك كذبا على الله.

وجاءت ميريام وسكنت معي منذ وفاة قليوفا، ومذ ذاك لم نفترق، نحن الأرملتين، والمرتبطتين بصلة القربى. إني أسهر على صحتها، أما هي فلا تبالي بشكلها، وقد ترهل جسمها، وتتحرك بصعوبة، بعد أن كنت أحسدها على خفة حركتها. ويخال لي أحياناً أنها تتحاشى الاصطدام بالأثاث، ولكن همها الكبير يبقى مصير ابنها البكر

يعقوب، زعيمنا. ولاحظت أنها، في رقة شعورها، تحاول إخفاء تخوفاتها، ولا تريد إيقاظ تخوفاتي، وإثارة الشيطان.

- لا نثقلنّ على مريم، ولْنُطْبِقَنّ الصمت على بؤسنا وأفكارنا السوداء.

وهكذا لاحظت ان كلمة "الجلجلة" أمست محظورة على كل لسان، ولم أسمع تلميحات إلى آلام المدنفين. ولكني علمت أن ميريام وسالومي تكلمتا عنها مع مؤرخنا، فلقد كانتا واقفتين معي عند أقدام الصليب! ويبدو لي أحياناً أنهما تركزان على رؤيا معينة، مما يجعلهما تذرفان الدموع. ان آلام يسوع ودمه توحدانا سوية أكثر مما فعلت مواعظه.

لقد قررت سالومي البقاء في الجليل، في تلك الأشهر الأولى، وذلك بحجة "الاعتناء بالصغار"، فأوهمتُها أني صدَّقْت مزاعمها، ولكني بقيت أتساءل بقلق شديد عن السبب. لقد أظهرت استعدادها الدائم لخدمتنا إبان تنقلات يسوع.. لعلّها مهمومة لأن ابني سلمني إلى ابنها من على الصليب! هل، ترى، شعرت أن ابنها يتخلى عنها لصالحي؟ وفاتحتُ دبورة بقلقي، إذ كنت أقدّر نصائحها. فهدّأت تخوفاتي، وأكدت لي أن سالومي ستعود إلينا حتماً.

دبورة، يا دبورة، يا رفيقتي في الميلاد، وفي الهرب إلى مصر، وفي محن أخرى كثيرة. لقد بقيتْ مستقيمة الروح إلى آخر أيامها، واحتضنها ابنها عزرا في شيخوختها. كم أنا سعيدة بأن أستقبل في بيتي ابن ذينك الزوجين اللذين فتحا لي باب خيمتهما.

وأنتما يا مرتا ومريم، إنكما لم تشاءا مغادرة بيتكما في بيت عنيا. لاشك ان البيوت الفارغة هي عرضة للسراق، لذا تناوبتما لزيارتنا، وبقدر ما كنتما على النقيض في كل شيء، قد كنت أرتاح إليكما. أما راعوث، فبعد تردد طويل، صعدت إلى أورشليم للحاق بمتى، وأخبرتنا ذات صباح بأنها قادمة، متجاهلة صعوبة إيجاد سقف يأويها في المدينة [...].

الفصل الرابع والعشرون

إلى أنطاكيا

وانتظمت أمور راعوث وزوجها لدى قدومهما بصورة أفضل مما توقعنا، فلقد ترك لنا إخوة مغادرون إلى أنطاكيا بيتهما تحت تصرفنا. واتخذ لاوي المدعو متى غرفة خاصة، بعيدة عن ضجة الشارع، تتيح له التأمل والكتابة بأمان. وصنع له أحد النجارين من أصدقاء يعقوب منضدة رفعته إلى مقام الكتبة، وبدأ يدّون عليها باعتناء كل ما حصل عليه من أخبار أعمال يسوع وأقواله. وكان يشتغل أثناء النهار ويسهر إلى وقت متأخر من الليل. وكان النعاس يغلبه أحياناً قبل أن ينضب زيت السراج، وكثيراً ما باغتته راعوث مستلقياً بكتفيه على المصحف، وقد سقط قلمه من يده، فتوقظه برفق، وتضع الوثيقة الثمينة في غلافها الجلدي، وتعيد الغلاف إلى الصندوق. وكان يوسي، المتعلم هو أيضاً، يقوم بعمل مماثل في الغرفة المجاورة، جامعاً المعلومات التي يلتقطها من التلاميذ. أما يوحنا، فلم يكتب شيئاً بعدُ يومذاك، وإذا سألته عن شهادته، أجابني:

– أنا بحاجة إلى عامل الزمن.

وكان الاثنا عشر يتبادلون ذكرياتهم في اليوم الأول من الأسبوع، فيضيف كل واحد حدثاً قد اطلّع عليه هو وحده، وكانوا أحياناً يختلفون حول كلمة، أو تاريخ، أو مكان، ويفترقون دون التوصل إلى توحيد الرأي. وفكرت، إذ ذاك، بالعلماء السبعين الذين حُجِر عليهم في الإسكندرية في قلالي منفصلة ليقوموا بترجمة الكتاب إلى اللغة اليونانية. وبعد الانتهاء من العمل قارنوا الترجمة ورأوا أن الكلمات كانت مماثلة. وتهيأ لي

من متابعتي اجتماعاتنا أن النتيجة لن تكون كذلك مع الرسل. وكانت راعوث تتندر في ذلك، مانحة نفسها الحق بتصحيح ذاكرة زوجها.

– في كل الأحوال، انه ليس إلا عامل من الساعة الأخيرة، ومعلوماتي تعادل معلوماته تقريباً.

وخلتُني أسمع نبرة أخيها إلياهود الساخرة.

لقد كان الكل يحرصون على ألا ينسوا شيئاً، أو يشوهوا حدثاً، بالرغم من مشاحناتهم، لذا حرصت أنا أيضاً ألا أتخلف عن هذه الاجتماعات. وكنت أول الوافدين، وأختار محلي في آخر الغرفة، فيدعونني إلى الجلوس قرب الضوء. وقد أصبح هذا السياق شبه نظام طقسي. ولكني فضلت البقاء في الظل دائماً، فلا يحيد انتباهي شيء: لقد كانت معرفتي بحياة ابني العلنية ناقصة حقاً! واختبرت جهلي وأنا استمع إلى رفاق دربه، فأنا لم أسمعه يعظ، ومعظم ما بلغني من أعماله كان على لسان إنسان عابر، أو عن كلام مرتا ومريم الكثيرتي الحديث، وقلما بلغني شيء عن لسان تلميذ، أو رسول تحديداً. فلقد شعرت ان ابني يولد بيننا من جديد: ها ان صورته تتوضح، وسرّه ينكشف، وغياباته الطويلة تجد معناها، وصرت أبصر شيئاً فشيئاً.

وغالباً ما خنقت شعور الزهو في حنجرتي، أثناء الخطابات التي تخصه، أو حبست إحباطي تجاه الانتقادات المبطنة حوله، فلقد مكثت مرهفة الإحساس تجاه المديح أو الملامة، بالرغم من مرّ السنين التي من شأنها أن تروّض انفعالاتي. لقد كنت أستمع إليهم يتحدثون عن يسوع، وأنا أخفي ارتياحي أو ارتباكي. ولم يكن انتشار خبر معجزاته، أو قوة كلامه هي التي تؤثر فيّ، بل بساطة الحركة التي يستقي منها العبرة، وهذا المزيج لديه من الألفة والسمو، ومن الرأفة والحزم. وإذا تناول الجانب العلمي من الكتاب المقدس، لم يلجأ إلى سرد فصل منه، بل كان يعيد تركيب الشريعة بقلبه، فيضع نفسه على مستوى أبسط الناس، لأنه يحبهم كأخوة، ويعاملهم كذلك. "أبانا": هكذا علّم.

يا بني، إذا تذكرك التلاميذ، فأنا أتأمل بك، ولم أرك قط بهذا القرب مني. لقد جئت لتشهد للنور الذي كان منذ البدء، وهذا النور يضيء وجهك، وينعكس على وجهي. ان أكثر معجزاتك بهاءً هي اني أراك في نور الله الساطع. تلاميذك يستعيدون كلامك، وأنا أبتسم منهم أحياناً. فلقد قال يعقوب لتوما:

– لا تنصب نفسك قاضياً، فلا تدان.

وقال يعقوب الآخر لفيليبس، متحدثاً عن اسطيفانوس:

- تعرف الشجرة من ثمارها.

وأورد سمعان-بطرس هذا القول معلناً مثلك:

- مهما أردتم أن يفعل الناس بكم، فافعلوه أنتم أيضاً بهم.

وإذا استدرنا الكلام، توصلنا إلى المبدأ العزيز على قلب هيلليل وهو:

- ما لا تحبه، لا تعطه لقريبك.

وغالباً ما كان أبي يسرد هذا القول:

- هنا كمال التوراة.

وكان يوحنا ينتهز كل فرصة نكون سوية وحدنا كي يسألني، فيعرف أكثر فأكثر عن معلمه.. منذ ولادته وحتى يوم لقائهما. وكان فكري يجرؤ على تجاوز عتبة فمي لدى الحديث معه:

- ما إن قال لي الملاك: إفرحي، حتى عرفت إني سأتألم. وعندما قال: يا ممتلئة نعمة، استولى عليّ الخوف على هذا الابن البكر الذي عهد إلى رعايتنا أنا ويوسف. لقد خفت عليه منذ مولده في المغارة، خفت عليه من بطش هيرودس، ومن الجنود الرومان، ومن الجوع، ومن المتمردين، ومن السر الذي يعزله عن الآخرين. لقد غادر البيت بُعَيْدَ وفاة أبيه، وتمزق قلبي لذلك. أصارحك يا يوحنا بما أردت نسيانه، اعني بخططي وحججي لإبقائه معي: صحته، صحتي، واجباته كابن بكر، موقف إخوته أعني أبناء أعمامه، رأي القرية. لا أريد التفكير بذلك يا يوحنا، ولكن هذه هي الحقيقة. ضع نفسك في محلي. ماذا تقول سالومي والدتك، لو فعلت أنت أو يعقوب كما فعل هو؟

- لست أدري. ولكنها ليست سهلة المراس، وأنا لست يسوع. أنا خليقة اعتيادية، أما هو، فهو الوحيد، وابن الأوحد، والآن، فليكن السلام معك...

- أسباب آلامي اليوم ليست ذاتها في السابق. أنا امرأة تقدمت في السن، وفي ذاكرتي ما رأيته، سيف مشرع فوق كل رأس، وصاعقة على كل سقف. فعمَّن تكلم يسوع عندما قال للرسل: سيضطهدونكم أنتم أيضاً؟ عن الوثنيين الذين يحتقروننا، أم عن الإخوة المختونين الذين يكيلون لنا اللوم؟

- لربما عن كليهما.

- أترى!

– لقد أرسل الأزلي لآبائنا المنّ لإشباع جوعهم؛ وفجّر الماء من الصخر لإرواء عطشهم، وأعطاهم حقولاً لم يفلحوها، ومدناً لم يسوّروها، والآن أعطانا ابنكِ. إنه أمين...

فعاد يوحنا إلى أسئلته:

– أماه! ماذا فعل يسوع عندما غادر دكان الناصرة؟ أين ذهب؟ ألم يقل لك شيئاً؟

– كلا. واحد كان يعلم، وقد مات دون أن يقول شيئاً: يوحنا المعمدان. كلاهما أحبا الصحراء، وإن بشكل مختلف: المعمدان أحبها ليكتمل فيها، وأحبها يسوع ليستعد فيها لرسالته. وأنت يا يوحنا، هل ترغب في الذهاب إلى الصحراء؟

– أحياناً!

وكانت الأماسي تطول بنا. "لما أردت المعرفة، لم أتعلم شيئاً، إلا أن الأزلي أشفق عليّ، فنزلت الحمامة من السماء، وأعطتني مواهبها".

– وأنت يا أماه.. قد أقبل الصباح، وها اني أراه على محياكِ. إن الموهبة التي نلتِها، هي الأجمل.

لقد جرت أمور كثيرة، كما قال لي يوحنا. أجل لقد جرت أمور كثيرة منذ زمن يسوع، ولكنه هو وحده يهمني. ان ما يحدث لي آت من عنده، وإليه يبلغ، وفيه يمتزج حبي له وذكراه ليبنيا المستقبل الذي بقي لي. ترى ماذا بقي لي سوى أن أعيش هذا النهار والذي يليه، كلاهما يضطرمان حباً له. ان أيامي تسيل كالماء الذي يبلل القماشة بأكملها، ويبلل كل خيط من أقصاها إلى أقصاها.

كان والدي يردد علي: "تذكري الله الذي يتذكرك". وكانت العبادة ووتائرها، والصلاة وأنغامها تشكل لقاءات حقيقية. ولقد تمنيت منذ طفولتي المبكرة أن لا أقع في فقدان الذاكرة كما حدث لأمي. فالنسيان كالليل الدامس الذي يطفئ العينين، فتتلاشى أمامها الأشياء. وإذا ما حرصت على توثيق كلمات ابني، فلكي تضحي كتاباً، وبذاراً مقدساً لشعب تغذيه وتوحده.

يسوع حاضر فيّ بصورة دائمة، ولن تتحقق حياتي، من بعد، إلا وسط هؤلاء الذين يحتفلون به. أنا مثل النبتة البيتية التي هي بحاجة إلى البستان والبستاني؛ أو كما كان يحلو له أن يقول، كالنعجة التي لا تستطيع الاستغناء عن القطيع، ولا عن الراعي. إنه

ابني البكر، بكر إخوة كثيرين صاروا كالخيمة التي أحتمي بها. تحت سقف بيتهم صارت تجتمع عائلتنا المقدسة، عائلة العهد الجديد. إنهم همّي، وأسرتي، وملجأي، ومثالي، وسعادتي، وهم الذين يخطّون تاريخي، تاريخ الإيمان. فيا يسوع، ما أحلى التزامات الحب!

ونشأت تقاليد معينة في الجماعة شيئاً فشيئاً، وقد كنا، في الحقيقة، بحاجة إليها. فبعد ارفضاض مجلس التلاميذ كنا، نحن النساء، كبيرات السن أو الشابات، الأرامل أو العذارى أو الأمهات، نحب استطالة الأمسية للترويح عن النفس ولمتابعة المواضيع المطروحة. وكنت غالباً ما أفضل الانسحاب إلى غرفتي مع كنوز أفكاري، ولكني أبقى ساهرة من أجل الآخرين. وكانت بعض أخواتنا يغربلن حصيلة ما توصل إليه مجلس الجماعة، ويستعذبن التعليق على تناقضات هذا وذاك من الإخوة، أو تقلد نبرته في الحديث، أو تضحك من حركاته وإشاراته، وفي هذا شيء من انتقام النساء من الرجال الذين يستبعدونهن عن النقاشات الهامة. فبينما كان الرجال يتشاحنون حول نقطة عقائدية، كانت الأمهات يتناقشن في ما يقلق بالَهنّ:

– كيف نربي أولادنا في هذه الأيام التي أتى فيها المسيح، وكيف نعلمهم احترام القدماء الذين لا زالوا ينتظرونه؟ كيف نحصّن أبناءنا المعمدين مع إبقائهم في الأسرة اليهودية؟

فقالت راعوث:

– لقد غيّر يسوع عيوننا، لا صلواتنا.

فاستطردت ميريام قائلة:

– راعوث على حق. فيسوع هو يسوع، ولكنه يهودي. لقد لبس وشاح الصلاة والشرائط، وتلا نص "شماع: اسمع يا إسرائيل". لقد أكل الطاهر، واحترم السبت.

فبادر يوئيل بصوت منخفض:

– كلا، إنه لم يحترم السبت تماماً، ولا دائماً. ولقد نقل لي ذلك يعقوب.

ثم توجهوا نحوي:

– يعقوب؟ لربما في وقت...

ولم أكمل عبارتي، لأني لا أحب العودة إلى ما أختلف فيه الأولاد.

– لا تقلقي يا مريم، فالاعتناء بمريض أو بشخص جرح في حادث يوم السبت ليس عملاً مضاداً للشريعة.

فقال يوئيل مؤكداً:

– الشريعة لا تسمح به إلا في حالة الخطر. بينما يدّعي يعقوب بأن الرجل ذا اليد اليابسة والشخص المصاب بتضخم السوائل كان بوسعهما أن ينتظرا. فلقد التقى المعلم بالأول على طريق المجمع، بالثاني في أثناء مأدبة، ولم يكن ثمة اضطرار للتخفيف عنهما. كما لم يكن من الضرورة الملحة شفاء المرأة الممسوسة منذ ثمانية أعوام، أو الأعمى من مولده. فلقد أثار يسوع حفيظة الفريسيين بإجرائه الشفاء في يوم بطالة...

لم أجب بشيء.

ولكن، ترى، هل أراد ابني إستثارة بعض الأصوليين بتأكيده على محبته؟ لو حدث الأمر البارحة لرفضته، أما اليوم، فأفضّل الصمت. لعمري، من يكون هؤلاء الفريسيون؟

إنهم يعتقدون بالقيامة في آخر الأزمان، و قد قام ابني في اليوم الثالث...

– يبدو أن التلاميذ لم يغتسلوا قبل الطعام إذ كانوا على شاطئ البحيرة بعد الصيد.

– أكاد لا أصدق، فالماء متوفر...

وضحكنا. فقال يوحنا:

– لم يعد أهمية لذلك، من الآن فصاعدا.

كانت القاعدة عندنا ألا نرفض استقبال إي مختون. ولكن سمعان-بطرس أصدر أوامره، منذ أن اتهمونا، بأن لا نفتح الباب للزائرين المجهولين إلا بعد تحقيق واف عن هويتهم. وكانت المرأة التي جاءتني قد أعطتني اسمها: كنت واقفة أمام الموقد، وقد أدنفت جمراته، وتركتني ميريام لتجلب لنا قليلاً من الخشب اليابس، وعندما سمعت خطى قادمة، خلت ميريام قد عادت. وحدث نقاش أمام الباب، وترددت يهوديت في السماح للغريبة أن تدخل. فلمحت ثوب حزن يتقدم، ولم أُبدِ حراكاً. ثم بدا لي طيف شخص وراءه في الفناء، فحسبته أحد الإخوة الحراس، قد استدعته يهوديت على عجل.

لست أدري كيف بدأ الحديث، مع أن كل التفاصيل الأخرى شاخصة في ذهني. وجهت كلمة ترحيب، لياقةً.. وكانت المفاجأة! لقد تهيأتُ حقاً لمثل هذه المفاجأة

أكثر من مرة، بالرغم من قساوة ما حصل، وكان لابد أن يحصل، آجلاً أم عاجلاً، و لم تكن الصدفة سوى في حدوثه على يد هذه المرأة بالذات.

انحنت المرأة بتوتر، ثم استقامت لتتفحصني بنظراتها، فدعوتها للجلوس. ودخلت ميريام على غير توقع، وحركت النار، فالتهب الجمر. فانتصب وجهها أمام وجهي، لأبحث بين طياته عن سيماء ابنها يهوذا الذي غفر له يسوع: "إنهم لا يدرون ماذا يفعلون...". إن قدوم تلك الأم، وألمها الصارخ كان بمثابة تكفير عن الجريمة. فحاولت مدّ يدي إليها، ولكنها بدت وكأنها لم ترها. ولاحظتها تجول بطرفها في الغرفة، كمن يريد التأكد من إمكانية الهزيمة بيسر، فآلمني احترازها وشكّها. وتركتنا ميريام وحدنا. فاستهلت الحديث بنبرة تحدٍّ:

- أنا لست من سفينتكم، لا أنا ولا أحد من أسرتي. وآمل ألا يرتبط أحد البتة من أحفادي بأحد منكم.

وقدرت صراحتها.

- نحن يهود منذ الأزل. ولقد صلب أحد أجدادنا في عهد ألكسندر جاني، عندما اضطهد هذا الملك جماعة الفريسيين.

ثم أخفضت من صوتها:

- أنتِ أم، وتعرفين اني أتكلم عن ابني. لقد كان بكري، كما كان ابنُك بكرك.

وفيما كنت ألتهم كلماتها، وقد تجمدت أعصابي انتباهاً إليها، أخذني الدوار بغتة، و لم تعد أذناي تسمعان شيئاً: "آدوناي، يا ربي، ارحم...".

- لست هنا لتبرير ابني، بل جئت لأغسل العار الذي تلقيه جماعتك عليه. اعلمي انه لم يفعل ما فعل من أجل المال، فثلاثون من الفضة لا قيمة لها بالنسبة إليه. لم ينقصنا المال أبداً. وكان الرابي يعرف ذلك، لأنه جعل منه أمين صندوقه. هل اختاره لو علم انه سارق؟ من الذي رآه يأخذ درهماً لو لم يكن لإغاثة هؤلاء الجائعين الذين كانوا يزعجون يسوع بصخب؟ لم يكن قلب يهوذا أقل شفقة من قلب ابنك، و لم يبعد أحداً من المقعدين أو المعوزين. ولكنه كان أكثر علماً من الآخرين، فكانوا يحسدونه، ويبغضونه..وأخصّ اثنين من التلاميذ. إنه لم يبال بهما، ولا دافع عن نفسه، لأنه كان مسامحاً وسخياً. بوسعك أن تسألي ماذا كانوا يقولون عنه في مدينتنا، حيث لم يكن له سوى أصدقاء، والكل قد بكوا موته.

وسكتت، وأدمعت عيناها. أخفضت عيني، و لم أجسر على إجابتها، خوفاً من أن ترى نفسها مهانة، فينقطع حبل الوصل بيننا. ولكني تجرأت فقلت:

- لماذا أسلم معلمه؟ ألم يكن يحبه؟

فتنهدت وبقيت صامتة ردحاً طويلاً، ورأيتها تلوي أصابعها.

- نعم كان يحبه. ولربما أكثر من الباقين... لو لم يكن يحبه، أفكان يحتمل ما احتمله من أجله؟ عندما بدأ ابنك يكرز، وجد يهوذا على طريقه، فسمعه وقال عنه: "إننا نجد مسحاء كل يوم، ولكن لا أحد يضاهي هذا بقامته". وأضاف: " تنبع الفضائل منه كما تنبع المياه من العين". فهرع إلى البيت وأخذ منطقته وعصاه وذهب. "ستُبلي رجليك، وتتسوّل خبزك، وأنا لم أدفع أجور دراستك كي تلجأ إلى هذا النمط من الحياة". وأستحلفه أبوه بالبقاء، ولكنه أجاب: لقد وضعت ثقتي بهذا الرجل. سيخلّص إسرائيل، ولكنه بحاجة إلى من يعرف أن يكتب وينظم حساباته. إنه محاط بصيادين وفلاحين". ولقد كان يهوذا على حق في هذا. فرفاق ابنك كانوا من الجهلة، وممن لا قيمة لهم؛ هو نفسه كان متكلماً بارعاً، ولا يعير انتباهاً للأمور الأخرى. "تشبهوا بعصافير السماء، ولا تقلقوا للغد". أما يهوذا فكان آنذاك يسهر على البذر. هل تعتقدين أن تحرير البلد يتم بالمواعظ؟

- بماذا تلومين يسوع؟

- ألومه بأنه أخطأ الطريق. بل، هل عرف حقاً أين يريد الذهاب؟ لقد قال يوماً: "الملكوت، يجب اغتصابه. من له سيف فليأخذه". وفي يوم آخر يقول: "إذا ضربك خصمك على خدك الأيمن، فحوِّل له الأيسر"، أو: "أعطوا ما لقيصر لقيصر". ثم قوله: "جئت لألقي حرباً".. كيف تريدينني أن أفهمه؟

لقد قالت تلك المرأة: "أنا لست من سفينتكم". كم كانت بعيدة عنا في الشاطئ الآخر!...

- لم يكن يهوذا جباناً، ولقد بقي على الأمل حتى النهاية، حتى أسبوع الفطير، عندما دخل يسوع إلى أورشليم لكي يُبايعوه. يا للنصر الهش! يا للتحدي! فلقد وقعت الهزيمة حالاً. وجاء يهوذا مهرولاً إلى البيت، وقد جنّ جنونه، وكأنه ممسوس. فصار يضرب رأسه بالحيطان، وسقط على وجهه، فتملكني الذعر لرؤيته محطّماً حتى المساء. لقد كانت أعصابه ضعيفة دائماً، ومنذ صغره لم يتحمل توبيخاً. لقد تألم كثيراً. عندما

وشى ابني بمعلمه، لم يسلم رجلاً، بل سلّم النبي الذي خدع الجموع.. الذي كسر ظهر المقاومة.. الذي لم يعرف أن يكسب المعركة.. الذي قسّم عوض أن يجمع.

وددت أن أنادي النجدة.

واسترسلتْ:

- كان ابني من طينة أخرى. لقد كان سليل المكابيين، مقاتلاً حقيقياً وأصيلاً، مقاتلاً يستحق التكريم. أما يسوع... لم تخطئ الجماهير بحقه! فعندما سأل بيلاطس من تريدون أن أعفي عنه، هو أم باراباس، صاحوا: أطلق سراح باراباس.

- في سبيل تعظيم ابنكِ، ها أنت تثقلين كاهل ابني: فلا تتوهمي بأني سأتبعك. إن يسوع لم يعد لي، بل هو فوق، وعلى الآب أن يبرّئ ساحته.

ولأول مرة رشقتني بنظرة شريرة.

- الخلاصة: لك التعزية، ولي الخزي. انك تجعلين من يسوع حمل الله، أما يهوذا فهو كبش الفداء. هل هذا عدلك؟ وماذا لو قلت لك بأن يسوع، بصفته رئيساً ومسؤولاً، قد أرغم يهوذا على وضع حدّ لأيامه، لأنه هو نفسه قد قرر ذلك؟ يكفيك اتهاماً للبريء. إنكم ترددون بأن يسوع دخل في آلامه طوعاً.. هل تعرفون ماذا تقولون؟ على كل حال لقد جُرّ ابني إليها جَرّاً. ولماذا يكون ابني هو الضحية؟

- كل شيء يتم بمشيئة السماء، إلا مخافة السماء.

فرمتني، إذ ذاك، بآخر سهم:

- المسيح قام! هل تراه قبّل والدته قبلة واحدة؟

وكانت ترتجف، وقد ارتشفت دموعها. فأخذتني قشعريرة من البرد أمام الموقد. و لم أجسر التلفظ بأي كلمة، لاسيما كلمة الرأفة، التي لم تكن لتتحملها.

وعادت ميريام إلى موقدها، وقرأتُ على وجهها المتجهم أنها سمعت كل شيء من وراء الباب. فقلت لها:

- اسكبي لنا من ماء الجرة، فلقد جفّ حلقنا.

ونهضت أم يهوذا حالاً حتى لا تقبل مني أي شيء. وقاستني بنظراتها حين اجتازت العتبة للخروج.

- القدوس، تبارك اسمه، هو أب لجميع اليهود. وخوفي ألا يقع دم ابني على جميع ناكريه.

لقد خرجت أخيراً، ومكثتُ مسمرة في مكاني، بعد أن تبارزت آلامنا كلينـــا. لقد جرحني ألم هذه الأم التي تبكي ولدها أكثر مما جرحني غضبها. وما قالته عن يهـــوذا كان صحيحاً؟

"آدوناي يا ربي، لماذا لم تنر روحه، لماذا لم تقطع الحبل الذي خنقـــه؟ دعـــني أقاسم جرح هذه المرأة، وضمه إلى جرح ابني من أجل خلاص ابنها".

الفصل الخامس والعشرون

ثقل السنين

لقد اغتم الرسل لزيارة أم يهوذا، وعملوا كل ما بوسعهم لتحاشي مثل هذه "اللقاءات المزعجة"، كما كانوا يسمونها. وكان أحد الإخوة الشباب على أهبة الاستعداد لمرافقتي كلما خرجت، وكنت أتكئ على ذراعه من ثقل السنين، فيقول لي:

- أنت تابوت العهد.

فأجيبه:

- أرجو ألا أصير رهينة لدى الفلسطينيين أبداً.

وكنت أدفع خضوعي ثمناً لتكريمي. فأنا خاضعة لوجهاء الجماعة كما خضعت من قبل لوالدي، ثم ليوسف، ثم لابني البكر.

وكنت ألح في الذهاب إلى الأروقة، في أوقات الصلاة، بالرغم من الغمّ الذي يصيبني كلما قصدت الهيكل: فالهيكل يكثف لديّ انفعالات جمة من أوقات سعيدة، وأحاسيس مقدسة، وبكاء كثير، وغبار، ودماء، وكلها لديّ كالحجارة والملاط لجدار هذا الصرح.

واسمع يوسف يقول لي: "أترين هذه المباني، وهذا الرخام والبرفير، وهذه الروعة؟"، فيضيف ابني حالاً: "من هذا كله لن يبقى حجر على حجر". يا له من صدى يصدم إحساسي! فأردد صلاة أمي: "آدوناي يا ربي، لا تعاقبنا على أخطائنا بثمن أورشليم. دعنا نرتل نشيد المراقي لسنوات طويلة".

أجل، لم أكن مرتاحة الذهن. فلقد انتابني شعور من القلق الذي يشل الفكر بعد أن تناوبت علينا المحن والتعزيات. هل جاءني ذلك بعدوى الكآبة التي كانت تشكو منها ميريام؟ أم هل هو نبأ موت صموئيل الذي بلغني مؤخراً؟

قال لي يوحنا:

- لقد التقيت بأحد أصدقاء عظيم الكهنة، وقال لي بأن طبقة الكهنة تعادينا، وادعّى اننا نعمل على إبعاد الحجاج. إبعادهم عن ماذا؟

وإذا بيعقوب يقول قلقاً:

- هل يريدون الكفّ عن اعتبارنا من اليهود؟ هل خنّا إسرائيل باعترافنا بمسيح الأنبياء؟

مآخذ كثيرة، ومنها أيضاً: استضافتنا لجماعات من خائفي الله المهتدين حديثاً: فالمتطرفون الصلفون وطبقة الكهنة والعلماء لم يغفروا لنا ذلك أبداً.

آه! كم إنهم مولعون بتعداد أخطائنا! وكم رغبت أن أقول للاثني عشر: أنتم على خطأ حين تقلقون. ولكني لا أعرف الكذب. ومع ذلك أراني مدفوعة إلى سرد أقوال الكتاب في كل حين. فكانت راعوث تمزح معي قائلة:

- يا مريم إنك تتكلمين بالمزامير، كما تكلم الرسل باللغات.

لربما! المهم هو أن يفهموني. وأعرف أيضاً أن يعقوب يحب تاريخ ملوكنا.

"لا تخف، يقول داود لابنه سليمان، الرب معك. لن يتركك حتى يتم البيت الذي تبنيه له". وكان يتكلم عن الهيكل الذي نعيّد تكريسه بانتظام. والحال ان إخوتنا هم البناؤون، والمهندسون، والصاغة، والنجارون العاملون في بناء مسكن يكون يسوع كاهنه الأعظم. وسيأتي يوم يقتنع فيه أولئك الناكرون... وأردد مع نفسي بصوت واطئ نهاية الفصل النبوي: "أعد الذهب لما ينبغي أن يكون من ذهب، والبرونز لما ينبغي أن يكون من برونز، وكل حجر كريم ورخام بكميات كافية". إني أحب طعم هذه الأقوال، ولكنها لا تروي عطشي.

متى سنتذوق سوية طعم العسل على إيقاع هلليلويا؟ [...] هل سينشق هذا الشعب الموحد، الصافي على نفسه بسبب ابني؟

عبثاً أحاول نسيان هذا السؤال الذي ألقيه على نفسي. لن أتخلص منه، إلا متى تخلص الساحل من الموج الذي يرتطم به. عائلات محطمة، إخوة صاروا أعداء، أتباع مخذولون، غرقى كأم يهوذا، شهداء كاسطيفانوس، وابني المصلوب!...

هكذا يواجه الشرير واقع البشرى السارة! لقد قال لي شمعون يوم كان يتعامل مع الغيارى:

- في الثورة، إما ينتصر المقاتلون، وإما يموتون.

هل ينتصر يسوع بموته؟ هل يكون الدم المهراق والدموع المذرفة هباء؟... ولكن يسوع قد قام، وهذه هي علامة العلامات، والرجاء الذي يبسط جناحه...

هذا الردح القصير من الزمن الذي أعطي لي قرضاً، والذي أطلق عليه اسم "حياتي"، ترى ماذا سيكون ثقله خلال الأجيال الآتية؟ ماذا ستكون قيمة مريم؟ أتحسب عاملة؟ ولكني لم افعل شيئاً. -إني لم أختر، وإنما تلقيت مصيري، كسائر النساء من جيلي. هل سيحسبونني محامية؟- انني لست شاهدة، وإنما أنا جرح. فلقد اتخذت مكاني بين أبي وابني، يتجاذبني عهدان، كل إلى جهته؛ إني أعلن انتمائي إلى هذا، وأصلي من أجل ذاك؛ كائنان، بل نموذجان حبيبان إلى قلبي. [...] لست أدري.. إني جاهلة جداً. فلقد أخفيت في قلبي أشياء كثيرة تتجاوزني، واحتفظت بها سراً دفيناً. وهذه الأمور هي التي تخرج الآن في وضح النهار. فأرجوك يا ربي، امنحني قليلاً من النور، لئلا أتيه في الليل. أنا لا أخجل من التعثر، فلقد عرف ابني شيئاً من القنوط، وأبي أيضاً سقط في الشك على شهادة والدتي.

إني لم أستنجد بمرح راعوث كي تسندني، بل لجأت إلى قلب ميريام المرتعش، لنشجع بعضنا البعض. فلا أنا ولا هي نقبل بالتشكيك في الخلاص الذي انفتح أمامنا، ولا يمكن أن يصل بنا إلى طريق مسدود. لاشك أن الهدف يبدو بعيداً، ويمر بأيام مظلمة!

فقالت ميريام:

- في السابق كان كل شيء واضحاً، وكان له معنى: الأسرة، البيت، أنت وأنا؛ وكنا نعرف ما نعمل ولماذا... أما اليوم فتنبسط أمامنا مسافات مبهمة. الحياة تفتقر إلى عناصرها، وتغرق في عدمها، وعمرنا يبلغ نهايته. فليس الزمن هو الذي يهرب منا، وإنما قنديلنا ينقلب على ذاته...

وأراد يعقوب أن أساعده في إعداد العيد بكل تفاصيله. وكان يتمنى أن نشترك فيه اشتراكاً كاملاً، بحيث يرى كل حاج، وكل واحد من سكان أورشليم، بأم عينه، أننا إخوته، وأن تقوانا تساوي تقواه. وطلب إلي الاعتناء بهندامي بصورة خاصة، وأوصاني أن تفعل النساء كذلك. فانتبهت إلى طيات ثوبي باهتمام كدت أنساه. لقد

كان يعقوب على حق في هذه التفاصيل الصغيرة التي تكتسب أهمية عندما يكون المرء هدفاً للأشرار. واجتهدنا أن يكون عددنا كبيراً لتلاوة صلاة الالتماس الإلهي: "آدوناي يا إلهي، أنت وحدك المعطاء، أنت وحدك البار، أنت تخلص شعبنا من الشر، أنت جعلت من آبائنا مختاريك، إجمع المشتتين منا، خلّص الذين هم في العبودية، أنظر بعين الرأفة إلى أولئك الذين هم موضوع احتقار، عاقب الذين يهينوننا، وثبت أقدام شعبك في مكانك المقدس".

إلى هذه الصلاة يجيب الجميع، سواء كانوا يهود آسيا، أو اليونان، أو البنطس، أو سوريا، أو مصر، أو كيليكيا، أو ما وراء الأراضي والبحار، ويرددون بصوت واحد قائلين: "آمين".

من إي أذى كانت الجماعة تريد حمايتي، مهما كلف الأمر؟ لقد نصحوني أن أنزل إلى الناصرة وأمكث فيها، وحاولوا إقناعي بشتى الحجج، مثل "تبديل الهواء" الذي وصفوه مفيداً لصحتي، وخاصة بأن أستير تطالب بي، وبأن مردخاي يتعافى من حادثته بصعوبة، وبأن الأسرة توسعت بعدد الأطفال الذين صرت لا أعرفهم. ونقل لي فيليبس أن الجليل صار يفتخر بأن المسيح قد نشأ فيه، وصار أهل الناصرة الذين تآمروا عليه في المجمع، أول من يكرّمه. وعادت راعوث الغنية بالمقاصد الكبرى لتحرضني:

– إذا أردت سأرافقك، وسنلتقي ثانية بإلياهود وشوشنة.

لربما... [...]

وبعد تلك الأيام حدث أن اجترح أول رسول أعجوبته الأولى. فهرع إلينا أحد الإخوة من الهيكل وقص علينا ما كان شاهد عيان عليه:

– صعد يوحنا وبطرس إلى ساحة الهيكل لصلاة الساعة الثالثة. وكما هي العادة، أتوا بمُقعد من مولده ووضعوه قرب الباب الجميل. وعندما رآهما الرجل يدخلان، طلب إليهما صدقة، فقال له بطرس: "أنظر إلينا". فأطاع المقعد ظاناً أنهما سيعطيانه عُملة. وأردف بطرس: "ذهباً وفضة ليس لي أن أعطيك، ولكني أعطيك مما لي: باسم يسوع الناصري قم وأمش". ثم أخذه بيده وأنهضه. فهتف الشعب الذي كان حاضراً بدهشة. فرفع بطرس صوته وسط الجلبة: "أيها الإسرائيليون، لماذا تتعجبون مما حدث؟ إن إله آبائنا مجّد عبده يسوع الذي أسلمتموه للموت. توبوا وعودوا إليه". وأضاف الأخ الذي نقل الخبر بأن الشرطة حذرت بطرس ويوحنا وساقتهما أمام المجمع.

من الواضح أن الاستياء كان يتصاعد في صفوف الكهنة. فما كانوا يتغاضون عنه من قبل جماعة مغمورة، لن يقبلوه من بعد من حزب يتصرف في الهيكل وكأنه في أرض محتلة، يتطاولون فيها على اجتراح المعجزات. فبقدر ما كنا نقوم بأعمال باهرة، بقدر ذلك كان الارتباك يحرك الشعب، ويدفع أصحاب المقامات إلى ضربنا. فكانت صلاة يعقوب:

- يا رب انتبه إلى ما يهددنا، وهبنا أن نعلن كلمتك بثبات تام.

وإزاء شر البشر الذين يزجوننا في القلق، كانت يد الرب تنشلنا. وقد حققت عملية شمعون-بطرس الوعد الإلهي: "من آمن بي يعمل الأعمال التي عملتها، ويعمل أعظم منها". وكان شباب الجماعة يلحون على الاحتفال بالحدث بوليمة يكون رئيس الرسل ضيف الشرف فيها، مهما كانت المخاطر. وتهيأ لي المشروع خارجاً عن الفطنة، نظراً إلى الظروف الراهنة، فطرح الأمر للتصويت، ونال التأييد. ولاحظ أحد التلاميذ أن البحر قد جرفنا في رحلة خطرة، منذ موت يسوع، وعلينا التقدم نحو العمق دون الاهتمام بحالة البحر. وأضاف آخر أن المجمع قد أطلق سراح شمعون-بطرس، في النهاية، لأنه لم يجد أية علة شرعية ضده لإدانته.

وكانت أمنيتي، يومذاك، أن تعم الفرحة قلب كل واحد، واحترمنا نظام الجلوس تحاشياً للاعتراضات التي هي جزء من طبائعنا. أما نظام الطعام فهو عبارة عن استنساخ للنظام الذي وضعه الرومان، وقد تكون تلك القاعدة هي الوحيدة التي تبنوها من دون تحفظ: إذ تُنصب ثلاث موائد، تدعى إحداها مائدة الشرف. وطال الجدل أين يجلس شمعون-بطرس ويعقوب ويوحنا، فتم الاتفاق أخيراً على ترتيب معين.

وجاءنا الخبر أن يونا وزوجته، وزَبْدَيْ وسالومي قادمون أربعتهم إلى أورشليم، وقد هزت الفرحة الاثنين الأولين، بينما دخل الأخيران مغتمين بعض الشيء لأن شمعون-بطرس قد اختير كأداة لاجتراح المعجزة وليس ابنهما. فأحطتهم جميعاً باهتمامي، وشوت لهم مريام أفضل اللحوم. وعزف الإخوة الموهوبون أثناء الطعام أبياتاً على آلتي العود والناي. ووقف أحدهم أمام شمعون-بطرس ورفع صوته بالردة:

- لقد ربحنا.

فردد زملاؤه اللحن سوية معاً. فبادرتني سالومي:

- لا يحق ليوحنا ويعقوب أن يتشكيا، لأن ابنك سيعطيهما مكاناً ممتازاً في ملكوته. [...]

وبعد الغداء... ترك شمعون-بطرس المائدة، وتوجه نحوي:

- مريم، لماذا اختارني الرب؟ لست مستحقاً. أنت تعرفين إني أنكرت ابنك في فناء دار قيافا.

فطمأنته مؤكدة له بأن خطيئته قد غفرت، والبرهان أنه مُنِحَ مقدرة اجتـــراح المعجزات. فاستطرد قائلاً:

- في كفرناحوم، سألني ابنك بعد ما قام ثلاث مرات: "بطرس أتحبني؟"، كما لو تخوّف من أني سأنكره من جديد. أبداً.. في ما تبقى من حياتي، لن يصيح الديك أبداً قبل توبتي.

الفصل السادس والعشرون

على شرف بطرس

مر أسبوعان منذ الوليمة التي أقمناها على شرف بطرس. فقالت لي ميريام:

– الوليمة القادمة ستكون مع يسوع في ملكوته.

بينما أخذت راعوث تتكلم عن عشاءات المحبة التي كنا نتناولها، وتسرد بنـــهم خصائص أنواع الأطعمة التي كانت تثقل على الصندوق المشترك: الجـــدي المشـــوي، والبيض المحشي، وسمك البحيرة لكل المدعوين، والأكلة الخاصة بمائدة الشـــرف، وهـــي عبارة عن ليّة خروف مسمن. وتقدمت فتاة من رئيس الرسل، في آخر الوليمة، وسكبت بعض قطرات من الزيت المعطر على شعره، كما حدث ليسوع عند سمعان الأبرص.

بعد هذه الأفراح، تجمعت النسوة وأخذن الطريق على خطى الأبل، وأوصـــى مسؤولو القافلة باليقظة من جديد. في الواقع لم نعد نخرج إلا لماماً، ولا نقصد ســـاحات الهيكل إلا في مناسبات الاحتفالات الأساسية، ونمكث متجمعين. كما أتخذ الإخوة، من جانبهم، الاحتياطات نفسها. فكان يردد يعقوب:

– لا نُثرْ حفيظة أحد!

كنت راكعة على السطح ذات يوم عندما سمعتهم يتكلمون لأول مرة عن هذا الذي سيسم مصير الجماعة بقوة تأثيره. فلقد كنا، أنا وراعوث، منـــهكات في عمـــل خاص، وهو فرك التين، وذلك لتنقيته من آثار النمل الأحمر الذي التهمه، وقد كانـــت سراديبنا مليئة به. فلاحظت راعوث:

– لم أرَ قط نملاً بهذه الكثرة، ولابدّ أنها قادمة من روما. أليس كل ما هو ضار يأتي من روما؟! لحسن الحظ إن حجاجنا يقايظونها ببراغيثنا وقملنا. وفي باب الحشرات،

ألم ينسّب أحد محل بيلاطس؟ كم يا ترى ستدوم حريتنا المؤقتة؟.. شريطة ألا يستغل الغيارى الوضع لإثارة البلد، أو المجمع للإيذاء بنا! فأي كان الوالي، ستكون قبضته مفيدة مرتين: مرة لأنها توّحد اليهود ضده، وأخرى لأنها تجنبنا الشجار.

كنت أصغي بغير تركيز إلى دردشة زميلتي المتقطعة. متقطعة كالغيمة الداكنة المتفجرة التي تغطي وجه الشمس في غروبها. فسمعت صوت عزرا وراءنا، عزرا الذي كان يتجول بحرية حيث يشاء بصفته أحد الوجهاء. وكان غالباً ما يخبرنا عما يجول في المدينة، ويوزع علينا نصائحه كلما رأى ذلك مفيداً. وكان الوقت عشاء، فدعوته ليترل معنا الدرجات الثلاث عشرة التي تقودنا إلى الصالة التي يجتمع فيها الإخوة، فقال:

– أحذركم من رجل فريسي قد تتعرفون إليه مستقبلاً. إن موقعه لا يأتيه من أصله، ولا من ثروته، بل من دهائه. فلقد عرف كيف يكسب التقدير لعلمه من قبل الطبقة الكهنوتية العليا. واسم هذا الفريسي شاول، شاول الترسوسي، لأنه من مدينة ترسوس. إنه إنسان عنيد، لا يعرف معنى للتعب إذا شنَّ هجوماً أو دفاعاً عن قضية ما. إنه حاقد على يسوع. لاشك انه ليس وحيداً في مثل هذا الموقف، ولكنه أشرس الحاقدين، ومصّر على أن يبيدكم مهما كلف الأمر. أرجو المعذرة عن صراحتي.

– هل استمع إلى أحد من الاثني عشر في المجمع؟ ألا ينبغي الالتقاء به، ومحاولة إقناعه بأنه على خطأ؟

وخجلت من جسارتي المفرطة وسذاجتي: فاقترحت مقابلة هذا الذي يريد تحطيمنا.. لربما كان الأفضل أن أسكت..

لا منفعة من رسم خط في البحر، ولكننا نرى الغيوم تتراكم في السماء قبل العاصفة. وذات مساء لم يعد الرسل إلى البيت في الوقت المعتاد. فأخبرونا في اليوم التالي ان شرطة الهيكل القوا القبض عليهم، وأطلقوا سراحهم في اليوم التالي منذ الصباح الباكر. من دون سبب. وكان كل يوم يحمل معه حادثة صغيرة أو كبيرة، لا تنبئ بالطمأنينة للأيام القادمة. وكان يوحنا هو الذي أعلمنا بالكارثة: ففي ساعة الخروج من مجمع الإسكندرانيين، أُثير نقاش بين اسطيفانوس ويهود من مصر. وارتفع الجدال، وتحول النقاش إلى ضرب بالأيدي، فهمّ أحد الجنود الرومان بالتدخل، فألقي أرضاً، وعرف بعض الفضوليين الشماس فاتهموه بالكفر. وفيما كان اسطيفانوس يدافع عن نفسه، تمت السيطرة عليه، ثم أسلموه إلى اللاويين، ودفعه هؤلاء إلى مجلس الشيوخ.

وكان اسطيفانوس من هؤلاء الذين لا يخيفهم الخوف، ولا يطاله الشك. لقد كان له شيء من غرور الفتى، وثبات الشباب، ورغبة التحدي، والحاجة الملحة إلى التحرك بحسب قناعاته. لاشك ان هؤلاء المهتدين الجدد لم يكونوا ينتظرون مجيء الرب الأخير وهم مستلقون تحت التينة متكاسلين. فلقد قال متى:

- في العشرين من العمر قليلة هي الأشباح التي تتحرك في الرأس، ولكن الأحلام كثيرة: انهم يحلمون ثم يضربون!

وضرب اسطيفانوس في الجرح مباشرة، إذ كان يحسن التعامل مع الكلمة كتعامله مع آلة عمل في الورشة. وكان يجرح أحياناً. لذا فقد نبهه يعقوب مراراً:

- انتبه. خذ بعين الاعتبار مع مَن تتكلم.. أن تقنع أحداً لا يعني أن تعاديَه، ولا أن تثير غضبه. قل بالآرامية ما يعجز اليونانيون على فهمه، والعكس بالعكس...

وأردت في أحد الأماسي أن أحذره أنا أيضاً، فجاءني يلهث من الجري، وقد التصق شريط شعره بجبينه، وهو يبتسم ساخراً من نفسه، فخلتُه يوناثان صديق داود عائداً من المعركة. وتقدم نحوي مترددا، وضمني بنظرة حنان. وصرح لي بأنه لا يحسب للخوف حساباً، لأنه سبق أن قدّم حياته تضحية.

- ألم تحاول الدفاع عنه، يا يوحنا؛ ألم تهرع إلى هنا لطلب النجدة من الإخوة؟

- أتظنين أني لم أحاول؟ لقد أمسكوا بي وربطوني ولولا عزرا، أحد أصدقائنا، لما تخلصت منهم.

هل علم بذلك شمعون-بطرس ويعقوب؟ فتجمعنا نحن النسوة للصلاة، واقفات أمام المائدة التي صُفَت عليها الأقداح والصحون في انتظار المدعوين.. فلقد جمدنا القلق حقاً. وفي الفجر قُرع الباب أربع دقات، فعرفنا انه بطرس، فقفزنا من أماكننا، وهرعنا لفتح الباب. فدخل وعليه مظهر مسافر متعب، إذ تدلى حزامه ليدع قميصه وعباءته يهدلان، وكانت رجله تزف، ولحيته مغبرة. وإذ استغرب من عددنا، حثّنا على الانتشار.

- اللواتي لا يسكنَّ هنا، ليعُدْنَ إلى بيوتهنّ!

فاعترضن كلهنّ: لأنهن أردن معرفة السبب. أما هو فأراد طمأنتهنّ، فأخبرهنّ بأنه قد قضى الليل في الاتصالات لإنقاذ اسطيفانوس، ويأمل في النجاح.

وجاءتني يهوديت خادمتي بأول أخبار الصباح من الأزقة التي تتجوّل فيها. وكان التوقع السائد أن نيقوديمس وأصدقاءنا في المجلس الأعلى -وكان لنا عدد منهم- سينجحون أثناء مداولات المحكمة في الإفراج عن اسطيفانوس. وتناوب الرسل، أثناء

النهار، من دون انقطاع، في قصص متناقضة. أما أنا فكنت على نار، وأبذل جهوداً مضنية في الحفاظ على هدوئي الظاهري. وانقطع خيط الأمل بعد الظهر، إذ بلغ غضب أعضاء المجمع الأكبر سناً أشدّه أمام صمود اسطيفانوس وحدّة موقفه، فأقنعوا خصومنا – وكان لنا عدد منهم أيضاً- بضرورة إعطاء درس. فأصطفّ وراءهم معظم القضاة، وأثاروا الجمهور، وطالب هذا بصحب الاستماع إلى المتهم. ولو لم يلقِ اسطيفانوس خطاب قدح أعنف من السابق، لكان بالإمكان إنقاذه:

– أيها الرجال ذوو الرقاب الغليظة، القلف في قلوبكم، إنكم تقاومون الروح القدس دوماً. أنتم تعرفون الشريعة، ولا تطبقونها. آباؤكم قتلوا الذين بشروا بمجيء البار، هذا الذي غدرتم به وقتلتموه بدوركم...

فقلت وقد تملكني الشحوب:

– لقد تكلم أقوى من يسوع.

ولدى سماع المجلس هذا الخطاب، صمّوا آذانهم، وفي الحال حكموا عليه بالعقوبة القصوى. ثم ألقوا به خارجاً، وأسلموه للجمع.

– هل قتلوه؟

– بل أشبعوه ضرباً، ورجموه، وفقاً لعقاب الكفر!

– لم يكن لهم الحق في قتله!

فأخفيت وجهي بكفيّ لأبكي، بينما حاول يوحنا إيجاد الكلمات التي قد تسندني.

– على شاكلة ابنك غفر لقاتليه، إذ قال: "أيها الرب يسوع إليك استودع روحي"، ثم أمال ركبتيه بهدوء، وقضى نحبه..

فاستدعى يعقوب الرسل والشمامسة، وقد عاد إلينا مسرعين كل مَن كانوا قد ابتعدوا، وامتلأ البيت نحيباً. وأعلن الحدادَ عدد غير متوقع من الجيران. وكان صوت اسطيفانوس، هذا الشهيد الشاب، يخاطبنا من الأعالي قائلاً: "لا تخافوا. كملوا سيركم". فصلى يعقوب:

– يا من تصنع السلام في الأعالي، حقق السلام فينا وفي كل شعبك.

فأجاب الإخوة:

– بجاه يسوع مسيحك.

والتأمت جماعتنا لترى هل من الضروري تحصين البيت بالسواتر. وتم الاتفاق بيسر على هذا الموضوع، وكُلّف الشماس طيمون بمهمة توفير الأقفال. كما تم الاتفاق

على إقامة ملجأ في آخر السرداب لحماية الملف الذي كتبه متى، وكذلك الكفن واللفائف التي ضمّت جسد ابني. ولكن النقاش اشتد عندما طرح موضوع اقتناء سلاح للدفاع عن النفس في حالة الهجوم علينا. أليس ذلك ضد مبادئ المعلم؟ فلقد سبق أن قال آباؤنا: "طوبى للمهانين، وهم لا يهينون أحداً". وردد يسوع بعدهم: "طوبى لكم إذا اضطهدوكم من أجلي". أخيراً تم الاتفاق على أن نسلّم ذواتنا لله. ولكن شمعون-بطرس أمر بأن يجري تفتيش دقيق، كل مساء، للفناء والسراديب، لاسيما عشية السبت ويوم الأحد حيث تجتمع الجماعة كلها.

هذا ما تمّ قبل ختام أيام الحداد. وهيأت الفتيات الموائد في غرفة مظلمة، أغلقت نوافذها. وكنت معجبة برشاقتهن وأصلّي من أجل حياتهن المهددة، وكانت بسمتهن تنير صلاتنا:

- لقد ضُربنا بالأسواط، ولاقينا المسبات والإهانات، لأننا نعترف بيسوع مسيحاً، ولكن اسطيفانوس تخطى أعتاب الموت. لنصلِ، يا إخوتي، كي نستحق أن نعطي حياتنا من أجل الاسم المجيد.

كم تغيّر شمعون-بطرس! لقد تحوّل التلميذ المعتّد بنفسه إلى أب عطوف، وحذر. فلقد وصفه ابني هكذا: عامل يعرف قيمة الآلة، صياد لا تباغته العاصفة، فلاح يعرف أن الحصاد لا يتعلق بعمله وحده، بل بالشمس والمطر أيضاً، رجل يعرف حدود الإنسان. وعندما سمعته يتكلم عن شجاعة اسطيفانوس وصلابته، عرفت أي غفران يلتمس قلبه، وبأية ندامة يتحرك!

- شاب يُرجم لاسم يسوع، ويقتل لا على يد وثني كافر، بل على يد ابن لإسرائيل!

فقالت راعوث:

- ميريام، ليست الأمور بهذه السهولة، فاسطيفانوس كان يونانياً. أجل إنه يهودي، ولكنه يهودي من اليونان. فلقد أعلن لإخوتنا في أورشليم: "أنتم قتلتم المسيح". وكأنه لا دخل له في الموضوع، وكأنه يتميز عن الآخرين! هل كان محقاً أن يتكلم بهذه القوة؟ سيما وأنه لاحظ الغضب الذي أثاره حوله. لقد سمعته يقول: "إياي يطلبون".

- لقد عاش اسطيفانوس عند الوثنيين، ورأى الأمور من بعيد.

- إذن لم يكن يراها بصورة صحيحة.

لم تكن براهين راعوث مقنعة. أما موت اسطيفانوس فهو برضى السماء، كما كان موت يسوع.

ولكن هذه الميتة وضعت الفريسي شاول الترسوسي في قفص الاتهام، هذا الذي أطرى عزرا في امتداح شخصيته، وشجب سلبياته؛ إذ انه ساند القتلة في أثناء الرجم...

وعلى هذا النبأ، حركني الفضول، لأعرف المزيد عن شاول. فعرفت أن عائلة هذا الرجل هي من سبط بنيامين، من مدينة جيسكالا أصلاً، وقد هاجرت في زمن قاروس، في أعقاب حوادث الجليل. ولقد أثرت في ترسوس، بكيليكيا، وحازت على المواطنة الرومانية. بأي طريقة؟ هل بالخدمات التي قدّمتها؟ أم بالدهاء؟ أم بالمال؟

- بدءاً، ما هي مدينة ترسوس؟

- مدينة مركزية وثنية تقع عند أقدام جبال طوروس. ويحكى أن الإسكندر سبح فيها وكاد يغرق. فأضاف يعقوب الصغير:

- مدينة عاهرة ككل مدن البحر.

- هل شاول هذا يهودي حقاً؟

- لقد درس في أورشليم عند أقدام جملائيل.

وفقدت النطق: كيف؟ جملائيل البار، عضو المجلس الأعلى، هذا الذي لم يوافق على الحكم على شمعون-بطرس، ويعقوب ويوحنا عندما ألقي القبض عليهم...

- شاول قوي، وله أذن صاغية عند رئيس الكهنة الذي يوكل إليه مهمات خاصة، فلا أحد يضاهيه في الوشاية. وفي المقابل لا يرفضون له مطلباً: من عربة للتنقل، إلى الحماية المسلحة، إلى رسائل التوصية، إلى كيس النقود بوفرة.

- إنه يعتبر جميع المعمّدين جاحدين، ويعمل على إفنائهم.

وعمّ الرعب في الحي الذي نسكنه، حيث يرون جواسيس شاول في كل مكان، وكانت النسوة يَعُدن إلى أعقابهن إذا ما صادفن وجهاً مريباً في طريقهن إلى السوق. وكانت دبورة تطمئنهن بطريقتها الخاصة:

- عزرا سيرتب الأمور.

- ولكن عزرا فَقَدَ مصداقيته لكثرة ما كان يتردد علينا.

لقد جاهد رجال كثيرون هنا على الأرض من أجل مجد ابني. فكنت أطلب من الرب أن يحفظهم من الاضطهاد. وكنت، مع معرفتي بقوّة العبد المتألم، أفكر بهؤلاء الشباب الذين يلتحقون بنا، غير مبالين بمخاطر الالتزام. ولقد أظهر استشهاد اسطيفانوس أن اليهود والرومانيين يتكالبون ضدنا على حد سواء. فلقد كان عدد أعدائنا لا يحصى: ومنهم كل الطبقة العليا من الكهنة، وعلماء الشريعة، وقسم كبير من الفريسيين والكتبة، وبدعة الاسينيين أيضاً، والمتمردون الذين يعرضّون حياتهم للمخاطر باسم التوراة.

الفصل السابع والعشرون

غادِروا أورشليم

لقد أنذرني الرسل، ولكن بطرس نفسه استدعى النساء الجليليات، وصرح لهن قائلاً:

– أترين، أننا لم نعد في أمان بين إخوتنا اليهود. سيلهمنا الله كيف ندافع عن أنفسنا، ولكن في انتظار ذلك، ليتخلّ الرجال عن هموم عائلاتهم. لذا، على النساء والأولاد أن يغادروا أورشليم في أقرب فرصة.

وهكذا، ها نحن من جديد، على الدروب مع دوابنا المحمّلة ثقيلاً. فأخذنا معنا أغطية، وقماطات للأطفال، ومواد غذائية، من قمح الحنطة، وحبوب الشعير المحمّصة، والتين، والزبيب، واللوز، إضافة إلى أواني المطبخ، والسرج للإضاءة في خانات الطريق، والقرع اليابس المجوّف للاستقاء. لماذا ترى تكون أمتعة النساء بهذا الثقل؟ ألعلنا راحلات إلى الصحراء! وفي الدقيقة الأخيرة، دسست بين الأمتعة كؤوس الخمر للغداء، والكؤوس الزجاجية المصنوعة بطريقة النفخ، تلك التي أهدتها لنا هلدا، و لم أرد تركها ورائي. أما في ما يخص النقود للتبادل مع فلاحينا الجليليين، فقد دست كل من ميريام وراعوث تحت ثوبهما أشياء لا أهمية لها، مما جمعنه من دكاكين محيط الهيكل، حيث لم أكن أشتري شيئاً، على ما يبدو. وكان قائد قافلتنا هو فيليبس الذي أسندت إليه مهمة دقيقة، ألا وهي التبشير بالإنجيل في السامرة. ذلك أن بطرس، عندما قرر أن يمكث الرسل في اليهودية، التمس من الشمامسة، والشيوخ، ومن كل من نال وضع الأيدي، أن يعود إلى

وطنه الأم وينشر الإيمان فيه. وهكذا انطلق نيقولاوس إلى أنطاكيا، وبرنابا إلى قبرص. أما فيليبس فكان عليه أن يتوقف في السامرة، بينما تكمل زوجته وبناته الأربع طريقهن معنا.

وكدنا نلغي السفر، لأن زوج راعوث ألح علينا في اللحظات الأخيرة لتغيير المسار:

- يسوع نفسه طلب إلينا ذلك بقوله: لا تأخذوا طريق الوثنيين، ولا تدخلوا مدينة السمرة!

- مِمَّ تخاف يا متى؟ هل تخاف من مخالفة تعليمات المعلم؟ أنت مخطئ في تفسير كلامه، فهو لا يتكلم عن السير في الأراضي، والبرهان بأنه طلب إلى السامرية التي جاءت لاستقاء الماء أن تسكب له ليشرب. ولقد أعلن أنه المسيح لهذه الخاطئة ذاتها، التي لم تكن خبيثة، ولكنها لم تصدق آذانها كيف أن يهودياً يوجه الكلام إليها.

وتمنيت التوقف عند بئر سوخار. فقلت ببرود:

- سنجتاز المكان بسرعة، وسيأتي إلياهود وشوشنة للقائنا، ولن يكون ثمة خطر يذكر.

فسكت متى. أما شمعون-بطرس فأسند القافلة الى اثنين من الأخوة من ذوي العضلات المفتولة، وزودهم بسيف للطوارئ. وأوضح لفيليبس:

- سترى مشعوذاً هناك يحمل اسماً مثل اسمي، ويقدم نفسه بصفته المسيح. وإذا لم يستطع بيلاطس القضاء عليه بالقوة، أسكته أنت. بهذا سنعرف إذا كان الله يريد أن تهدي السامريين.

وتركنا فيليبس قرب سبسطية، وتابعنا طريقنا مسرعين لنكون على الموعد مع إلياهود. ولكنهم قمعوا عاطفتي التي جاشت عند نبع سوخار، إذ استعجل رفاقي الخطى، وسمحوا لي فقط أن أشاهد عن بعد عارضة البئر المبتلّة بالماء الذي عبأوا به زقاقهم. فاستأنفنا السير في صفوف مكثفة. وكانت القرى التي نجتازها نظيفة ومحصنة -علماً بأن مبيتنا كان في الهواء الطلق-، والمواشي تجتر بعافية، والحقول مزروعة: فلقد أغدق هيرودس الطاغية دنانيره لمكافأة الشعب الذي سند طموحاته بالوقوف ضدنا. فلقد كان يعقوب يقول:

- هذه الأرض هي الشوكة التي تترفنا منذ الانشقاق، فهل يا ترى يقوى فيليبس على اجتثاث الشر؟

وتراءت لي من بعيد تلال الناصرة، فانقطعت أنفاسي، كما في يوم عودتنا من بيلوسة. ولكن الأمل بحلول سلام مجزٍ كان قد ضاعف قواي في أيام شبابي، أما اليوم، فأعود ذابلة ومثقلة بالسنين، ومهمومةً بمصير الإخوة الباقين في أورشليم. وكانت تغرورق عيوني بالدموع كلما تذكرت اسطيفانوس. وفي الاستراحة خارت ركبتاي من النعاس.

وأقبل إلياهود على الموعد. لست أدري مَن منّا خنقته العبرات أولاً، ولم أحاول السيطرة على نفسي، فالجميع يعرفون أني لست مصنوعة من نحاس. وأنهضني إلياهود على ظهر الحمار الذي استقدمه، وأمسك هو بالرسن. وكانت قافلتنا الصغيرة تتبع الدليل، وكان دليلنا شقيق راعوث، صديقة الطفولة. وتزاحمت الذكريات في قلبي، وجاشت العاطفة دون أن نقوى على التوقف عند واحدة منها. وتابعنا سيرنا من دون كلام.

وما أن دخلنا القرية، حتى انهمكتُ في تبادل التحايا، إذ كان الأصدقاء متحفزين لاستقبالنا. وفضلت شوشنة انتظارنا أمام بيتها، فثارت العواطف من جديد [...]. فأخذني إلياهود بين ذراعيه، فشعرت بقوته تحميني، وما هي إلا خطوات حتى وصلنا البيت. فاستقبلنا مردخاي الذي أصبح رجلاً عجوزاً يتحرك بصعوبة، ومشت أستير وراءه تمسح يديها بثوبها. أما الأطفال، فكانوا في عربدتهم يتدافعون في الفناء، ويصدموننا أثناء مرورهم. لاشيء جديداً في كل ذلك، ولكني لم أعرف أياً من الأطفال. أين يهوذا وشمعون، أين زوجاتهم، أين عائلاتهم؟

- في المجمع.

- لعلكم تقولون بأن اليوم يوم سبت.

فحدجني إلياهود:

- نحن في وسط الأسبوع، وقد ذهب يهوذا وشمعون لصلاة اليوم الخمسين.

يبدو أني منهكة تماماً كي أنسى المواقيت.

فقالت لي أستير:

- تعالي، سأقودك إلى غرفتك، فلقد بيّضناها لك، ورفع الجيران الجدار الفاصل على السطح منذ زيارتك الأخيرة، ولكن المنظر لازال مفتوحاً على الوادي. أتذكرين؟

وكانت ذاكرتي كالأرض المحروقة!

يؤلمني الربط بين إزعاجات الضجيج، وأمان العائلة. فلقد كان الاثنا عشر يتبجحون في أورشليم بأنهم نجحوا في فرض الصمت بالقوة على النساء، بينما يتنادى

الناس هنا بفظاظة من بعيد. لم تكن أستير مهتمة بذلك، لأنها تجاهد على جبهات أخرى، ومنها عوق زوجها والحمى التي تهزه في أوجها، فتستعبده وتجعله يصرخ من ألمه. إنه لم يعد يتغذى من عمل يديه، ولا يترك فراشه، ولا رداءه المشبع بالعرق. وكان ملحاحاً في أن يسندوه في أكثر الأوقات حراجة، مع كلمات نابية جداً. وإذا به يهمس في أذني:

- إن أستير تحسدك.

فاستغربت. وقلت ان الشيخوخة تغيّر الإنسان حتى تشوّش نفسه.

لاشك أن البيت الذي ترعرعت فيه لم يعد بيتي، و لم أعد أرى فيه الأشخاص الذين أذكرهم. ولكي أتخلص من الحنين الذي يصيب المرء كل مرة عاد إلى جذوره، أنشغلت بكنس السطح، والاعتناء بالأطفال، واستنباط القصص لهم. ولكن فكري كان في مكان آخر، مع الإخوة والأخوات في اليهودية، هذا القلب النابض والفتي للجماعة الصامدة بوجه الثعلب. وكنت كل يوم أحد أهرع عند إلياهود حيث يُحتفل بكسر الخبز. فلقد تحققت في هذه العشاءات الأخوية كم أن صمت الصداقة يخلّص من القلق.

وفي أحد هذه العشاءات وصلنا الخبر المذهل لاهتداء شاول. ولقد سار فيليبس على الأقدام ليلاً ونهاراً، قادماً من قيصرية، ليحمل إلينا النبأ. ولقد كان لمجيئه المفاجيء وقع الصدمة، وكانت الصدمة الأكبر بما قصّه علينا.

- لقد تراءى الرب يسوع لعدونا شاول الترسوسي!

وبعد الدهشة الأولى، أمطرنا الشماس بوابل من الأسئلة التي هزته. كان الكل يتكلم في آن واحد، ثم صار صمت، وأخذنا نتوسل بفيليبس كي يعطينا التفاصيل.

- كان شاول منطلقاً إلى دمشق بمهمة جلب أنصار المسيح موثقين، وإذا به يصعق على الطريق بنور شديد أعمى عينيه، وجاءه صوت يقول: "أنا يسوع الناصري. يا شاول لماذا تضطهدني؟"

كنا نسمع فيليبس ولا نقاطعه، أما أنا فكنت أرتجف كلما نقلوا إليّ فعلاً من أفعال ابني. وكانت ميريام أول من عبّرت بصوت عال عن الشعور بالغرابة الذي أخذ بعضاً منا: من أين لفيليبس هذا الخبر؟

- من حننيا أخينا في دمشق. فلقد أمره الرب في رؤيا أن ينطلق لملاقاة شاول. فاعترض حننيا لمعرفته بكل الأذى الذي قام به هذا الرجل، وبالخطر الكبير الذي يحدق بمن يلتقي به. ولكن الرب ألح بقوة، فقام أخونا وتوجه إلى الطريق المستقيم في دمشق، ووجد شاول ووضع عليه يديه. واتخذ شاول المهتدي الآن اسم بولس.

وأجال فيليبس طرفه في أعين السامعين، وتوقع، وبحق، أن لا يكونوا قد فهموه. وكان صمتهم يضم سؤالاً واحداً على الأقل: "ماذا يقصّ علينا هذا اليوناني القادم من السامرة عبر قيصرية؟". وكان الشماس بدوره يفكر: "لماذا قطعت كل هذا الطريق، فلا يصدقوني تماماً؟". وخلّصت ميريام الموقف مرة أخرى، إذ نهضت بهدوء، ومسحت المائدة، وقدمت من لبن الغنم لفيليبس. يا لها من فرصة سعيدة! أما أنا فأضفت:

– آمل أن يجلب لنا هذا الأخ الجديد اخوة جليليين كثيرين مثله.

فتشجع فيليبس من جديد وقال:

– ليس فريسيين وكتبة فقط، بل يونانيين، ورومان ومصريين... فالرب قال له أنه اختاره ليجيب عن اسمه أمام الشعوب الوثنية.

وكان تأثير هذا الوحي كبيراً جداً علينا. وما إن ودّعنا فيليبس حتى عاد النقاش:

– ماذا أراد قوله بذكر اليونانيين والرومان والمصريين؟ لعلّنا سنترع البحر ونعمل المستحيل؟

فقال إلياهود:

– العالم كله ملك للرب.

– هل اهتدى شاول حقاً؟ كيف نتحقق من ذلك؟

لقد تساءلت قبل أشهر: "هل هو يهودي حقاً؟" فهمست لي شوشنة:

– قد تكون هذه نهاية معاناتنا. فإذا صالَحَنا شاول، أو بولس هذا، مع الكهنة والفريسيين بعلاقاته، فالشعب سيتبع، وسيكون باستطاعتك أن تعودي إلى أورشليم. لقد عرفتْ قصدي!

كلا، لن أعود في القريب العاجل. لأننا لم نعد نسمع شيئاً عن بولس، وعاد خبر اهتدائه إلى مرتبة الأخبار العادية الرتيبة، والخبر العادي لا أحد يعلّق عليه في الناصرة إلا برهة عابرة. ولقد كنا منشغلين بمقدم السنة السبتية ومنهمكين في حرث الأرض، آملين غلّة مضاعفة. ومنذ أن حكمتنا روما مباشرة، صرنا نتعرف على مواعيد الضرائب وقيمتها عن طريق قيصرية، ومن خلال الضرائب نعرف أسعار التوابل ومواعيد القوافل. وكنا نتوقع أحداث الإمبراطورية المهمة، كما يتوقع الفلاحون هجوم الجراد منذ قدومه في الأفق كغيمة سوداء، ثم تندفع وتنقضّ على حقولهم بعد ساعة.

لقد طال مكوثي في الناصرة، ويؤرخه يوحنا بعد موت طيباريوس، في عهد كايوس كاليغولا. أما أنا فكان فكري بعيداً عن أخبار الأمراء وزبانيتهم. وكان بصري

يتجه نحو الأردن من حيث سيصعد بطرس ويعقوب ويوحنا لمعانقة ذويهم. وكان يعني ذلك بالنسبة لي أن التهديدات قد كفّت، وأن الإخوة ما عادوا يخافون من السجن أو الموت. إن آذار شهر جميل لتجديد الرجاء. فكنت استيقظ منذ الفجر، وأستمع إلى زقزقة العصافير، وقد غسلت الأمطار جوانب التلال، وظهرت شقائق النعمان في الحقول، ومعها تفتحت أزهار الياسمين والسوسن والزعفران.

يقول المثل: "في آذار ترتجف النعجة في الصباح، وتبحث عن ظل التينة ظهراً". أنا أيضاً كنت أرتجف مثلها ليلاً تحت ردائي، وبعد الغداء أتذوق عذوبة الهواء العليل في الفناء، بعيداً عن وهج الشمس.

لن أنسى الإزعاج الذي أصابني من جراء زيارتي لبلدة قانا. فما إن وصلت إلى الناصرة حتى اشتقت لزيارة الأصدقاء الذين بارك يسوع عرسهم، وكم كنت سعيدة بذلك! أنا لا أريد إضفاء معنى خاص لهذه الانفعالات الحميمية التي تدفع الإنسان إلى الخضوع، لأن الشيطان يستغلها لتضليل النفوس. لذا أقنعت نفسي بأن البحث عن الذكريات هو الدافع الوحيد لذهابي إلى قانا. فلقد رحنا، أنا وأستير، غير آسفات على الابتعاد عن الاهتمامات المنزلية، ولا عن عربدات زوجها. وأخذت كل منا رداءها لليل، كما أخذنا معنا حلويات للأطفال، وخاصة للمولود الأخير الذي لم تكن رجلاه تحمله وقد بلغ السابعة من عمره. وكان أصحابي قد أودعوه عند جدّيه، ثم أعادوه إلى بيتهم. وقد قصّوا لأستير، من دون أي تذمر، أنهم أحبوا حمل ولدهم إلى يسوع ليشفيه، إذ كانت أعضاؤه يابسة وهو في الثالثة من عمره، فلم يفلحوا، لأن يسوع كان قد أوشك الدخول في آلامه، وكان عرضة للتهديدات، فلم يجرؤوا على التقدم. ففكرت بأُختَي لعازر حين خاطبتا ابني: "لو كنت ههنا، لما مات أخونا".

الطريق قصير بين الناصرة وقانا. وكانت الشمس تدفئ كتفينا، وقد علق شيء من برد الليل في خماري. ترى كيف نساعد أصحابنا؟ وألحت أستير أن أفعل شيئاً:

- لو كان يسوع هنا لَرَحِمَهُمْ!

لم أكن يسوع، وإن كنت أم المسيح، واجتراح المعجزات لم يكن من اختصاصي. لأن ابني أعطى سلطانه لتلاميذه، الذين اصطفاهم لهذه المهمة. ولو التمست منهم، لجاؤا إلى كفرناحوم، ووضعنا الصبي على ظهر الحمار... ولكن التلاميذ كانوا منشغلين بالوعظ، واستقبال الاهتداءات، والعمادات، وقيادة الجماعة، وكانوا حذرين

جداً في حركتهم منذ موت اسطيفانوس... ولكني لم أقتنع من هذه البراهين الواهية. فالراعي يهمل القطيع بحثاً عن النعجة الضائعة. فتذكرت قوله: اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم. لقد كنت أعرف هذه التوصية الموجهة إلى الرسل، ولربما للجميع، ومن ضمنهم للنساء.

وامتلأ رأسي بالأسئلة. لقد حلّ ابني كل الإشكالات: فلقد جاء، وهو حي، ومات كما في الكتب، وسيأتي كما وعد. أما أنا فلم أكن أملك سوى دقات قلبي التي لا تفهم تفضيلات العلي، وقد هالني عوق الطفل. لقد شاء الرب أن يبارك عرس الأهل، ثم سمح بأن تهوي عليهم اللعنة. لماذا؟ لاشك أن الأزمنة قد قربت، ويؤيد ذلك أن المعزي سيمسح كل دمعة، ويعيد العدالة.

الألم، يا له من لغز! والاختيار، يا له من سر! وداعبت شعر الصبي، فتفاجأت بابتسامة الأم. وأخبرتني أستير فيما بعد بأن ابتسامتها تشبه ابتسامتي عندما كنت أداعب شعر يسوع في مثل هذه السن. إن المحنة ليست علامة نسيان الله لنا. "فالصليب قد حطّم مثلث الشر والبؤس واللعنة، وأعطى اسماً آخر للجلجلة". ولقد فهمت ما أراد يوحنا قوله في ذلك اليوم.

وقال الصبي:

- امكثي معنا طويلاً، لأن لك قصصاً جميلة. إني أحب قصصك لأنني لا أستطيع مزاولة ألعاب الركض.

لم يكن ثمة أية نبرة حزن في صوته.

الفصل الثامن والعشرون

شاول الترسوسي

"الحج".. إنها الكلمة التي تليق بالمرحلة الإلزامية التي قضيتها في الجليل. فلقد كنت كل يوم تقريباً ألقى ذكرى حدث قديم من أحداث حياتي وأقارنها مع الأحداث الحاضرة التي تواجهني، فلا أبقى سجينة الماضي. هذه الوجوه التي شاخت أو اختفت؛ الهموم المختلفة؛ الأحزان أو الأفراح الجديدة.. وتيقنت أن التغيير هو الذي يحدد وجودنا، وليس عدد الأيام. وكان هذا الفرح يستولي عليّ كل مرة عدت إلى كفرناحوم، لذا لم أتردد في سلوك تلك الطريق كلما تسنّى ذلك، بغض النظر عن فصول السنة.

فلقد داعبني هذا الحلم الجميل منذ استقراري في الناصرة، أن أعود إلى هذه المدينة الصغيرة لوحدي، وأرى مرفأها البدائي، وتتكحل عيناي بصفاء بحيرتها الرائعة. وفيما قبلت أن يرافقني إليها أحد، إذا بجمهور واسع قد أحاط بي لمرافقتي. وأنضم إلينا في الطريق سكان نائين وقانا وحتى مجدلة الواقعة في منبسط أوطأ.

لقد مضت اثنتا عشرة سنة منذ أن جئت، أنا ويعقوب ويهوذا، للقاء يسوع. ورأيت أن الطرق تتلاقى في الأماكن ذاتها كالسابق، غير أن المرج قد توسع، ولولا شحّة الماء لغذّت الحشائش كل الماشية وفضل... وفي كفرناحوم عانقت أيضاً زَبْدَيْ العجوز، يحيط به ولداه يعقوب ويوحنا. ومسح الأب الشيخ دمعة سالت من عينيه أمام نجليه اللذين أهداهما للمبارك، وها قد عادا إليه اليوم. فوجدا السفينة ولوازمها، كما وجدا

الشباك ذاتها التي عقدا خيوطها خيطاً خيطاً، وهذا الجسر، والحلقات التي وضعاها بأنفسهما، وهذه الشبكة التي تهرأت منذ أن تركاها وأهملاها. فأمسكا بالمجذافين بقوة: أليس أن صيادي الناس بحاجة إلى اختبار عضلاتهم. أما في القرية، فكان عليّ، إذا ما أردت ألا أنسى أحداً، أن أزور الدور بيتاً بيتاً. لقد عرفت معظم الذين تقدموا لتقبيلي، ولكني ترددت أحياناً: هذا الوجه، هذه الابتسامة لمن تكون من الأحباب، أو الأهل؟! وكان الشاطئ مزروعاً بألعاب الأطفال المتروكة، كالعادة، وقد أهمل عليه أحد الآباء قارباً من الورق قد هيأه لولده، أو قصبة صيد لن تلتقط بعد أية سمكة! وقدمت لي إحدى الأمهات طفليها، فتساءلت أبناء من هم؟ أيكونون من أهلنا؟

لقد كانت تلك الأمسية الأولى على شاطئ البحيرة عيداً، عيداً حقيقياً لي أنا التي أصبحت مواطنة من اليهودية. وجلسوا ملتفين حول النار كالهالة، وبسطوا عليها السمك للشي وتدافعوا لإعطائي موقع الصدارة، لأن الرجال غير معتادين على إخلاء المكان للمرأة، حتى وإن كانت كبيرة السن مثلي. وكان بعض القدماء يعرفون والديّ، وتقدموا ليخبروني بذلك، داعمين قولهم بتذكار معين منهما، أو بطرفة. وكان الجميع قد عرفوا يسوع عن كثب. وهنا في كفرناحوم، بالذات، كان ضابط روماني قد أقبل إلى يسوع يوماً ملتمساً عونه لابنه المدنف. فأجاب يسوع إلى طلبه: "اذهب لقد شفي ابنك". أين صار الذي نال الشفاء العجائبي؟ هل عاد إلى أصنامه؟ كلا، لأنه كان واحداً من هؤلاء الذين عمل فيهم الإيمان، ونطلق نحن عليهم اسم "خائفي الله"، ويكادون يكونون يهوداً تماماً، أو يهوداً بالشوق. يا ليتنا سحبنا الماضي إلى الحاضر، كما تسحب السفينة بالحبال!

ووصل شمعون-بطرس وأخوه أندراوس فجأة. فجأة؟.. لا أظن، لأن يونا كتم عليّ الخبر وأراد أن يفاجئني. ان للأصدقاء الأوفياء مثل هذه الدعابات. وسرعان ما استرق التلميذان الأضواء.. ولا غروَ، فإنهما من أبناء البلد. وكانت أجوبتهما على الأسئلة المطروحة صائبة تماماً، بحيث لم يعد أحد يفكر بأنهما كانا صيادين خشنين. لقد تغيّرا تماماً باحتكاكهما مع المعلم، وبفضل الرسالة. فكنت تسمع الناس يقولون عن شمعون-بطرس:

- يحق ليونا أن يفتخر بابنه البكر. فهو يعرف أكثر مما يعرف أحد علمائنا.

وعن أندراوس:

- له من الإرادة ما له من المعرفة.

وحضر في ذلك اليوم يهوذا الذي جاءنا عابراً، وميريام وراعوث اللتان لحقتا بنا في آخر الأمسية، قادمتين من بيت صيدا، إضافة إلى إلياهود وشوشنة اللذين رافقاني. لن أحيط بكل الأصحاب المؤمنين الذين تجمعوا حولنا، أو القادمين من القرى، ممن قبلوا يسوع، أو التقوا به، أو اتبعوه، أو تركوه؛ ومنهم صيادون من رفاق شمعون-بطرس، أو من أبناء الإخوة والأخوات، أو من أبناء الأعمام، أو الأقارب. لقد شعرت بالأمان وسط هذا الجمع الجناراتي الكادح، المعطاء، الذي يبعث إيمانه الراسخ وحكمه الصائب الحمية والشجاعة، كما يُسهم في توازن المتهوّرين، ولكن من دون اعتداد ولا تذلل. لقد كنا هنا بعيدين حقاً عن مشاغبات أورشليم.

ولفحنا دخان السمك المشوي قليلاً، وألقى المساء على المياه الخاملة غلافاً من الألوان الشاحبة التي كان يحبها ابني. وجلست ميريام مبتسمة بجانبي، وعيّنت راعوث لكل واحد مكانه في حلقة كان شمعون-بطرس مركزها. وكان يجيب إلى الأسئلة على قدر امكانه. فسأل أحد المتكئين على الطعام قائلاً:

- وشاول الترسوسي، من هو؟

ذلك أننا لم نعد نسمع شيئاً عنه منذ اهتدائه الغريب. فأجاب شمعون-بطرس:

- فريسي ظهر له المسيح. لقد وعظ في مجامع دمشق، وبرهن على شجاعته وعلمه معاً. وهو بين إخوتنا الآن!

- إنه لم يعرف يسوع في حياته، وإنما اهتدى في لحظة، وها أنتم قد جعلتم منه رسولاً، وتدَعونه يعظ على هواه!

لقد أخذت الدهشة إلياهود الذي نشأ على ضوابط التعليم المتدرج، ثم اجتاز مراحل التنشئة الأسينية القاسية. في الحقيقة، انه لم يفهم كيف..

كان وجه شمعون-بطرس في الظل، و لم استطع قراءة كامل فكرته.

- منذ وقت ليس ببعيد، صعد بولس إلى أورشليم لملاقاتنا أنا ويعقوب. وتحدثنا سوية، وجهاً لوجه، وتناقشنا طويلاً، وتفاهمنا.

فتخيلت الصورة: من جهة شمعون-بطرس ويعقوب اللذان لم يشفيا بعد من جرح استشهاد اسطيفانوس، ومن الجهة الأخرى الجلاد السابق الممتلئ من علمه ومن دعوته الجديدة.

وكان ضوء القمر يقتطع سلسلة جبال مؤاب، ورئيس الرسل يقتطع قطعة السمك الباردة:

– ..بعد هذا، انطلق بولس إلى ترسوس وطنه الأم، حيث أدى رسالته بيسر. أما برنابا فقد أرسلناه إلى أنطاكيا.

حينئذ تقدم رجل حليق اللحية يلبس رداء صوفياً، لم نلاحظه من قبل، ولما اقترب من النار تحققنا من أنه غريب.. لربما رجل روماني. فتوجه بالسؤال إلى بطرس:

– سمعت أنك تتكلم عن بولس الترسوسي الذي أعرفه. وأنت أيضاً رأيتُك في قيصرية، وقد تعشينا سوية عند كرنيليوس قائد المئة.

فتدخل إلياهود بأدب:

– قد تكون مخطئاً، فنحن اليهود لا نأكل على مائدة الوثنيين.

ثم اعتذر قائلاً:

– ليس لي أن أبرر رئيس الرسل، فمعذرة!

وانسحب الغريب خجلاً. فتنهد شمعون–بطرس، ثم استدار نحوي برفق:

– لك يا مريم أم معلمي، ولكم يا تلاميذه وأصدقاءه أقول الحق: ما قاله الروماني هو صحيح. لقد تعشيت معه في بيت رجل وثني، وهو ضابط في قيصرية.

– أنت يا شمعون، أنت اليهودي، ابن يونا وميكال، أول الرسل.. تفعل ذلك؟

– لقد فعلت ما أمرني به الرب.

كيف؟ هل يكون شمعون– بطرس قد خان الكتب، وهو يعتقد انه أطاع طلباً جاءه من علُ؟ لقد شعرت بثوب الشريعة يحرقني. وأخذ شمعون–بطرس يشرح كيف أنه رأى رؤيا بينما كان نائماً على سطح مضيفه الدباغ، في يافا: ظهرت أنواع من اللحوم النجسة على بساط معلق في الهواء، مثل سرطان البحر والزحافات، والدجاج المائي، وجاءه صوت يحثه على التناول منها. "ما ينجس الإنسان ليس ما يدخل إلى فمه، بل ما يخرج منه".

لن أنسى الحادثة أبداً: شمعون–بطرس وحده وسط حلبة الوحوش المفترسة، وهو يتوقع مخالب الذين خدّش إحساسهم. وكبح قلقي شفقتي عليه. وهجم إلياهود أول الكل:

– هل أنت متأكد من أنك لم تحلم؟ مع علمي بأنك لم تحلم كثيراً في حياتك.

وتلاه يهوذا:

– هل تكفيك رؤيا واحدة لتتجاوز الشريعة؟

أما أنا ففكرت: يوسف أيضاً أطاع الرؤى. ولولاها لما أمكن تفسير حياته، ولا حياتي. فقلت:

- بطرس لا تتزعج، بل إفهمهم. لقد كنت رفيقاً ليسوع وقد كلمك طـــويلاً؛ لقد رأت عيناك، وسمعت أذناك. فمن الطبيعي أن يسألك إخوتك.

لقد كان يرتجف. و لم أره في مثل هذا الموقف منذ احتفالنا بمعجزتـــه الأولى. ثم أخذ يعلن، كخاطئ تائب يحرر ضميره، ويكشف عن كل شيء، تاركاً الحكم لهم...

إذن.. كان بَعْدُ في يافا عندما قرع رجلان بابه، ودعيـــاه إلى مرافقتـــهما إلى قيصرية، عند كرنيليوس، وهو ضابط روماني من الكتيبة الإيطالية، رجل معروف بأعماله الصالحة وتقواه. ولما اطلّع الرسول على دوافعهم، تبعهم في الطريق. وما إن وصل، حتى استقبله كرنيليوس راكعاً أمامه، ثم قاده إلى المائدة، حيث ينتظره المـــدعوون. فشـــرع شمعون يعرض عليهم الأخوّة بيسوع، ربّ جميع الناس، وقبل أن ينهي كلامـــه اســـتنار الحاضرون كما حدث سابقاً في عيد الشابوعوث.

- هل كنت أستطيع منع الله عن سكب الإيمان في قلوب القُلُف؟ إني لم أقـــرر شيئاً من ذاتي.

"إذبح وكل". ردّدت مع نفسي الأمر الذي تسلمه شمعون-بطرس من فم الرب نفسه، وكان احترامي بالغاً لرئيس الرسل كي أشك فيه. لقد اختاره ابني... أما كتبنـــا المقدسة، وتقاليدنا المباركة، واختيارنا نحن..؟! فقلت في نفسي، وأنا أراقب الجمر المحمّر في الموقد، أن النار تطهّر بتحطيم العناصر، و تستقر الشعلة من جديد كل مرة. "جئـــت لألقي ناراً على الأرض". هكذا تكلم يسوع.

ما كدت استقر في الناصرة حتى جاءنا مبعوث من أورشليم يريد مقابلتنا. ومن تقاسيم وجهه المتعب، عرفت انه يحمل أنباء غير سارة. هل حدث ســـوء ليعقـــوب، أم ليوحنا، أم ليعقوب الصغير؟ فارتبكت ميريام. في الواقع لم يكن الخبر يخص أحـــداً مـــن الرسل، ولا من الشمامسة، ولا من الجماعة، بل كان يخصّ إلهنا، إله إسرائيل. فلقد قرر الإمبراطور الجديد كاليغولا نصب تمثاله شخصياً في الهيكل.

- ها قد عدنا إلى أيام بومباي!

- لقد دنّس بومباي قدس الأقداس بتجرؤه على اجتياز عتبته، وأراد أنطيوخس أبيفانوس وضع صورة زفس فيه. إن كاليغولا أكثر جنوناً من السابقين معاً، لأنه يعلـــن نفسه إلهاً.

– إن نبوات الأنبياء وإنذارات يسوع تتكاملان. "إذا رأيتم النجاسة قائمة حيث لا ينبغي أن تكون... ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال، ومن كانوا على السطوح لا يتزلوا منها ليأخذوا شيئاً من الدار.." متى يذكر ذلك، وقد دوّنه.

النجاسة... تنجيس المقدس، علامة دانيال، بداية المآسي... لقد انتشر الخبر على روابي الناصرة كموج غامر. "آدوناي، يا رب ارحمنا.. ها إن الهاوية تنفتح أمام أقدامنا". ورفعت عيني إلى السماء لعلّ ابني يترل منها قبل أن تظهر الضربات السبع...

لقد كان القدماء يقولون:

– سنموت جميعاً، أو نخلص جميعاً. فلنكن إذاً إخوة أكثر من أي يوم مضى.

ومزّق الرجال ثيابهم، وأطلقت النسوة عويلاً طويلاً، أما نظرات الشباب فكانت معبأة بالحروب [...]

وكانوا في السوق يندبون حظهم، ويأخذون احتياطاتهم، ويأملون أياماً أفضل:

– جمنيا، المدينة التي أعطتها سالومي إلى ليفيا رفعت مذبحاً لتكريم كاليغولا.

– ملعونة المدن الوثنية المستعدة للتواطؤ مع الخزي من أجل حفنة من الامتيازات.

– هل نخزن المؤونة؟

– ما الفائدة إذا كان علينا الهرب؟

وانتشر الخبر أن والي سوريا، بترونيوس، يتباطأ في رفع التمثال الذي أُمر بمراقبته. فلقد كان هذا الوثني المستنير يستحق صلاتنا... [...]. أما في أورشليم فبلغنا أن الشعب يتهافت لتقديم الذبائح في قلق جنوني، بحيث صار سعر الحمل واليمامة ثلاثة أضعاف. والكل يستنجد بالأزلي قارعاً صدره.

وفحصت ضميري، كما فعل غيري، لأرى هل أن مكوثي الطويل في الناصرة يجدي نفعاً؟ لقد قبلت ترك الإخوة، ولكن الرسل ذاتهم انطلقوا إلى فتح العالم، بينما لم تقبل فلسطين نفسها بعدُ البشرى السارة.

[...]

أيدتني راعوث وميريام في وجوب عودتي إلى أورشليم. وبعد موافقة رئيس الرسل الذي أرسل حماية لمرافقتنا، رتبنا أمتعتنا بسرعة. ولما وصلنا إلى أريحا سرتُ في خطى ابني، إذ أردت أن أعرف بدقة أين المكان الذي شفى فيه الأعمى، والشجرة التي

تسلقها زكا لرؤيته لدى مروره. وعندما اقتربنا من بيت عنيا، على بعد خمس عشرة غلوة من أورشليم، استغربت من قلة الحركة على هذا الطريق الذي كان حافلاً في السابق. وصادفنا مسافراً راجلاً يسير وحيداً:

- إننا قادمون من الجليل، هلا أخبرتنا بشيء؟

فأجاب الرجل:

- مات كاليغولا.

فركعنا أرضاً كما فعل دانيال عندما رأى نفسه لا يحترق وسط النار في الأتون. فلقد بسط الرب ذراعه وخلص شعبه.

- لقد لاحقوا الإمبراطور في قصره وكأنه وحش هارب، واخترقوه بثلاثين طعنة سيف... توقفوا هنا، ولا تدخلوا اليوم إلى أورشليم، لأن الفرقة في إنذار، وهناك حواجز حتى في مزارع الهيكل.

ومع ذلك غادرنا المكان في اليوم التالي من دون طعام ولا تفكير. فلقد أحسن استقبالنا أصدقاء لعازر الذين قدموا لنا من خيور شرابهم وطيورهم المشوية. وكان المناخ لطيفاً، بل لطيفاً جداً، كما في أخبار الأيام السعيدة، وقد غسلت الرياح وجه السماء، وذلك بالرغم من الدخان الآسن الذي يتصاعد من النفايات المشتعلة وتلوث منحدر هيثون. وكان الهيكل منتصباً نحو الأعالي، أكثر بهاء من أي وقت مضى، مفتخراً بنصره. فهتفت في فرحي:

- لتتفجر الأرض ابتهاجاً وليهتف البشر والبهائم، وطيور السماء وأسماك البحار، هليلويا!

ونزلت من ظهر حماري لأريحه، ومسّدتُ جنبه برفق.

والتقطتّ حصاة من الأرض، كما كنت أفعل وأنا طفلة، واجتزت بستان الجسمانية، وبهرتني أورشليم ببهائها، فتزلت وصرت أعدو، وكفي مغلقة على كتري. ومنذ ذلك اليوم صرت أحب الحجارة الذهبية اللون التي بنيت بها الأسوار. فلقد امتصّت هذه الحجارة أنوار شروق وغروب لا تحصى حتى اكتسبت ألوانها الحالية، وشهدت تزاوج الهواء والأرض كل صباح وكل مساء لأيام طويلة. ورأيت أمام عيني السماء نازلة في أورشليم، وأورشليم صاعدة نحو السماء. وأبصرت تحت أقدامي جيفة جرذ مائت يطنّ فيها الذباب، فتقول لي أن الحياة ما هي سوى نسمة عليلة ممزوجة بالنتانة.

وما إن وصلنا حتى تركت للرجال مهمة نزع الأمتعة عن الحيوانات، وللنساء واجب فتحها. ووزعت الحلوى بالياسمين والتمر الذي اشتريته في أريحا على الأطفال. ثم أشرت إلى زق الخمر الحلوة المهيأة لعشاء الرب، فوضعته راعوث نفسها في السرداب. فالخمر لا تحمض في مثل هذا الفصل من السنة إلا نادراً.

وألقيت الحصاة الصقيلة القاسية، رمزاً للبقاء.

القسم الخامس

الفصل التاسع والعشرون

من جديد في الجماعة

وأخذت موقعي من جديد في الجماعة. وكنا نسكن، لا في الدار التي أعارها لنا نيقودمس، بل في دارين متلاصقتين في الضاحية التجارية في بيت حسدا، كانتا في الأصل ملكاً لهيفار، ومنحنا إياهما ابنه عزرا، ولا زلنا نسكنهما حتى الآن. إن إحدى هذه الدور، وهي الأوسع، ذات جدران مغطاة بالنسيج، مخصصة للرجال، وفيها تعقد الاجتماعات؛ والثانية، وهي الأصغر، وسقفها من القصب، مخصصة للنساء، ولكن لي فيها غرفة خاصة مشرفة على الفناء الذي تظلّله شجرة تين ضخمة. ونسجت النسوة لراحة رجليّ بساطاً من شعر الماعز، وعلّقن ستاراً على المدخل اتقاءً من البرد، وجددن حصيرة سريري، ووضعن جرة جديدة في متناولي، وبعض الأدوية في حالة الضرورة. لقد أنعشت هذه اللفتات قلبي، سيما وكان الرجاء قد عاد إليه منذ زوال كاليغولا، وكانت الجماعة تنتظم وتدبر شؤونها استعداداً لأيام أفضل. فلاحظت راعوث:

– لم نقض ثلاث سنوات فقط في الناصرة، بل ألف سنة!

في الحقيقة لم تكن ملاحظة التغيير أمراً صعباً. ففي الاجتماعات العامة أصبح عدد الإخوة كبيراً، بحيث لم تعد القاعة تسعهم وكنت أجهل كثيرين منهم، ممن هم قادمون من بعيد. وكان العشاء الطقسي حول الخبز والخمر يجمعهم كل يوم أحد، وكانوا يمارسون وصية "أحبوا بعضكم بعضاً"، ولكن الحساسيات كانت حادة بينهم، بقدر ما كانت رغبة صنع الخير عامة لديهم جميعاً [...]. وكان القدماء يسمعون

بطرس، أما المولودون في الشتات فيصطفون إلى جانب بولس، والشباب يبدون انزعاجهم من الوضع. لقد تغيّر وجه الجماعة بقدر ما توسع عددها، وإن بقي قلبها هو هو. فالتضامن يسود كلما ظهرت المخاطر، وتظهر الفرقة إبان الأمان، ويتسلل الانقسام وقت الهدوء.

اختار الإمبراطور الجديد كلوديوس، والياً علينا، أغريبا ابن اريستوبولس، حفيد هيرودس. وكان أغريبا شخصاً مجهولاً، وما عرف عنه هو أنه تربى في روما، وحصل على العرش بفضل ألاعيبه لدى مجلس الشيوخ، وكانت سمعته سيئة للغاية، ويقال أن لا ضمير له، يحب الملذات، خبيث ومثقل بالديون.

- لقد زجّه طيباريوس في السجن، وأخرجه كاليغولا، وَتوَّجَهُ كلوديوس. لننتظر ونرى.

ولكنه كان يهودياً. وما إن نُصِّبَ على عرشه حتى بسط كفّه بالمكارم الواسعة، سعياً لدغدغة مشاعر الجماهير. وكان الشعب يعلن مبتهجاً:

- لقد قدم مئة ثور ضحايا.

ولكن الناس كانوا يرددون أيضاً:

- من أين له هذا؟ من سيدفع؟

ومن أفضل مبادراته أنه أقام سور أورشليم الشمالي المتهدم، لكي يحصّن المدينة أمام الغازي. فلقد جاء كل الغزاة من هذا الجانب.

- مهما كان صديقاً للرومان، فهو لا ينسى جذوره.

إن هذا المديح الذي يكيلونه بصوت عال، لا يخفي إلا بصعوبة عمق القلق القديم الذي يرسو في قلب شعب شبع من أنواع الخداع.

- يا ليته استطاع إنهاء مشاريعه...

- اسكت.. إن كلامك يجلب لنا السوء!

وحضرت اجتماع الشورى الذي عقد في بيت مريم، أم يوحنا-مرقس، حيث اعتاد الإخوة أن يجتمعوا. وفتح بطرس الجلسة (لأنهم لم يعودوا يدعونه باسمه المركب شمعون-بطرس):

- منذ تتويج الملك لم تسكب قطرة واحدة من الدم اليهودي. فمن العدل أن نحيّي هذا الحدث، من دون أن ننغشّ به.

هذا ما فكر به الجميع. ثم أشار إلى عمائل الإمبراطور القتيل في روما. بعدها قام أحد الشمامسة وأعطى خلاصة لميزانية الجماعة.

– لقد ازداد دخلنا النقدي، وكثيرون من أتباعنا صفّوا أملاكهم وقدموا لنا ثمن محاصيلهم، كما قدم غيرهم نذوراً. وهكذا نستطيع القول بأننا أغنياء، إلى حد ما، مما يتيح لنا تدبير مشاريعنا، والمشاركة في مشاريع المدينة. ولقد شاركنا مؤخراً في توزيع خمر الفصح على المعوزين، وأعطينا مبلغاً محترماً لتحرير عبيد مهتدين. وبما أن الصدقة هي ثالث عمود يسند العالم، فلا أحد من الكهنة، أو البلاط، أو الشعب، ولا حتى من الغيارى يستطيع لومنا واتهامنا بأننا ننقض إحدى الوصايا الأساسية للتوراة. كما أننا نطبّق قول معلمنا: "ما فعلتموه لأحد هؤلاء البؤساء الصغار، لي تفعلونه".

ثم تناول بطرس الحديث للتكلم عن فصل الرسالات.

– إنكم تتذكرون أعمال فيليبس في السامرة. لقد أرسلناه هناك لاعتقادنا، أول الأمر، أنهم سيقبلون هلينياً أفضل مما لو كان مواطناً من اليهودية. وبعد ذلك ذهبنا أنا ويوحنا لإسناده، وكان ذلك إجراءً نافعاً. فلقد صادفنا هناك سمعان الساحر، الذي كان يجذب الشعب بعقيدة مخالفة للحق. ومن المفيد أن أقصّ عليكم قصة اهتدائه: "عندما رآنا الماكر نضع أيدينا لالتماس حلول الروح القدس، قدم لنا فضة ليحصل على هذا السلطان"، فقلنا له: "لتهلك فضتك وأنت معها، إذ تتوهم أن عطية الله تُشترى، تبْ وصلّ إلى الرب". فأجاب سمعان وهو يرتجف راكعاً: "صلوا إليه أنتم لكي يغفر لي". فمنح له فيليبس العماد، وعمّد كذلك خلقاً كثيراً من السامريين. لم تنته القصة، لأن أخانا هذا تركنا للسفر إلى غزة، وفي الطريق التقى بخصي حبشي، موظف كبير للملكة كنداقة، كان عائداً من أورشليم. فعلّمه وعمّده في ماء جدول قريب، وبذلك أمّنا سماع كلمة الله في بلده. و لنا أخبار ممتازة من أنطاكيا أيضاً. فلقد نال برنابا وبولس استقبالاً حاراً في سوريا، وكلاهما يتلقيان طلبات كثيرة للانتماء من بين صفوف اليهود، ومنهم، على سبيل المثال، سمعان الملقب بالأسود، ولوسيوس القيرواني، ومناحيم شقيق الرضاعة لهيرودس أنطيباس.. وغيرهم من الدخلاء أو خائفي الله. ويتقاطر الوثنيون أنفسهم إلى المجمع عندما يعظ برنابا وبولس. ولكن المشكلة هي أثناء كسر الخبز: حيث يرفض بعض اليهود مقاسمة الطعام مع القلف، حتى وإن كانوا معمدين.

وبعد استعراض الوضع العام، كشف رئيس الرسل عن نيته في تسمية يعقوب على رأس كنيسة أورشليم مع سلطة وضع اليد. فأيدت الجماعة ذلك، لأن يعقوب كان

موضوع ثقة عند الجميع. وأعلن بطرس بعد هذا القرار سلسلة من البعثات الرسولية، يقود كلاً منها أحد الإخوة: هذه إلى آسيا، وأخرى نحو الجنوب، أما هو فسيزور مدن الساحل، ويتوجه إلى البنطس، وبيثينيا، ومقدونية، وأخائية، وروما. وتشنج البعض على ذكر اسم روما. ففنّد بطرس الاعتراض قائلاً:

- ينبغي أن تسمع المسكونة كلها بالوحي.

وختم مشيراً إلى أن الرب أوضح بواسطة أغابس أن علينا توقع قحط كبير في السنوات القادمة.

- سيسود الجوع إذا تزامن القحط مع فترة راحة الأرض. ولكننا سنعتمد على سخاء الجماعات التي لن ينالها القحط، كي تبادر إلى معونتنا.

لقد كان يعقوب موضوع ثقة الجميع، ولم يخطئ بطرس في تأييده. ولكن يعقوب الذي يتلازم الحزم والحدة عنده، كما عرفته، لم يستطع تأييد رئيس الرسل بسهولة عندما تعدّى هذا الأخير حرومات موسى وجالس غير المؤمنين على المائدة. وكان عليه بالأحرى أن يتحدى ذاته لقبول مطاليب بولس والموافقة على إمكانية منح عماد العهد الجديد للقلف دون إلزامهم بحمل إشارة العهد القديم. ما كنت أتجرأ على تصور الدمار الذي يمكن أن تحدثه هذه الانقسامات لدى إخوة أورشليم. لم يكن لا دوري، ولا من اختصاصي أن أنحاز إلى طرف ما، فاكتفيت بالتفكير ودق ناقوس الخطر. فقال البعض: من العدل والخلاصي أن تتسع خيمة الرب إلى أقاصي المسكونة وتستقبل كافة خلائق الأوحد، مهما كانت اختلافاتهم اللغوية، أو شرائعهم، أو أماكنهم. واعترض آخرون: في مثل هذه الحال ستقتلع خيمة أجدادنا، وتتعوّم رسالتنا. وهدد التيار بابتلاعنا قبل تحديد اتجاهنا، ووضع الوسائل الكفيلة لاحتوائه. لقد كان فعلة الطريقة والعاملون فيها يدعون جميع الأمم إلى إتباعهم، أما أنا فتساءلت كيف سيفعلون لضم هذه الجموع المدعوة فجأة إلى عشاء الرب.

وتساءل أحد الشمامسة أمامي بأي ثمن ستدفع التكاليف الإدارية للكنائس. ولم يكن يقصد ثقل المال حسب، بل ثمن الوقت خاصة، وعرق الجبين، والعمل الحثيث، والمسؤولية التي ستتطلبها مثل هذه المهمة لخدمة هذا العدد من النفوس. فالرسل أنفسهم تشتتوا، ولم يعد لهم الوقت للالتقاء للصلاة سوية، وكانوا غائبين عن كل مكان. وكان بطرس قد فكر منذ زمن بجمع مجمع يعبّر فيه الأساقفة والشيوخ عن أفكارهم: عدة أشهر لتهيئة اجتماع يستغرق عدة أيام!... لقد كانت حشود المؤمنين تحيط برفاق يسوع

كالماء الغامر، وتبعدهم مهام التبشير عن مركز الأسرة، حيث لم يعد ممكناً أن يروا وجه يسوع مجدداً، كما حصل مساء عماوس. وتفطّر قلبي عندما فكرت كيف انفتحت أحشائي في مغارة بيت لحم لتحرر هذا الابن الذي صار يقتلع جذور إسرائيل في أعقاب انتصاره بعد الصليب. يا لها من أحشاء ذابلة جعلت من راحتّي غطاء لها!

وكان زواج ابنة نيقوديمس حدثاً حقيقياً في تلك الأيام. وعمت الفرحة أعضاء مجلس الشيوخ الأعلى، والإكليروس، والوجهاء، والتجار، وحتى المحرومين، بالمشاركة من قريب أو بعيد في الاحتفال، فيتذوقوا حلاوته، أو يحصلوا على فوائد معينة. من سيدعى منا إلى العرس؟ لقد كان هذا السؤال في فكر الجميع، وكان كل واحد يتمنى في سره أن يكون في عداد المدعوين، حتى راعوث نفسها.

– فكري يا مريم.. شخصية كهذه.. أكبر تاجر يزوّج ابنته! يا لها من فرصة! والتاجر من أصدقائنا! يبدو أنهم دعوا مئة عازف، والعدد نفسه لصنع الحلوى لعشاء العرس؛ أما عدد الخرفان المطلوب شراؤها من أفضل الحضائر فلا يحصى، وكذلك الخدم، والعبيد الذين سيعتق نصفهم. وكثر الحديث عن مبلغ المهر: مليون دينار ذهب، يضيف إليه والد الختن سهماً آخر!.. أرجو ألا ينسى نيقوديمس مشاريع الجماعة.. عندما يقصد الهيكل، يفرشون سجادات تحت رجليه، فيلتقطها الفقراء بعد مروره...

ولئلا يصاب بالإحباط من لا ترده الدعوة، ويتحول الأحباط إلى حسد ضد المدعوين، قرر بطرس إرسال وفد مختار إلى الوليمة من بين الإخوة، ولكن مع توصية أن يتحاشوا الإسراف في الطعام والشراب، أو التأخر طويلاً. أما هو فامتنع عن الذهاب، واكتفى بتهنئة نيقوديمس عشية العرس، والتأكيد على صلاتنا من أجل نسله. فلا أحد ينكر ما أغدقه علينا، ولا ما فعله ليسوع. وطلب رئيس الرسل من المجلس أن يؤيد ما ارتآه.

وانتهز متى الفرصة ليسجل أقوال المسيح عن الزواج في كتابه الذي كان يشتغل فيه، وقرأ لي النص أمام خادمتي يهوديت التي لم تدع كلمة واحدة تفوتها. وقرأ بتمهل:

– وتقدم الفريسيون من يسوع وأرادوا أن ينصبوا له فخاً: "أيحق للرجل أن يطلق امرأته لكل علّة؟". فأجاب: "ألا تعلمون أن الخالق في البدء خلقهما ذكراً وأنثى، وقال: يترك الرجل أباه وأمه ويلزم زوجته، فكلاهما يمسيان جسداً واحداً. فلا يفرق الإنسان ما جمعه الله". واعترض الفريسيون قائلين: "فلماذا أَذِنَ موسى إذاً بإعطائها

كتاب طلاق فتُخلّى؟". أجاب يسوع: "لقساوة قلوبكم أذِنَ لكم موسى أن تطلقوا نساءكم، ولكن في البدء لم يكن هكذا. أقول لكم: إذا طلق أحد زوجته، إلا إذا كان الزواج غير شرعي، وتزوج بأخرى، زنى".

وبعد أن قرأ متى نصّه، طلب من يهوديت أن تعطي رأيها، فاحمرت وجنتاها كالقرمز خجلاً وهربت قائلة:

- كان رابي طيباً مع النساء.

عملت الجماعة إحصائيتها، فرأت أن عدد المؤمنين في ازدياد. أما أنا ففكرت في صديقاتي اللواتي فقدتُهن: شقيقات لعازر لا أثر لهن، فقد غادرتا بيت عنيا وتبعتا أخاهما إلى جهة مجهولة؛ راحيل بقيت في بابل، وبعد ترملها، تخلّت عن فكرة الحج؛ دبورة ضعفت قواها شيئاً فشيئاً. عن هلدا لم أعد أعرف شيئاً، سوى أن زوجها رافق أنطيباس في منفاه إلى بلاد غاليا، وهناك صارت تعيش ما وراء البحر الكبير، في بلاد العمالقة الشقر، حيث اختار هيرودس في زمانه حراسه، وقد استقر بعضهم في جوارنا. ومن هلدا جاءتنا رسالة واحدة تقول: "أريد أن أموت في أورشليم". وطمأنتني ميريام بقولها:

- إنها ستعود!

فلقد كانت ميريام وراعوث كلتاهما مستعدتين دوماً لخدمتي، وكانتا تتسابقان في مساعدتي كلما احتجت إليهما، وكنا نراقب سوية تغييرات الحياة التي لا تعود.

[...]

في الحقيقة صارت تتعبني تلك الاهتمامات الرقيقة التي يحيطونني بها وتحرجني في مواقفي... لأني لم أرد الأنقطاع عن الآخرين، والبقاء وحيدة في مواجهة نفسي، في الوقت الذي كانت اهتمامات أخرى كبرى تتفاعل في القلوب. إلى أين نحن ذاهبون، يا ترى؟ فقالت راعوث:

- أنا أيضاً يصيبني الدوار. شاول وجماعته يضعون الأيدي على القلف، ويعمدونهم، وقد فاق عددهم عدد اليهود. وتكلمت بالموضوع نفسه مع يعقوب، وشحب وجهه حالماً فاتحته.

فأوضح لي يوحنا:

- عليك أن تفهمي يا أماه. ان الوثنيين يُقبلون إلينا بأعداد كبيرة، ولا نستطيع إجبارهم على الختان. إن رؤيا بطرس هي علامة من الله.

– أجل، ولكني لا أستطيع نفي إصبع بولس في هذا الانتشار السريع للبشرى. كيف يتكلم مع الأمم عندما يبشرهم؟ هل يفكر، يا ترى، مثلنا؟

وسرعان ما لمت نفسي على هذه الشكوك. غير أن قساوة راعوث دفعتني وتجاوزتني.

– بولس يوناني أكثر مما هو يهودي، وروماني أكثر مما هو يوناني.

ولتوضيح فكرتها، حركت شفتيها قبل صياغة كلماتها.

– لم يقم بأي جهد للالتقاء بك، لتقديم التحية لأم المسيح، هذا المسيح الذي رآه في الطريق وهو ذاهب إلى دمشق. هل هذا تصرّف صحيح؟

لا شك. ولكنه لم يرافق ابني، ولا حضر محكمته، ولا رآه يتألم أو يموت. ولم يسأل عن طفولته، ولا عن أسرته، ولا عنا جميعاً.

– إنه يبشر بيسوع أجهله أنا!

فارتجف صوت راعوث:

– إنه يدعي معرفته أكثر من الاثني عشر. إنه أكثر فتكاً من سرب جراد يقتحم حقلاً من حقول الأوائل.

كيف يمكن تمييز الخير من الشر عندما يسير المرء على مستوى الأفق؟ إنه لا يرى، إذ ذاك، لا ما أمامه، ولا ما وراءه، ولا يميّز الماء الضحل من السيل، ولا الصخر من الوادي. ولكننا نرى الماضي عن طريق الذاكرة. أيلزمنا إذن أن نتوقف على مستوى طريق آبائنا، ولا نحيد عن خطاهم؟ ففي الجماعة تساؤلات كثيرة، ويتكدس القلق فوق الشك مما يجري.

وتابعنا حديثنا، أنا وراعوث، في ساحة النساء في الهيكل. وفجأة تركتني راعوث، ثم عادت مع يمامتين، وقالت:

– هذه عن خطيئتي.. قرباناً تعويضياً.

– يمامتان؟ ما هي الخطيئة الكبرى التي اقترفتها؟

– لقد تكلمت بالسوء عن بولس الترسوسي، وفكرت بأسوأ عنه. إنه يدعي بأن ابنك ظهر له، وكلمه. يا ليته تكلم بالحق!

– راعوث، عودي إلى البائع واشتري يمامتين أخريين، لأن هذه الخطيئة ستقترفينها مرات عديدة [...]

الفصل الثلاثون

حقل الأبرار

عادت الأيام السوداء، ودخل الشيطان في قلب أغريبا، وكما في أيام هيرودس أناخ صولجان آثم على حقل الأبرار. وألقي بطرس في السجن، ولم ينجُ إلا بفضل قوة دافعة مفاجئة فتحت باب زنزانته ليلاً، غير أن يعقوب الذي اعتقل معه أُطيح بحد السيف. وهكذا نواجه السر دائماً، لأن إلهنا قريب منا جداً، وله مخطّطاته.

– لقد نجا بطرس لأنه على رأس الكنيسة ونحن بحاجة إليه.

هكذا فهمت الجماعة الحدث. ولكننا لم نجد ما يسلّي يوحنا في ألمه العميق: إن مقتل أخيه حفر أخاديد الحزن في عينيه وحنجرته. وسال قلبي أسى، أنا أيضاً، على مرأى الكآبة التي أصابت التلميذ الحبيب على قلب ابني. وكانت دموعه دموعي، وعدت بالفكر إلى أقدام الصليب. وكان يردد:

– اليهود قتلوا أخي.

فيجيبه يعقوب الصغير:

– لقد خُدِعنا بشخصية أغريبا. إنه من هؤلاء الأمراء الذين يفتحون أفواههم نحو السماء، ويلحسون الأرض بألسنتهم.

وتنهد شمعون قائلاً:

– ماذا دهاه لينقضّ علينا. فلقد كانت الجليل واليهودية وبيريه والسامرة في قبضته، كما في أيام سليمان نفسه. إن دم يعقوب لن يذهب سدى.

فقلت ليوحنا:

– من حقك أن تعرف لماذا قُتِلَ يعقوب. اسأل نيقوديمس الذي هو عضو في المحكمة.

هل يجرؤ يوحنا على مساءلة نيقوديمس؟ ونيقوديمس هل يتجرأ على الجواب؟ وأخبرنا نيقوديمس نفسه بأنه سيزورنا، وقد أخبرنا بذلك عندما زودنا، عشية عيد المظال، بثلاث قفف من ورق اللبلاب، وكان ذلك بعد انقضاء أيام المأتم. إلا أن الذكرى كانت لا تزال تكوينا. فاضطرت سالومي التي صعدت إلى أورشليم لتشييع ابنها، أن تعود مسرعة إلى كفرناحوم حيث يرقد زوجها زَبْدَيْ على شفى الموت. لقد حاولتُ التملص من هذا اللقاء، ولكن يوحنا ألحّ بأن أكون حاضرة.

دخل نيقوديمس برفقة ختنه وابنته، وكان معنا برنابا وتيطس رفيقا بولس. وما أن رآني نيقوديمس حتى اقترب لتحيتي. لقد مرّ زمن طويل منذ لقائي الأخير بالرجل، فألفيته قد كبر، ولكنه لا زال محتفظاً بكل أناقته الخارجية: شعر مصبوغ وممشط بعناية، ثوب منسوج بذوق، والنظرات أميرية. وكثيراً ما التفت نحوي أثناء الحديث، وكأنه يعبّر عن اهتمامه بالأم، بذات الإباء الذي كان يكنّه للابن.

وكان أول سؤال له عما نعرفه من ظروف مقتل يعقوب. في الحقيقة، كانت مشاعرنا تهمّه. فقال يوحنا:

– لقد فرض على أخي عقاب المتمردين. فقد ذهب بحد السيف، وليس بالرجم كاسطيفانوس. مع أن يعقوب لم يكن متمرداً، بل من أتباع يسوع. أفما وجد رجلان ليشهدا على ذلك؟

فاعتذر نيقوديمس:

– لم أحضر الدعوى، إذ كنت غائباً عن المدينة.

وأمسك بطرس بيد يوحنا الذي تحفز للرد بعنف فاستطرد نيقوديمس:

– لقد أراد أغريبا أن يعطي درساً بضربه كنيستكم. ولكي يرسخ أقدامه في السلطة، يحتاج لا إلى التعاون مع المحتل حسب، بل إلى استلطاف الكهنة، والوجهاء، والفريسيين، وكل هؤلاء الذين لهم وزنهم في المدينة. واعتقد أيضاً (وهنا أخذ أنفاسه)، وأعتقد أيضاً أن عودة المسيح، كما يرجو مؤمنوكم، والمناداة بمملكة ليست مملكته، قد ساهمت في إسخاطه. إنه لم يفهم شيئاً.

– لماذا لم يشرح له أحد ذلك؟

الشاب البرئ الذي ألقى هذا السؤال تمنى لو بلعته الأرض. ولكن نيقـــوديمس، عوض أن يبتسم من خجله، بادره قائلاً:

– ليس من السهل دوماً أن تفهم ما قاله يسوع. أنا نفسي، لم أفهم قوله عندما قال لي يوماً إذا لم يولد أحد من جديد، لا يخلص. كان رابي يتكلم بأمثلة، ويميز بـــين الحرف والروح. على كل حال لقد هزّ الضمائر والمؤسسات، وهذا لا يقبل بـــه ملـــك يتمسك بمملكته. ثم...

وتردد نيقوديمس في استكمال حديثه، غير أن يعقوب الصغير اســـتلم العبـــارة ليكملها:

– ... ثم هناك عماد الوثنيين!

– هذا ما أردت قوله. إن المجيء بالأمم إلى الأوحد جزء من رسالة إســـرائيل، ولكن باسم التوراة، لا باسم يسوع. أترون، ليست الشريعة هي السبب، فأنتم، علـــى الأقل، تحترمونها في أورشليم. ان ما يشكك هو أنكم تضعون فوقها شـــيئاً أو شخصـــاً آخر.

ثم غيّر الموضوع بغتةً، كما غيّر من نبرة صوته:

– لكم بولس الترسوسي الذي تحوّل من فريسي إلى رسول. أنا معجب بثقتـــه بنفسه وبنجاحه، وهو لا يهاب شيئاً ولا أحداً. فأنا ذاتي قصدت المعلم خفية، ليلاً. أما هو فقد لاقاه وجهاً لوجه في وضح النهار. رابي تكلم معي بتوريات مبطنة، ومع بولس كشف عن نفسه علناً.

كان اعتراف نيقوديمس مشوباً بالحزن، ولربما بشيء من التحدي، وتأكد لي في تلك اللحظة أنه أحب يسوع. فتدخل بطرس وقال:

– أنا أفهم فكرتك يا نيقوديمس. لقد توجب علينا كثير من التواضـــع لقبـــول بولس في صفوفنا: أترى أن صراحتي تصدي لصراحتك، وإذا أردت الحديث عن بولس، فأنا مستعد. بولس يعود إلى جدنا إبراهيم أبي أجيال كثيرة، هذا الذي به تتبارك جميـــع الأمم. وهو يعلن اسمه لليهود وللوثنيين على حد سواء. فإبراهيم آمن، وإيمانه وحده كان كافياً لخلاصه.

فأيد برنابا رفيق بولس كلام بطرس.

– إن إيمان القلب يقود إلى برارة القدوس. وعندما يطبّق الوثنيون ما تأمر بـــه الشريعة، فإنهم يبرهنون على أن قلوبهم تقبل الشريعة.

– ومع ذلك فقد ميّزنا موسى وفَصَلنا عن سائر الناس، وتسلّم وحي الشريعة، وهذا لم يُعْطَ لسوانا.

وقمت لأشعل القنديل. فلمع ثوب ابنة نيقوديمس بضياء ذهبي وفضي. ودخل متى، فقدمه يعقوب الصغير:

– أقدم لك كاتبنا.

رفض متى المقعد المقدَّم له، إذ استيقظ فيه العشّار القديم أمام هـذا الوجيـه. وانقطع الحديث، ونهض نيقوديمس للمغادرة. ولكن برنابا أصرّ أن تكون الكلمة الأخيرة له:

– كل من يؤمن بالمسيح، يهودياً كان أم أممياً، له الحق في بنوّة إبراهيم.

المسيح هو يسوع ابني. فلقد تكلم برنابا كما يتكلم يوناني. وعنـدما غادرنـا نيقوديمس سمعت رئيس الرسل يقول:

– هذه المجادلات لا ينبغي أن تزعزع إيماننا. لقد حان الأوان أن نعمل لتوحيد النفوس. وهذه الوحدة ستبنيها هيئة الجماعة كلها.

واقتبل عزرا ابن دبورة وضع اليد والعماد، قبل أن ترقد وتنضـم والدتـه إلى آبائها. وبما أنه كان يتردد كثيراً علينا، لم يحتج إلى تنشئة خاصة للاستعداد، بل اكتفـى ببضعة أيام من الصوم والصلاة. وتعيّن موقع الغطس في نهر الأردن، قريباً مـن المكـان الذي كان يوحنا يعمد فيه، واختير احد الإخوة ليكون قريباً له، ويتكفل بالاستعدادات اللازمة. [...]

لقد أصابني الغم عندما غادرنا عزرا ورفاقه. فلقد زلّت قدماي قبل أيام في درج الرواق الملكي في الهيكل وجرحت ركبتي. وكانت يهوديت خادمتي الشابة تبذل قصارى جهدها للعناية بي، كما كانت فتيات الجماعة يتسابقن للحظوة في جلب الطعام لي؛ أما أنا فكنت آسفة لمضاعفة عمل الآخرين بسببي مع بقائي عاجزة عن مساعدتهم. [...]

مرت شهور منذ موت يعقوب، وفكر أغريبا لردح من الزمن أنـه خالـد لا يموت. فقد ظهر يوماً على المنصة في قيصرية أمام السفراء متشحاً بحلة لامعـة، فهتـف الجمهور له وكأنه إله. ومرة أخرى أراد إحياء الليل في أورشليم ببهاء عجرفتـه، فـأمر بإنارة الفضاء بمشاعل لا تحصى، وبتشنيف ساحات المدينة بالأغاني، وبتقديم الشـراب للجميع، وبمضاعفة عدد الذبائح. وكانت الجماهير تستعرض بهجتها بالملك في الساحات

العامة، وتحتفل بتقواه المزعومة التي يضاعفها بتواضع لا يملك شيئاً منه. فلقد سمعه الناس يتلو هذه الصلاة:

- تذكر يا آدوناي ربي وإلهي ما فعلتُه لشعبك، وأضفه إلى رصيدي.

ثم أصعد زفيراً، وقبل أن يسقط وتندلق أمعاؤه، قال في حشرجة:

- لقد أفرطت في السعادة!

[...]

وتعافيت تدريجياً وصرت أكيل الخطى في غرفتي، وكانت يهوديت تقدم لي ذراعها وترغمني على السير، أما راعوث وميريام فكانتا تضعان لي فطائر الزيت والخمر، بالتناوب مع فطائر العسل، مرتين في النهار. ورفضت عطر اليهودية الذي يعدّه الرومان، لأنه غالي الثمن وثقيل على ميزانيتنا. على كل حال كان جرحي يلتئم، وعزلتي تتسع.

وجاء نيسان! وابتدأ الحجاج بالوصول، وتحديداً أولئك الذين يتمكنون من دفع أجور إقامة طويلة في المدينة المقدسة. وحرّضَنا رئيس الكنيسة، قبل سفره الطويل في مهمته البعيدة، أن نشترك في كافة الاحتفالات مرفوعي الرأس. لقد كانت حقاً هذه سياستنا، ولكن إخواننا اليهود كانوا يحدّون ألسنتهم ضدنا، أكثر فأكثر، ويرفعونها أمام أنف الوالي، لكي يترل علينا عقابه حال وقوع أدنى حادثة. إن أسنانهم كالسهام التي تبغي اختراقنا. لماذا هذا الحقد وأرجلنا لا تغادر دروب الشريعة؟ هل سيستمع الوالي الجديد إلى شكاواهم ضدنا؟ لقد عاد الخوف إلينا، فصار يوحنا يستذكر يعقوب، واسطيفانوس، ويسوع... عشرون سنة...

- أجل عشرون سنة...

- لقد تخلى عن فكرة المشاركة في العيد، لكنه عاد فأتى سراً. وأعلن رحيله للحاضرين. أنا سمعته.

- وأعلن عودته أيضاً...

- لقد قال بأن الفرح سيغلب المحنة، وبأن هذا الفرح لن يترع. وأضاف انه سيعدّ مكاناً لكل واحد حيث سيذهب.

- مكان لأخيك يعقوب.

- مكان لك يا أماه.. أجمل مكان. وهتف في ذلك المساء، عندما خيّم الليل، واستنارت ساحة الهيكل:

"أنا نور العالم".

وعند بركة شيلوحا أعلن:

"من كان عطشان، فليأت إليّ".

أنا عطشى، والعمر يطول بي. فأمسك يوحنا بيدي.. عشرون سنة مضت...!

ومما زاد من حدة المحنة، انحباس السماء عن الأمطار، كما في أيام إيليا. فآذار لم يحمل معه شيئاً من نسائمه الباردة التي تفتح أسرار الخصوبة المباركة في مثل هذه الفترة من السنة. فَشَحّ الماء، وجفّ كل شيء، من دم الذبائح على رخام المقدس حتى وحل الساقية، وتربة البساتين والحقول. وهزلت الماشية وتصاعدت أثمانها، وكادت لا تملك سوى القرون والشعر، ففضّل الحجاج أكلها قبل تقدمتها ذبائح. وكانت السنة التالية سنة سبتية، لا تعطي فيها الأرض ثمارها. وتحققنا أن أغابس صدق في ما قال: سنعرف الجوع! [...]

وجاءنا المدد الأكبر والعون الضروري والأساسي من كنيسة أنطاكيا، تماماً كما توقع بطرس. إذ تنادى المؤمنون واشتركوا في إسعافنا بالحبوب والزيتون بما يكفي لإقامتنا مدة شهر. ثم من بعدها أرسلت لنا كنيسة قورنثية وكنيسة أفسس مبعوثاً يحمل معه شحنة أكثر سخاء. واقتفت خطاهما جماعات أخرى. وهكذا أنقذنا أصدقاء بولس المنتشرون حول سواحل البحر الكبير، وظهر بذلك أمام أعيننا هذا العون الآتي من بعيد، والمعبّر عن تيار قوي من التضامن الذي يصنعه الإيمان. حقاً كان بولس على حق حين قال: الإيمان ينتقل من نصر إلى نصر في كافة الأقاليم.

[...]

الفصل الحادي والثلاثون

حصاد البواكير

كلا، لم نشارك بشيء، فالجوع لم يجمع حول مائدتنا سوى أصحابنا. أما في أيام كاليغولا، فقد جمعت المحنة كافة اليهود.

وأهدانا شهر مارشفان شتاء ماطراً جدد الأرض بسيول أمطاره. وتدافعت الرعود تترى على سقوف المدينة، وغمرت الأسطحة، وأغرقت الأفنية، وعبأت الصهاريج، بينما غسلت الزخات الغزيرة الشوارع والساحات الملوثة برواسب أعياد الخريف. وشربت الأرض مياه عام كامل، قبل أن تظهر الشمس. وأنبت الخالق الشعير في الربيع التالي، وازدهت التلال بحقول الحنطة استعداداً لحصاد البواكير. ولما شعر الشعب بأن خطاياه قد غفرت، شرع يحصي موتاه، ويعبئ سراديبه. وانتصر الرجاء في سماء واسعة صافية.

لم تلاق البواكير مثل هذا الحماس أبداً. فلقد كانت العربات القادمة من الأطراف تستقبل بالأهازيج على طول الطريق، وكأنها غنائم حرب، وكان الفلاحون يعوضون باليد اليمنى ما احتفظت به اليسرى، في سبيل مصالحة الرب. وذكرتني بواكير اليهودية ببواكير الجليل في زمن طفولتي، وببواكير العهد الجديد، قبل عشرين سنة، عندما حلّ الروح القدس في هذا العيد ذاته على التلاميذ وفتح ألسنتهم. واندفع الخبازون لإعداد خبز التقادم، وعاد البائعون الجوالون يعرضون فطائرهم المغموسة بالزيت، ويصيحون بملء حناجرهم لبيع جرادهم المملّح، وزلابيتهم، ولوزهم، وحلواهم الوردية والخضراء. ولم يتشكى من الوضع الجديد سوى بائعي الماء... [...]

ولكن الشبع الذي يسكت الجوع والعطش، لا يطرد الشر من قلب البشر. فالاحتقار المتبادل الدائم بين الرومان واليهود شحذ سكاكينه. كما أن الصدام بين اليهود والمسيحيين كان عميقاً ومؤلماً أيضاً وإن لم يظهر دائماً. من جانب آخر تترك كل مجاعة وراءها استحقاقات تتطلب الحسم، مثل: الاختلاس، الوشاية، الحسد، الخداع.. ولقد تجاوزت الحالات قدرات المجلس الأعلى. وحاول الوالي فرض سلام هشّ أو شبه عدالة، بكل الوسائل المتناقضة، ولكن دون جدوى. وغالباً ما طرد الخصوم جميعا من أمام وجهه. وهبّ إلى خزن المؤن في سراديب قلعة أنطونيا، خوفاً من الغيارى الذين انتشروا في الريف، وازداد خطرهم، وذلك تحسباً من حصار عسكري للمدينة، كما خزن السلاح لمعركة قادمة. متى سيعود يسوع لإعادة النظام؟

عاد الإبحار على البحر الكبير ممكناً بفضل الرياح الملائمة، وكنت آمل أن يعود بطرس في الوقت المناسب لإعداد المجمع، فلقد كان حضوره ضرورياً. كما كان ينبغي أن يأتي بولس أيضاً لتفسير أحداث أنطاكيا بسيديا. فلقد هاج الجمع عليه وعلى برنابا عندما هتف باليهود:

- بما أنكم ترفضون كلمة الرب، وتحكمون على أنفسكم أنكم لا تستحقون الحياة الأبدية، فها نحن ذاهبون إلى الوثنيين.

وكانت النساء أول من امتعضن من هذا الكلام، فهنّ لا يتجاسرن قط على تغيير حرف واحد من الشريعة، وها هوذا رجل يهودي، يوناني، ومواطن روماني يقول لهن بأن التعامل مع الوثنيين مباح!... ونقلت لي راعوث:

- في لسترة، وسط المدينة الوثنية، شفى بولس رجلاً لم يمش قط. وما إن فعل ذلك حتى اعتبره الجمهور الإله هرمز، واعتبروا برنابا الإله زفس، حتى أتوا بثور ليقدموه ذبيحة لهما. بولس، يا له من عامل رائع! تذكري المثل القائل: حبة الحنطة إذا وقعت في الأرض الجيدة، ولم يخنقها الزؤان، ولا أكلتها العصافير، تنمو نمواً جيداً. فبولس يبذر، ويزكي، ويطرد العصافير في آن واحد. إنه يحصد بسرعة، من دون التفكير بخزن الغلّة كلها. والفلاحون الجيدون يدَعون الأرض ترتاح، ويرتاحون هم أنفسهم.. فقالت ميريام:

- لعلّ هذا ما سيقرره المجمع.

- أنا خائفة ألاّ يجري العكس. فقد سمعت أن يوحنا ذاهب إلى أفسس، وأنت معه.

- أنت تحلمين يا راعوث. ماذا سأفعل في أفسس؟

ومع ذلك استفسرت عن النبأ. وعلمت أن في أفسس هيكلا وثنيا لعبادة أرطميس، آلهة الخصوبة، وأفسس مدينة حج ذات أخلاقية منحلة، ويسكنها تجار أغنياء. وإذا قرر الرسل أن يحملوا إليها البشرى السارة، فلن أكون سوى عائق وعبء إلى جانبهم. هل تراهم يحاولون إنقاذي من خطر يداهمنا بهذه الهجرة؟ جهد لا معنى له: أليس لي الحق أن أموت حيث مات ابني. لقد اختار الرب أورشليم مسكناً له، وستكون موضع راحته دائماً.

الفصل الثاني والثلاثون

مجمع أورشليم

وصل بولس في الوقت المحدد، وتلاه بطرس حالاً. ثم أقبل الشمامسة، والشيوخ، ورؤساء الجماعات من الجليل من عبر الأردن، واجتمع خلق كبير. وبالطبع، لم تشترك أية من النسوة في الجلسات، ولكنهن كن يخدمن الموائد، وينصتن، ويلقين أحياناً كلمة هنا وكلمة هناك.

وعقدت الجلسات في دار أم يوحنا-مرقس التي قدمت قاعتها الكبرى. وكان المشاركون يستمرون في المناقشات ضمن لقاءات جانبية بعد الجلسات العامة، أو ينتشرون في المدينة. واستغرق اللقاء أسبوعاً كاملاً.

لن أتوقف عند هذا التيار العليل الذي اجتاح الجماعة بين بابين، أعني به شاول، الذي صاروا يلقبونه بالرسول بولس. لقد كنت خائفة منه، قبل لقائه، كصبية من صبايا الناصرة وأنا أترقب أن أرى بيننا رجلاً بهذه الشهرة، وأن نسمع هذا الصوت الذي يعظ الوثنيين بقوة، ونشاهد هذه العيون التي تتقد حماساً ضد خصومنا، ونتشرف بخدمته وتقديم الطعام له. لم أكن المرأة الوحيدة في هذا الترقب، بل كان ثمة رجال كثيرون في مثل حالي. فقالت راعوث:

- يجب أن يكون كل شيء على ما يرام، كي يرى يهود الشتات كيف هن نساء أورشليم. فليست الأمهات والعذارى والزوجات عندنا كعاهرات المدن الوثنية.

وكانت تفكر ببولس وبرنابا، من دون لفظ اسميهما. فعدّلت من كلامها:

– ولكنهم سبقوا أن رأوا فتياتنا. لقد عاشوا هنا: فبرنابا هو لاوي قديم، وكان بولس تلميذاً لجملائيل.

وانتبهنا إلى سلامة ثيابنا وخمارنا وإلى نظافتها ودقة هندامنا، وأوصينا الصبايا بأناقة شعرهن.

– لا للعقاصات والدبابيس، نعم للشرائط. ولكن ليكن كل شيء بسيطاً لربط الشعر، ولا تدعن شيئاً ليوم السبت.

أما العطور فتخلينا عنها، وإن احتفظنا بقارورة من الدارسين ذي الرائحة القوية الممزوجة بالكافور، وخصصناها لمناسبة فرح خارق العادة لم يأت بعد. أما الناردين الغالي الثمن الذي سكبته الخاطئة على أقدام ابني فقد نفذ منذ حينه.

وأرسل لنا أهل الرسول فيليبس من بيت صيدا، وأهل بطرس من كفرناحوم، قففاً من السمك المجفف، وجاءنا من النقب مسحوق الجراد كتوابل توضع فوق الفطائر؛ وكانت لنا كميات احتياطية دوماً من البقول اليابسة. وكان المؤمنون البسطاء يجلبون الخضراوات من بساتينهم، مع حفنة زيتون، أو لوز، أو جوز، وقدّم الميسورون لنا الدقيق والخمر الحلو لمائدة الرب. وفي الوقت الضائع أرسل لنا أصدقاء بولس خرافاً وجداءَ بأعداد كبيرة، يا للمفاجأة! فقد اضطررنا إلى إيوائها في حضائر البيوت المجاورة قبل تقديمها قرابين سلامية.

جلس يهود اليونان الذين بهرتنا حذاقتهم، ويهود سوريا المحسودون على ثرواتهم، ويهود ترسوس الذين يثار الحذر حواليهم، وأولئك القادمون من بابل البعيدة، والمصريون المترفعون.. جلس كل هؤلاء جنباً إلى جنب على المائدة ذاتها، مائدتنا. ولقد حرصنا أن نبرهن بأننا، نحن أيضاً، في اليهودية، نملك لساناً مذواقاً، كغيرنا، وبأن اللياقات الاجتماعية عندنا تضاهي ما عند الأمميين الأكثر أناقة، وبأننا منفتحون نحن أيضاً، وإن بصورة تختلف عن غيرنا، وبأننا نحسن الاستقبال دون تظاهر، وهذه هي قمة النبل. فالضيافة عندنا قاعدة، والوقار وصية.

– لنعد إلى الأجاجين للغسولات، كي يستطيع ضيوفنا الترويح عن أنفسهم.

هذه كانت توجيهاتي الأولى لاستقبال القادمين الجدد. فلقد هرع إخوة أورشليم إلى شد مآزر على احقائهم إقتداء بما عمل يسوع لغسل أرجل تلاميذه. وبادر بطرس أول الكل إلى ذلك ليعطي المثل، ولكنه لما كان ينحني بصعوبة، كان يوحنا يناوله المنديل.

ودفعتني عفويتي أبعد من مقاصدي، فكنت طوال ذلك الأسبوع العظيم أراقب هذا وذاك، وخاصة بولس. ولقد سهّل لي مهمتي عدم اكتراثه! هل سيذهب إلى الهيكل؟ -نعم، لقد ذهب. كم مرة في النهار؟- مرتين. لماذا لم يذهب ثلاث مرات كسائر الناس؟ أتراه يهمل وضع العصابة والوشاح للصلاة؟ كلا، لم ينسهما، فوشاحه كان بين أمتعته. ولقد فكر في جلب إحدى هذه الخيم التي ينسجها، هدية، مما ضاعف همومه أثناء السفر. لم تكن قامته طويلة، ولكنه كان مؤدباً، حيث ينتظر أن يوضع الطعام أمام الآخرين، ومن ثم يمد يده، وكان آخر من يترك المائدة. والتمست نعمة من الله كي أحبه...

كما صليت أن يكون زوارنا في أمان، فيا لها من فرصة لو أراد خصومنا اغتيال الجماعة! ذلك أن كل رؤساء الكنيسة كانوا تحت رحمتهم. فلاحظت راعوث:

- لبولس أصدقاء متنفذون في كل مكان. وهو مواطن روماني، وبوسعه أن يستنجد بالإمبراطور متى شاء. وإذا ألقي القبض عليه لن يُجلَد ولن يُضرب.

- أجل، بالنسبة إليه.. ولكن.. ماذا من الآخرين؟

فاقتنعت ميريام وأجابت:

- عليه أن يكون في متناول الجميع، عليه أن يجتهد للتقرب منهم. لينذر نذر النزير، مثلاً. من سيقترح عليه ذلك؟ أتفعلين هذا، يا مريم؟

- يا للدعابة...!

- خوفي ألا يفرقنا المجمع، عوض أن يجمعنا.

كانت تلك فكرة ثابتة عند راعوث، وعندي أيضاً. فلقد كان الإخوة يعودون من الاجتماعات في حالة إعياء، وعازفين عن الحديث، ثم يعودون في اليوم التالي متثاقلي الخطى. وظهرت علامات انقسام شديد في إحدى الليالي، ولكن، الحمد لله، تلاشى الخلاف مع ضباب الصباح. فظهر برنابا كعامل للمصالحة، وبولس نفسه اجتهد في ألا يجرح أحداً، بل قد تصالح مع يوحنا-مرقس ابن البيت، الذي كان قد تشاجر معه منذ مدة. وسرد بطرس كلمات يسوع القائل: "أنتم نور الأمم، وتحملون الخلاص إلى أقاصي الأرض". ثم تحدث عن ختان القلب.

ووصل لوقا في ذلك الصباح، ففتحت ذراعي لهذا الطبيب الأنطاكي الشاب اليوناني الذي اقتبل العماد. إن الصبي الفضولي الذي كان يريد معرفة كل شيء عن

يسوع الطفل أصبح اليوم بالغاً، ومسيحياً، وعالماً [...]. فدعوت راعوث وقدمت لها الفتى الذي كبر، وقد أعطيته منذ زمنٍ بعيد منّ الحقيقة، من خلال تلك الأحاديث. ان الزمن يفعل فعله، ويتغلغل في باطن الأمور الخفية. هكذا سيظهر يوماً ما قيل لنا في المجمع، وبدا غامضاً لأول وهلة. فقال لوقا:

- سأساهم في ذلك.

وكانت نظرات الإعجاب تعبّر عن ارتياحي من حُكمي الصائب في قيمة هذا الصبي الذي أمطرني بكل تلك الأسئلة عن ابني.

- أنت فضولي، يا لوقا، حول تفاصيل حياة يسوع، بعكس الرسول بولس. هكذا كنتَ منذ أن حاولتُ أن أقص عليك الحوادث التي بوسعها أن تؤثر فيك، واليوم أرى أني قد نجحت معك.

ثم دفعت بطبيبي الشاب الذي يعمل لشفاء الأجساد، أن يعنى بشفاء النفوس أيضاً. ووضعت رجائي فيه، كي يساعد التلاميذ الجدد على التقاط ذكريات الذين عرفوا ابني، على غرار رائدهم متى، لتجتاز شهادتهم الزمن، وتثبت إيمان الأجيال القادمة. ليس على طريقة بولس بالمواعظ والتوجيهات، بل بقصص بسيطة تلتهمها الذاكرة. لقد ألهمتني رؤيتي لصغيري لوقا المهتدي عهداً جديداً يكتبه، ففي ذلك الزمان لم يكن لي غيره لأفتح له قلبي. فالتلاميذ مأخوذون بشؤون الجماعة الناشئة، ومنشغلون حتى النخاع بالعمل الواجب إنجازه، أو بالمزالق الواجب اجتنابها. [...]. أما في ما يخصني، فأنا عالمة بأن ابني جالس عن يمين الآب، وإني ذاهبة للانضمام إليه. أما الآخرون، إذا هاجروا، فأجدادهم أيضاً يغادرون الأرض الموعود بها معهم، ويتوجهون إلى عالم غريب. فأنت يا لوقا، يا من تعرف الأمميين، قل لي ما هي طبيعة هؤلاء الناس؟

لقد ألقيت السؤال نفسه يوماً على ابن إلياهود. وكان ذلك في زمن يسوع. فحدثني آنذاك عن رعشة تحرك الكون كله في انتظار المخلص. إني لم أشك يوماً أن بين الوثنيين أبرارا أيضاً.

- ولكن كيف يقطع هؤلاء الأبرار في يوم واحد مسافةً لزمنا نحن ألفا سنة لمعرفة الأوحد؟

- ثقي يا أماه، إن كثيراً منهم أخذوا الطريق نحوه. لأن سماءهم التقليدية تعج بالآلهة العاجزة عن تخفيف أي بؤس، أو تفسير أي سرّ. لقد عرفت شيئاً من ذلك، أنا الذي عانيت من هذه الحالة، وأقبلت إلى يسوع لأجد تعليم الكتاب وفيض الحب معاً،

فلا أخلط بعدُ بين الخالق والمخلوق. إن عدد الوثنيين الذين يلقون على أنفسهم هذا السؤال القاسي حول البداية والنهاية، لا يُحصى، ويتساءلون حول ما سبق الزمن وما يلحقه. لقد كان عددهم كتائب، فأصبحوا اليوم جيشاً: فقراء وأغنياء، عبيد ومقتدرون، جهلة وعلماء، رومان ويونانيون ومصريون وبرابرة.. ها هم كلهم على الطريق، بانتظار الالتقاء بإله يبحث عنهم، وليس بإله يسحقهم. أما بولس فأراقبه وأسمعه. إنه الدليل والغازي، إنه صياد لا تخطئ قوسه الهدف.

- يا لوقا، إن الوقت يدركنا، ولن نكون معاً لزمن طويل. قريباً ستعود إلى مهامك، وترافق الصياد، وتشاركه نصره. أعرف ان هذا النصر سيكون عاتياً، ولكني واثقة من شجاعتك. فكر في توثيق ما سيتم باسم يسوع، لأن هذا التوثيق سيكون أداة للفتوحات المقبلة. قلبي معك. وبانتظار الغد، لنصلّ من أجل اليوم. ليحلب المجمع الذي يجمع الإخوة في المدينة المقدسة الوحدة لهم. إن ما تبقى من أيامي يتوق إلى الوئام، كما تتوق الصحراء إلى المطر.

ودخل يوحنا:

- عطري المكان يا أماه، فالأخوة توصلوا إلى الاتفاق. لقد اعترفوا بعماد القلف. فبطرس، وليس بولس، هو الذي طالب بباكورة القرار. ويعقوب سرد قول الأنبياء: "سأرفع خيمة داود الساقطة، ليجد بقية الناس الرب مع كافة الأمم...". ولقد ختمت الكلمة الأخيرة في وثيقة موجهة إلى المؤمنين في الكنائس بهذه العبارات: "من إخوتكم الرسل، والشيوخ، والإخوة، إلى الإخوة المهتدين من الأمم في أنطاكيا، وسوريا، وكيليكية... سلام. لقد بلغنا أن جماعة منا، لم نوكلهم بأية مهمة، وقد زرعوا البلبلة بينكم بكلام بعث القلق في نفوسكم. لذا حسُنَ لدينا بالإجماع، أن نختار إخوة ونرسلهم إليكم مع حبيبينا برنابا وبولس اللذين عرّضا حياتيهما من أجل اسم ربنا يسوع المسيح. فلقد أوفدنا إليكم يهوذا وسيلاس ليبلّغاكم الأمور نفسها مشافهة. فقد حَسُنَ لدى الروح القدس ولدينا ألا تُلقى أعباء سوى ما لا بدّ منهُ وهو اجتناب ذبائح الأصنام، والدم، والمخنوق، والزنا، فإذا احترزتم من هذه الأشياء، حسناً تفعلون. ودمتم. عافاكم الله".

- والسبت، يا يوحنا؟ لقد نسوه. مع ذلك، لا أهمية لذلك!

[...]

الخاتمة

أكيلا وبريسكّلا

أكيلا وبريسكلا يهوديان من البنطس كانا يعيشان في روما عندما صدر بيان كلوديوس بطرد اليهود منها. وتعرفا في قورنثية، حيث وجدا اللجوء، على بولس عندما جاء إلى المدينة للتبشير، إذ كانا من مهنته، ومثله كانا صانعي خيم. ومن قورنثية انطلقا إلى أفسس مع الرسول، وقد أصبحا رسولين متحمسين معه. وانهما يقومان بالحج بصورة مستمرة، ليس لكونهما ملزمين، لأن العماد حررهما منه، وإنما احتراماً للتقاليد. أما رفيقتهما أونيكيا، فهي ابنة صائغ من مدينة أفسس الآسيوية. وقد تحمست هذه الصبية لوعظ بولس، وغادرت المنزل العائلي في يوم من الأيام وانطلقت لتتعرّف على البلد الذي عاش فيه المخلص. فقال يوحنا:

– جرأة لا نجدها لدى فتاة من عندنا. لاشك أن لليونانيين عادات غريبة، ولا يهابون البحر.

لقد حفظ الرب أصدقاءنا، فوصلوا بالسلامة إلى بتوليماس بعد إبحار هادئ نسبياً، وإن لم يخل من مشاكل، وذلك بسبب كثرة الحجاج الذين حملتهم سفينتهم. وهاهم بيننا.

وقصّت لي راعوث المتحفزة لالتقاط الأخبار دائما:

– اسمعي ما قالته أونيكيا عن بولس: "إنه قصير القامة، ولكن كلامه يطوّل قامته ويجعل منه عملاقاً؛ إنه قبيح المنظر، ولكنه يصبح رائعاً عندما يعظ". وكانت تلحقه

في أفسس حيثما ذهب: في المجمع حيث لم تدخل قط من قبل؛ في مدرسة البلاغة عند تيرانوس، أشهر متحدث في المدينة؛ في وسط الآغورا، أي الأسواق العامة، وحتى على شرفات المسرح. ولقد صرّحت: "عقلي وقلبي اتفقا مع الحقيقة التي يعلنها، وقد هيّئاني لاستقبالها". عقلها وقلبها!.. إن لهذه اليونانية الصغيرة كلمات يتردد معلمونا أنفسهم على التلفظ بها...

وطلبت أونيكيا أن تزورني، فأذنت لها استثناءً، أنا التي لا أستقبل أحداً. فطلبت إلى يهوديت أن تعدّ طبقاً من الحلوى والمرطبات، وأضفت إليها من ثمار الموسم. رتبت غرفتي، وكسوت سريري بالبساط الصوفي الذي أهدته لي نساء الجماعة. فاستغربت ميريام:

- لماذا كل هذه الحركة؟ فتاة يونانية اقتبلت العماد.. ما أكثرهن اليوم!

أجل. ومع ذلك فالرؤية ليست كالسماع. لقد ولدت هذه الطفلة في مدينة أرطميس، وأودّ أن أتحقق ما إذا أدارت ظهرها حقاً للأصنام. ولا أنكر أن شيئاً من الفضول حركني أيضاً...

وارتبكت بالأكثر عندما اقتربت أونيكيا مني، وبادرتني بالسلام، لا بعبارة شالوم التي همستها بريسكلا في أذنها، بل بهذه الكلمات الآتية من بعيد:

- مباركة أنت في النساء.

وعندما أحست أونيكيا بارتباكي، ارتبكت هي أيضاً. وقد قالت لي بريسكلا بعد اللقاء:

- اللقاء صعب عليها هي أيضاً، فكل شيء جديد عليها. لنضع أنفسنا في محلها.

ولكن شعوراً من التعاطف المتبادل مسح كل خجلها. ففقزت إلى فكري فجأة صورة هلدا وحماسها في شبابها. فشكرت بريسكلا:

- إن صديقتك الشابة تستحق محبتنا حقاً.

وما إن أخذت الثقة أونيكيا حتى فتحت قلبها، منساقة بعفويتها الطبيعية. إنها تحب الألعاب، والرقص، والموسيقى، وكانت ترتاد في أفسس جهراً هذه العصابات من الشباب والفتيات من سنها، الذين يذرعون الشوارع، حتى سقوط الليل. لقد نشأت في مدينة وثنية كبيرة ذات أخلاق منفلتة، أما أنا فولدت يهودية في كنف نير الشريعة. والمعجزة هي أن نستطيع اليوم أن نحب بعضنا رغم ذلك.

لقد استبدلت أونيكيا ثوبها الحريري ورداءها المطرز بثوب من صوف حبرون، وعقصت شعرها وغطته بخمار مقلّم، فبدت يهودية حقيقية. وهكذا غيرت هيئتها أم يوحنا-مرقس التي تستضيفها، لكي تستطيع أن تتحول في الشوارع بحريتها. فاستأنستُ الوضع كما استأنستْه هي أيضاً. وكانت الكلمات الآرامية التي تعلمتها تكفيها للتفاهم، وإن كان الناطقون باليونانية في مثل أيام الحج هذه كثيرين في أورشليم. ولكنني، بصراحة، خفت ألا تخذلها مدينتنا، وأحببت أن أسمع رأيها كامرأة. وقبل كل شيء أحببت أن أعرف ما اعتبرته أساسياً بالنسبة لي: كيف يعيش اليهود في أفسس؟ هل عددهم كبير؟ هل هم سعداء؟

- لهم أحياؤهم السكنية الخاصة، ولا يرتادون المسرح ولا الملعب. قلما يُشاهدون في الشوارع أو الآغورا، أي الأسواق العامة.

- والمعمدون بينهم؟

- حسب! لا يميز الأفسسيون بينهم وبين الآخرين. والوثنيون المهتدون، مثلي، يستمرون في عيش تقاليدهم مع أصدقائهم اليونانيين.

- هل يقدسون السبت؟

- نعم، غالباً ما. أماه، هناك عبادات كثيرة في أفسس، ويتبع كل واحد طقوسه، وهذه هي ميزة المدينة. إن المرفأ، والشوارع، والمكتبات، والسوق، ومحلات الصيرفة مليئة بالغرباء، وتتجاور كل الأزياء، واللغات، والعادات، والآلهة.

تعتز أونيكيا بولادتها في هذه العاصمة الآسيوية. وهي لا تعرف شيئاً عن الهزة الأرضية التي حطمت المباني الرئيسية في المدينة، وإنما تتكلم عن مشروع إعادة بنائها.

- ورشة عملاقة. كل شيء يتجدد ويتوسع: المسرح، قاعة الخطابة، الملعب، مسابح المياه المعدنية، والشوارع، ميدان السباق.. وخاصة هيكل أرطميس الذي يعتبر إحدى عجائب الدنيا. فالسواح يأتون من كل صوب للإعجاب به. إن هذا الهيكل يشبه هيكلكم ببهائه.

كيف تقول ذلك... هل يمكن المقارنة مع ما لا يقبل المقارنة؟ إن ما تصفه لي أونيكيا يختلف تماماً عما عندنا، وخاصة الميدان الطويل الذي يصل إلى المقدس، بأنصابه، وأعمدته المزخرفة. وأضافت:

- في يوم من الأيام ينبغي أن يرفع تمثال للرب يسوع في وسط الهيكل. سيتم ذلك، أنا متأكدة.

ثم سألتني:

- قولي لي كيف كان ابنك؟ لابد أنه كان أجمل الرجال. كيف كان لون عينيه، لون شعره؟ هل صحيح أن شعره كان أشقر كشعر الملك داود؟

وتعجَبْتُ كيف أعيش ضمن الجماعة.

- لماذا لا تملك أم المخلص قصراً وعبيداً يخدمونها؟ لو كانت عندنا، لنالت تكريماً أكبر من الأَلهة أرطميس. هل أنتم متأكدون من أن ابنها راض عما تقدمونه لخدمتها؟ سيكرسون لها معابد في المستقبل!

كنت أصغي بدهشة وإعجاب كيف دُعِيَتْ هذه المتوحشة الصغيرة إلى حضن إبراهيم. ولكني قلقة أيضاً بشأنها. إنها لا تعرف شيئاً عن التوراة، عن هذا الدرب الطويل الذي سلكته كلمة الله عبر تاريخنا: عهد سيناء بين الخالق والشعب الذي اختاره، نزول الشريعة، فتح أرض الميعاد، كل الأحداث التي أعدت بها العناية الإلهية هذه الأيام الراهنة. فقلت لبريسكلا:

- يجب تنشئتها وتكملة تعليم بولس. أي معلم سيتكفل بذلك... إنها طفلة...

لم تكن بريسكلا من هذا الرأي.

- لماذا نحشو دماغها. إنها تؤمن بأن إله الحب أرسل ابنه في وسطنا، وبأنه مات من أجل خطايانا، وإنه قام من بين الأموات، وسيأتي قريباً ليدخلنا في مجده. هذا يكفي.

مهما فكرت بريسكلا، فقد أعددتُ خطاباً قصيراً وفي نيتي أن أتلوه على أونيكيا في اليوم التالي، موجزه أن أسرد لها أسماء أنبيائنا وأجدادنا الذين ثبتوا، بالرغم من كل الظروف، وإن تراوحوا بين العقاب والثواب، بين التجربة والأمانة، فلقد استقلوا سفينة الحياة عبر الأجيال من دون أن يخونوا الأوحد. ولكن جداراً ثخيناً واجهني في الصباح: إن نقل مثل هذا الإرث إلى من ولدوا تحت السقف الأبوي مهمة تفوق طاقتي..

بل هي مهمة الروح الذي قال عنه ابني: "المؤيد، الروح القدس هو يعلمكم جميع الأشياء، ويذكركم بجميع ما قلته لكم".

[...]

قاموس المفردات

الأسينيون: جماعة صوفية عاشت حياة مشتركة كالرهبان على ضفاف البحر الميت، مع العزوبية، ومشاركة الأموال، والطهارة الطقسية، وتقاسم الخبز والخمر، والحفاظ على قدسية السبت. لربما قضى يوحنا المعمدان فترة من الزمن عندهم.

أممي، أمميون [كوييم]: هو الاسم العبري الذي أطلق على الوثنيين، أو الأمميين، كما يرد في كتاب أعمال الرسل. ترد الكلمة أحياناً بمعنى الكفار.

باراشا: مقتطفات من التوراة تقرأ يوم السبت في المجمع مع الهافتارا.

بار مينسوا: حرفياً "ابن الوصية". أي مطبّق الشريعة. صفة تطلق على الصبي حين بلوغه الثالثة عشرة من عمره ودخوله عالم البالغين بخضوعه لأحكام الشريعة على قدم المساواة معهم.

بوريم: عيد لذكرى تدخل الملكة أستير لدى زوجها الملك الفارسي أحشويرش للرأفة ببني قومها. وعلى أثر ذلك صدر مرسوم العودة من سبي بابل.

تابوت العهد: صندوق خشبي مقصّب بالذهب، يحتوي على لوحي الوصايا العشر. حفظ في خيمة، وكانت الخيمة بمثابة هيكل متنقل مع الشعب. ثم نقله داود الملك احتفالياً إلى أورشليم، ووضعه سليمان في الهيكل الذي بناه: رمز حضور الله بين شعبه. فقدت آثاره منذ تدمير الهيكل على يد البابليين سنة ٥٨٧.

التوراة: الاسم العبري الذي يطلقونه على الشريعة الموسوية وعلى سفر تثنية الاشتراع. ويطلق أيضاً على مجموع كتب العهد القديم.

تيفيليم: شرائط جلدية تنتهي بحقين معدنيين يحتويان على آيات توراتية يحملها اليهود أثناء الصلاة.

الحسيديم: حزب الغيارى الذين شقوا عصا الطاعة على المحتل الروماني بالسلاح، غيرة على الشريعة والاستقلال. يرد ذكرهم في العهد الجديد.

خازن: الخازن هو المتقدم الذي يقود الاحتفالات في المجمع.

خائفو الله: لقب أعطي للوثنيين الذين اتبعوا التوحيد اليهودي من دون ختانة. وقد انتمى عدد كبير من هؤلاء "الأمميين" إلى المسيحية في نشأتها.

رابي: لقب المعلم الذي له تلاميذ يتبعونه.

الرواق، رواق الهيكل، الأروقة: أروقة هيكل أورشليم مخصصة للحجاج والمصلين، منها يتابعون الاحتفالات. ومن هذه الأروقة: رواق الأمم: مفتوح للجميع، مختونين وغير مختونين؛ رواق النساء: خاص بالنساء ومفصول عن رواق الرجال؛ رواق الإسرائيليين: خاص باليهود، ومفصول عن غيره بحاجز مع كتابة المنع بالعبرية واليونانية واللاتينية، تحت طائل الموت؛ رواق الذبائح: ويحيط بالمقدس. وقد يقصد بكلمة "الرواق" أو "الأروقة" أحياناً الهيكل كله.

السدر: اسم آخر للعشاء الفصحي

الشابوعوث: اليوم السابع. أو الأسبوع السابع.

الشريعة: تشير إلى مجمل العهد القديم، أي التوراة (يشوع ١: ١٨؛ نحميا ٨: ٢). وتضم العبارة مجموعة الشرائع والقوانين والتوجيهات التي تنظم العبادة وتستلهم في السلوكية

الفردية والأجتماعية، وتثبت الحقوق، وترتب تعليمات الاحتفالات والذبائح والأعياد والوصايا العشر.

شمع: حرفياً "إسمع" وهي مطلع الآيات الواردة في سفر تثنية الاشتراع لدى نزول الوصايا: "إسمع الفرائض والأحكام..." وهي بمثابة الفاتحة.

الأشهر العبرية: (وهي صدى للأشهر البابلية) نيسان (= آذار – نيسان)، أيار (= نيسان – أيار)، سيفان (= أيار – حزيران)، تموز (= حزيران – تموز)، آب (= تموز – آب)، إلول (= آب – أيلول)، تشري (= أيلول – تشرين الأول)، مارشوان (= تشرين الأول – تشرين الثاني)، كيسلو (= تشرين الثاني – كانون الأول)، تابت (= كانون الأول – كانون الثاني)، شبات (= كانون ٢ – شباط)، آدار (= شباط – آذار).

الصدوقيون: جماعة تنتمي في الغالب إلى الأرستقراطية الكهنوتية، وهم على الضد من الفريسيين. يرفضون التقليد الشفهي. لا يؤمنون بالقيامة، ولا بالحياة الأبدية. يمقتهم الشعب. وقد تصدّوا بشراسة لتعليم يسوع.

طليث: شال او وشاح يوضع على الرأس، للرجال، أثناء الصلاة.

عالم الشريعة [علماء الشريعة]: أو الكاتب (الكتبة): لقب المتعلم، أو المتبحر في علم الكتاب، وقد ينتظر ٣٠ أو ٤٠ سنة لنيل اللقب. والكاتب الذي يجمع حوله تلاميذ يدعى "رابي" (أي سيدي أو معلمي) لم يكن الكتبة من الصف الكهنوتي، ولكنهم أعضاء في المجلس الأعلى. والكتبة هم رعاة القانون والشريعة وأهل الفتوى. لعبوا دوراً كبيراً في الحفاظ على الشريعة، وبالتالي على الهوية اليهودية. أشهرهم في القرن الأول المسيحي: هيلليل، شمعي، جملائيل الأول، وجملائيل الثاني.

فريسي: الفريسيون هم إحدى الشرائح اليهودية الكبرى الثلاث، إلى جانب الصدوقيين والأسينيين. يؤمنون بخلود النفس، وقيامة الأجساد، والأرواح والملائكة، والثواب والعقاب. من شدة تعلقهم بالشريعة أصبحوا حزب المتشددين والمتمسكين بمظاهر الشريعة، لذا كانوا

على طرفي نقيض مع تعليم يسوع الذي توجه إلى أعماق الإنسان، إلى العبادة القلبية الداخلية والإيمان الذي يحرك الأعمال. كان جملائيل معلم بولس فريسياً.

الفصح: عيد الفصح. وهو أهم احتفال يحج فيه اليهود الذكور، أينما وجدوا، إلى الهيكل. وقد أنشئ العيد لذكرى التحرير من مصر، وأخذ عمقه بعد العودة من الجلاء. ثم أبعاده المسيحانية مع فصح يسوع المسيح ونبيحة ذاته، وهو يرمز إلى الخلاص وتحرير الإنسان كله من كل العبوديات وعودته ابناً حراً محبوباً لله.

لولاب أو لولاب: أغصان نخل أو زيتون أو أي شجر يلوّح بها المحتفلون في أعياد المظال.

مازوت: خبز فطير يأكله اليهود في زمن الفصح لاستذكار رحيل آبائهم المفاجئ من مصر.

المجلس الأعلى [سنهدريم]: هو المجلس اليهودي الأعلى، بمثابة المحكمة العليا في أورشليم. له الصلاحية في إصدار حكم الإعدام في بعض الحالات الخطيرة. ولكن التنفيذ يحتاج إلى تأييد السلطة الرومانية المحتلة. حضور ٧١ عضواً كان ملزماً لمناقشة قانونية جادة. وفي الحالات الاعتيادية كان يكفي ٢٣ عضواً.

مدراش: تعليق على نص بغاية التعليم والإرشاد. من فعل درش: درس، تعلّم.

نزير أو نذير: منذور لخدمة الرب لوقت محدد، من دون هجر المجتمع. وإبان فترة النذر يمتنع صاحبه عن شرب الخمر والسوائل المخمرة، ولا يجز شعره، ولا يمس جيفة. وفي نهاية النذر يقدم الناذر نبيحة، ثم يجز شعره ويحرقه.

مشل، أو مثل: قصة ذات عبرة، أو مثل تعليمي تربوي.

نيومانيا: عيد القمر الجديد.

هاروسيت: حشائش مرة تؤكل عشية الفصح في عشاء السدر، وهو اسم آخر لعشاء الفصح، لاستذكار مرارة زمن العبودية في مصر، وزمن المرار في صحراء التيه في سيناء.

هافتارا: مقتطفات من كتب الأنبياء يقرأها المحتفل في المجمع.

هاقاديش: من "قادش" وهي صلوات تقديس اسم الحي. وتتلى بمناسبة الوفاة.

هانوكا: الافتتاح الرسمي وتكريس الهيكل بعد انتصارات يهوذا المكابي على أنطيوخس أبيفانس الذي فرض الهيلينية على اليهود بالقوة. وعيد الهانوكا يقع في ٢ من شهر كيسلو.

الهيكل: هو مقدس العبادة الأوحد. بني على جبل موريا في أورشليم على يد سليمان الملك. دمره البابليون أول مرة سنة ٥٨٧. أعيد بناؤه سنة ٥١٦. وسّعه هيرودس سنة ١٨ ق م. دمره نهائياً تيطس الروماني سنة ٧٠ م.

يهوه: اسم الجلالة، ومعناه "الكائن بذاته". وقد اتخذ اسم الله صيغ أخرى وردت في الكتاب مثل: إيل؛ إيلوهيم (صيغة الجمع بمعنى الإله الشمولي)؛ إلشدّاي (ومعناه الأول: القوي، أو كما يترجمها البعض "رب القوات")؛ آدوناي (ومعناه "ربي" بصيغة التحبب والألفة)، الأسمى؛ الأزلي؛ القدير.

يوم الرب: يوم الأحد، التالي ليوم السبت، فيه كان المسيحيون الأولون يقيمون رتبة كسر الخبز أي الأوخارستيا.

يوم كيبور: يوم التكفير. عيد رسمي للاحتفال باليوم العاشر من الشهر السابع للتوبة والتطهير.

الفهرست

كلمة الناشر	٧
تقديم المعرب	٨
- القسم الأول	١٥
الفصل الأول: ما سمعناه...	١٧
الفصل الثاني: أرض صراع	٢٩
الفصل الثالث: خطوبتي	٣٩
الفصل الرابع: شهر الفصح	٤٥
الفصل الخامس: عيد المظال	٥٩
- القسم الثاني	٦٧
الفصل السادس: الذكريات...	٦٩
الفصل السابع: تخوفاتي	٨١
الفصل الثامن: وبلغنا الناصرة...	٩١
الفصل التاسع: نظام هشّ	١٠١
الفصل العاشر: أمام ملك الكون	١٠٩
الفصل الحادي عشر: صورة أبيك	١١٧
الفصل الثاني عشر: غيابك	١٢٥
الفصل الثالث عشر: يوحنا ابن إليشباع	١٣٥
- القسم الثالث	١٤١
الفصل الرابع عشر: مراحل حياتي	١٤٣

الفصل الخامس عشر: العاصفة	١٥١
الفصل السادس عشر: العوز وليس الدَين	١٥٩
الفصل السابع عشر: زمن الحج	١٦٥
الفصل الثامن عشر: بيت لحم	١٧١
الفصل التاسع عشر: الأطفال	١٧٧
الفصل العشرون: المسحاء الدجالون.. وهرب التلاميذ	١٨١
الفصل الحادي والعشرون: يا إلهي لماذا تركته؟	١٨٧
- القسم الرابع	**١٩٥**
الفصل الثاني والعشرون: قد أقامه الله	١٩٧
الفصل الثالث والعشرون: إخوة وأخوات يسوع	٢٠٥
الفصل الرابع والعشرون: إلى أنطاكيا	٢١١
الفصل الخامس والعشرون: ثقل السنين	٢٢١
الفصل السادس والعشرون: على شرف بطرس	٢٢٧
الفصل السابع والعشرون: غادروا أورشليم	٢٣٣
الفصل الثامن والعشرون: شاول الترسوسي؟	٢٤١
- القسم الخامس	**٢٤٩**
الفصل التاسع والعشرون: من جديد في الجماعة	٢٥١
الفصل الثلاثون: حقل الأبرار	٢٥٩
الفصل الحادي والثلاثون: حصاد البواكير	٢٦٥
الفصل الثاني والثلاثون: مجمع أورشليم	٢٦٩
- الخاتمة: أكيلا وبرسكّلا	**٢٧٥**
- قاموس المفردات	٢٧٩
- الفهرست	٢٨٤

كتب للمعرب

تأليف

١. ايدل كوين (الموصل ١٩٦٣)
٢. شارل دي فوكو رسول الأخوّة الشاملة (بيروت ط١ ١٩٦٨، ط٢ ١٩٩٢)
٣. رسالة الأخ شارل إلى بني جيلنا (بغداد ــ حلب ١٩٧٨)
٤. المسألة الدينية في المجتمع العربي ــ أطروحة ماجستير بالفرنسية (لوفان ــ بلجيكا ١٩٧٩)
٥. همسات أبو فادي (الجزء الأول/ بغداد ١٩٨٥)
٦. حياتي هي المسيح ــ رسالة راعوية (الموصل ٢٠٠٠)
٧. الأسرة المسيحية ــ رسالة راعوية (الموصل ٢٠٠٢)

تعريب

١. نداء الأبطال (بيروت ١٩٦٧)
٢. إخوتي جميع البشر (ط١ / بيروت ١٩٧١، ط٢ / ١٩٩٢، ط٣ / ١٩٩٦)
٣. طريق الصلاة مع الأخ شارل (ط١ / لبنان ١٩٨٤، ط٢ / ١٩٩٨)
٤. بحثت ووجدت (بغداد ١٩٨٦)
٥. روح الطفولة طريق الملكوت (لبنان ١٩٨٦)
٦. على دروب الناصرة (بيروت ١٩٩٧)
٧. إيليا واليشاع (ملف ٣/ الموصل ٢٠٠١)
٨. حزقيال النبي (ملف ١٠/ الموصل ٢٠٠٢)
٩. سفر يونان (ملف ١٣/ الموصل ٢٠٠٣)
١٠. لماذا يا رب؟ لغز الألم (بغداد ٢٠٠٣)
١١. أشعيا النبي (ملف ٢٢/ الموصل ٢٠٠٥)
١٢. الكنيسة التي ورثناها عن الرسل (ابحاث كتابية ٧/دار بيبليا-الموصل ٢٠٠٥)
١٣. أشعيا الثاني وتلاميذه (ملف ٢٧/ الموصل ٢٠٠٧)
١٤. يسوع الذي هو المسيح (ابحاث كتابية ١١/دار بيبليا-الموصل ٢٠٠٧)
١٥. افتتاحيات الفكر المسيحي (مشترك) (مختارات الفكر المسيحي ٤/ ٢٠٠٧)
١٦. همسات أبو فادي (الجزء ٢) (مختارات الفكر المسيحي ٥/ ٢٠٠٧)
١٧. دليل الأبرشية – ط٢ (بغداد ٢٠٠٨)
١٨. مذكرات مريم، فتاة الناصرة (ابحاث كتابية ١٤/دار بيبليا-الموصل ٢٠٠٩)

إعداد وتقديم

١. كتاب يوبيل دير مار بهنام (بغداد ١٩٨٤)
٢. دليل أبرشية الموصل للسريان الكاثوليك (الموصل ٢٠٠٢)
٣. القداس السرياني (بغداد ٢٠٠٣)

قيد الإعداد

٢. كلمتك مصباح لخطاي
٣. جذور المسيحية في الشرق

أنجزت شركة الديوان للطباعة والنشر
طبع هذا الكتاب في ١٠ كانون الثاني ٢٠٠٩

سلسلة أبحاث كتابية

تصدر عن مركز الدراسات الكتابية في الموصل (العراق) لتمكن القراء من الدخول إلى عالم الكتاب المقدس وفق منهج علمي رصين وتوّجه راعوي أصيل.

سلسلة كتب، مؤلفة أو معربة، تسهم في جعل كلمة الله المدوّنة سهلة المنال، عذبة المذاق. وترسخ أسس الوحدة في قلب الكنائس المسيحية التي تقرأ الكتاب لتتغذى منه وتشهد له...

ظهر منها:

١. قراءة مجددة للعهد الجديد	تأليف: الأب بيوس عفاص/ بغداد ١٩٩٩
٢. يسوع الذي من الناصرة/ بقلم مرقس الإنجيلي	تأليف الأب ماري ـ اميل بوامار تعريب الأب بيوس عفاص/ بغداد ٢٠٠٢
٣. قراءة في العهد القديم/ ج١: قبل الجلاء	تأليف: أربعة اختصاصيين في الكتاب المقدس تعريب الأب بيوس عفاص/ بغداد ٢٠٠٣
٤. قراءة في العهد القديم/ ج٢: من الجلاء إلى يسوع	تأليف: أربعة اختصاصيين في الكتاب المقدس تعريب الأب بيوس عفاص/ بغداد ٢٠٠٤
٥. قراءة في العهد الجديد/ ج١: الأناجيل الأربعة	تأليف: أربعة اختصاصيين في الكتاب المقدس تعريب الأب بيوس عفاص/ بغداد ٢٠٠٤
٦. قراءة في العهد الجديد/ ج٢: أعمال الرسل، الرسائل، الرؤيا	تأليف: أربعة اختصاصيين في الكتاب المقدس تعريب الأب بيوس عفاص/ بغداد ٢٠٠٤
٧. الكنيسة التي ورثناها عن الرسل	تأليف: ريموند براون تعريب المطران جرجس القس موسى/ بغداد ٢٠٠٥
٨. لوقا الأعمال/ وعد التاريخ	تأليف: دونالد يوئيل تعريب الأب البير أبونا/ بغداد ٢٠٠٦
٩/١٠. روايات الآلام والقيامة/ بحسب الانجيليين الاربعة	تأليف: الأب بيير بنوا الدومنيكي تعريب: الأب بيوس عفاص/ بغداد ٢٠٠٦
١١. يسوع الذي هو المسيح/ الله يتخذ له وجها	تأليف برنار راي تعريب: المطران جرجس القس موسى/بغداد ٢٠٠٧
١٢. من أجل إيمان جاد/ الايمان بحسب القديس يوحنا	تأليف: الكردينال مارتيني تعريب: الاب البير ابونا/ الموصل ٢٠٠٨
١٣. الانجيل بحسب القديس متى (سلسلة "تفاسير"/ ١)	تأليف: كلود تاسّان تعريب الأب بيوس عفاص/ الموصل ٢٠٠٨
١٤. مذكرات مريم، فتاة الناصرة	تأليف: جاكلين سافيرا تعريب: المطران جرجس القس موسى/الموصل ٢٠٠٩

سيظهر

١٥. الانجيل بحسب القديس يوحنا (سلسلة "تفاسير"/٤) – في خريف ٢٠٠٩

١٦. رسائل القديس بولس/جـ١: الرسالتان الى اهل قورنتس

١٧. رسائل القديس بولس/جـ٢: الرسالتان الى روما وغلاطية

١٨. رسائل القديس بولس/جـ٣: افسس، فيلبي، قولسي، تسالونيقي، طيموثاوس، طيطس، فليمون

سلسلة ابحاث كتابية [١٤]

مذكرات مريم

تعريب: المطران جرجس القس موسى

الكتاب الذي بين يديك ليس نصا إنجيليا، وان كانت أحداثه وأقواله مشبعة بأجواء الإنجيل؛ ولا هو سفر من أسفار التوراة، وان كانت التوراة تلفّه بروحها واستذكاراتها من الألف إلى الياء؛ ولا هو مخطوطة عتيقة اكتشفت حديثا *مذكرات* مزعومة كتبتها مريم. بل انه عمل أدبي على شكل رواية طويلة *ومذكرات* من نسج الخيال، تعيد فيها المؤلفة تركيب أحداث حياة مريم وابنها يسوع وتلامذته الأوائل، بأسلوب قصصي بارع ورقيق، وفي قراءة مجددة على ضوء الوقائع اللاحقة، وتضع هذه "*المذكرات*" على لسان مريم.

لو كتبت مريم مذكراتها عما جرى لها وما شاهدته وسمعته، وعادت وقرأته بأعين فتاة تقية، وإحساس امرأة مرهفة، وعاطفة أم حنون لوجد لم تفهم بواطن رسالته دوما.. فهذا بعض مما كانت ستكتبه!..

يطلب من مكتبة بيبليا ـ الموصل ـ العراق
سعر النسخة ... ٥ دينار

شركة الديوان للطباعة والنشر
بغداد ـ العراق